

القسم الخامس

غزوات وتجارة وشعوب

الداخلون إلى الصحراء (١) عصر بني حسان (ح. القرن ١٤ - القرن ١٧م)

«كالجراد المنتشر، لا يمرون على شيء إلا أتوا عليه»

ابن خلدون

«مدن كثيرة خربتها العرب عند دخولهم»

الاستبصار^(١)

في القرن الحادي عشر عبر شعب كثيف من عشرات الآلاف نهر النيل إلى إفريقيا (تونس) وهزموا الصنهاجيين والزناتيين فيها. وبعد قرون سيفعلون الشيء نفسه في جنوب الجزائر والمغرب وفي الصحراء، مغيّرين تاريخها إلى أبعد حدّ. كان هؤلاء عرب بني هلال وبني حسان؛ وكانت رحلتهم رحلة بطولية طويلة وقد سُجّلت في إحدى أكبر الملاحم العربية: تغريبة بني هلال. دُوّنت الملحمة في مئات الآلاف من الأبيات من الشعر الغنائي الذي تراكم نتيجة للمشاركة الجماعية عبر التاريخ للعشرات من المؤرخين من الشعراء الغنائيين والحكواتيين الذين واكبوا أو سمعوا بمسيرة الشعب الهلالي ومِحنه وآلامه وانتصاراته على أعدائه. تتوقف الملحمة عند وصول الهلاليين إلى المغرب العربي في القرن الثالث عشر، ولكن التاريخ استمرّ بعد الملحمة الغنائية، حيث واصل الهلاليون والسليميون

(١) الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول، نشر ألفرد د كريمة، فيينا، ١٨٥٢، ص ٤٨.

صعودهم في إفريقية والمغرب قبل أن ينحدر بعضهم إلى الصحراء. وفي سبيل صعودهم وتماسكهم خاضوا حروبًا ضروبًا ودخلوا في ثورات وانتفاضات كبيرة. تحالفوا مع ابن غانية ضد الموحيين، وحلّوا محلّ الجداليين والهسكورة في السوس وسجلماسة بعد انهزامهم أمام المصموديين، وتوطّنوا في الواحات في جنوب المغرب حيث دفعوا بعض القبائل إلى المغادرة إلى الصحراء. ثم بدأت ملحمتهم البطيئة في التدفق إلى الصحراء.

لاحت بداية ملحمة الهلالين في إفريقية في أواخر القرن العاشر وتحديدًا في عام ٩٦٩م. ففي تلك الفترة كان الفاطميون الذين تحوّلوا إلى مصر قد بدأوا يخسرون نفوذهم في المغرب وإفريقية، مكان سيطرتهم الأول؛ وذلك بفعل الاستقلال النسبي الذي تمتّع به وكلاؤهم الزيريديون. وقد نجح المنصور بن تولوجين (٩٦٦-٩٨٤)، الطموح سياسيًا، في إعلان هذا الاستقلال بعيد وفاة والده، مستفيدًا من تشجيع العامة والنخب السنية المالكية، الراديكالية في حينه. حاول الفاطميون الردّ على الانفصال بدعم انتفاضة كتامية (٩٨٦-٩٨٩)، ولكنها لم تحقّق مرادها. وعندما فشلت اهتدى الوزير الفاطمي الحاذق، أبو محمد الحسن اليازوري (قُتل ١٠٥٨)، إلى إقناع الخليفة الفاطمي، المستنصر بالله (١٠٣٦-١٠٩٤)، بإطلاق العرب الهلالين ضدّ التمرد الزيريدي^(١).

كان الهالليون والسليميون عربًا من اليمن انحدروا من قبائل مذحج القحطانية، وإن كان سيتمّ تحريف أصلهم إلى أصل جعفري شريف في إطار عملية صناعة الأنساب التي شاعت في فترة النزول إلى المغرب والصحراء، والتي توافقت مع التحولات الاجتماعية السياسية الكبيرة في تلك المناطق^(٢). وقد هبطوا في دلتا النيل بمصر في إطار هجرة طويلة قاسية فرضت عليهم حياةً عسكرية بدوية. كان الانفصال الزيريدي فرصة لحكام مصر الجدد في التخلّص منهم. وفي منتصف القرن الحادي عشر، عام ١٠٥٢، استطاع اليازوري إقناعهم بالخروج بإغرائهم

(١) ابن خلدون، ج ٦ ص ١٤.

(٢) ابن خلدون، تاريخ، ج ٦ ص ٥٩.

بالمال والغنائم والأسلاب. دفع الفاطميون دينارًا أو دينارين لكل هلاللي أو سليمي يرغب في الخروج، غير أن المحفّز الأهم كان الظرف الاقتصادي؛ إذ كان العام عام قحطٍ تهدّدت فيه حياة الهلاليين الرعوية.

وهكذا بدأ سفر خروج بني هلال وبني سليم بحوالي ٥٠٠٠٠ وعدد «لا يحصى» من النساء والأطفال والبهائم»^(١). وعلى مدى القرون اللاحقة ستقوم هذه القوة بتدويخ إفريقية والمغرب. عندما وصلوا إلى برقة فضّل بنو سليم التقرّي والاستقرار والتخلّي عن نهج البداوة والحراية (نهج الأرستقراطية البدوية في التكسب من الحرب والغزو والسلب). غير أن الهلاليين كانوا أكثر طموحًا، فقد فهموا ضعف السلطان الزيريدي وأرادوا سلطةً سياسيةً وازنةً وسيطرةً على المدن أو الواحات الزراعية. فبقوا يحاصرون القيروان مدة خمس سنوات، يصيّفون في حصارها ثم يهدونها عطلة شتوية يعودون فيها للجنوب (في تونس وليبيا). وفي عام ١٠٥٧ هرب السلطان الزيريدي، المعزّ، إلى المهدية، المحصّنة أكثر، فاتحًا الباب للقبائل الهلالية^(٢).

كان فتح القيروان بداية عصر من الهجمات الضارية من قبل الهلاليين الذين وصفهم ابن خلدون بأسراب الجراد^(٣). عبّر جيشهم مدمرًا إفريقية، ثم بعد قرابة نصف قرن وصلوا إلى الجزائر التي كانت في أيدي الحماديين، الصنهاجيين، الذين انحسروا إلى الساحل في عام ١١٠٤، بطريقة الزيريديين نفسها، عن عاصمتهم، قلعة حماد، وآووا إلى بجاية، التي ستصبح حاضرتهم. وهناك أرسل بنو هلال نظامهم الاجتماعي الذي سيقومون بما يشبهه في موريتانيا، وذلك عندما بدأوا آخر عمليات التعريب الشعبي من المدن إلى القرى، حيث ستسود لغتهم العربية، بعد امتزاجها قليلًا بلغات المجال، أساس لغة التواصل العام في مساحات هائلة وأساسية. ورغم هذا، وربما بسبب تنظيمهم الانقسامي، لم يشيّد الهلاليون دولة مركزية وإنما بقوا إمارات وطوائف متفرقة ومتوطّدة على أساس

(١) الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج ١، ص ٤٦.

(٢) ابن خلدون، ج ٦ ص ١٥.

(٣) ابن خلدون، ج ٦، ص ١٤.

عشائري، مؤذنين بعصر من التشرذم والطوائف بعد عقود من الدول المركزية. كان القرن الحادي عشر عصر قوتين كبيريتين: واحدة قادمة من الجنوب الصحراوي هي الصنهاجيون الملتصمون الذين سيصلون الأندلس وشرق الجزائر، أما الثانية فكانت الهلاليين القادمين من الشرق الذين بلبلوا إفريقية والمغرب الأوسط (الجزائر). لقد التقى هذان الخصمان مؤقتًا عندما دعم يوسف بن تاشفين البربر في الجزائر وتونس ضد بني هلال وبني حسان^(١). ولكن اللقاء الحقيقي بين القوتين لن يحدث إلا في المغرب في القرن الثالث عشر وفي الصحراء بعد ذلك، وسيسفر عن تغيّرات اجتماعيّة مهمة في الشعب الصحراوي البيضاني.

في نوفمبر عام ١٠٨٤ قام الأتباع، وهم نواة الهلاليين المتغلغلين في المغرب، بعقد أول تحالف لهم مع الصنهاجيين في إطار التعاضد مع آخر قوة مرابطية في المغرب: ابن غانية، الذي استطاع فجأة السيطرة على بجاية بعيد مغادرة حاكمها الموحدي إلى مراكش حيث البلاط الموحدي^(٢)، وبدأوا يمارسون الجباية على المدن والتجمعات الكبيرة^(٣). وبدأ بعضهم في الهبوط إلى جنوب المغرب والجزائر، فيما بقيت مجموعات صغيرة منهم تقوم بتحالفات هنا وهناك مع المرينيين. ولجأ بعضها إلى التقري وانتهاج الزراعة متخليًا عن كبريائه، حسب عبارة ليون الإفريقي^(٤). في الجنوب أصبح الهلاليون أسياد المناطق الصحراوية التي أنشأها المرينيون وسابقوهم: السوس، توات، بداه، تامانتي، ورغلان (ورقلة)، تاسبيت، تيكورارين. وهنالك تصارعوا مع البربر الزناتيين على سيادة الكصور والواحات التي تمرّ عبرها الأنهر والبحيرات، واستطاعوا إخضاعهم وجعلهم يدفعون الإتاوات. وفي الوقت نفسه كانوا يدفعون الجزية للملوك الزناتيين الذين فرضوا عليهم الدييات وضريبة «جمل الرحيل»، التي كان الأمراء الزناتيون يحدّدونها كيفما أرادوا^(٥). وبهذا حلّوا في منطقة ما من هرم السلطة بين

(١) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج ١ ص ٤٦.

(٢) ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٠.

(٣) ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤.

(٤) الحسن الوزان، ج ١ ص ٤٧.

(5) Norris, *The Conquest*, 18-21.

قوى البربر المتعدّدة، وضمنوا تفوقاً على الجزوليين والجداليين، ولم يكونوا عطوفين عليهم. وأمام ضعف الجزوليين والجداليين، الذين فروا من القمع الموحد، انفتح المشرق المغربي أمام الهلاليين. وفي الواحات، خصوصاً في توات ونواحيها، نجحوا في طرد عناصر من القبائل إلى الصحراء في موريتانيا الحالية حيث استقرت. وفي عام ١٢٧٠ دُون ابن أبي سعيد عن استقرار القبائل المعقلية في جنوب المغرب في مجاورة مصمودة وبلاد الهنتاة قائلاً:

ويتصل بجبل أزرو جبال صنهاجة وهي كثيرة ملتحمة ومتعرجة. وهذا القبيل أكثر قبائل المغرب، وفي كل أرض منهم خلق ويذكرون أن أصلهم من عرب اليمن، والعروبية بينهم ظاهرة. وبين جبالهم قاعدتهم مدينة تاكلا، حيث الطول اثنتا عشرة درجة والعرض ثلاثون درجة. ويتصل من غربها إلى البحر المحيط جبل درن الكبير المشهور الذي فيه بلاد المصامدة، وهم المعروفون بالموحّدين الذين ملكوا البربر^(١).

وجد المعقليون فرصة سياسية مهمة في فترة تضعضع الحكم الموحد، وذلك عندما استقدمهم أمير محلي بالسوس هو علي بن يدير الزكنداري الذي كان في صراعات مضنية مع الجزوليين، فعنت له الاستفادة من مجموعة حسانية-معقلية هي بنو مختار، الذين كانوا ينتمون لرقيبات المعقل. وهكذا هاجر هؤلاء مع أهلهم واستوطنوا السوس، الذي دخلوا فيه في مواجهة جزولة ف«أخضعوهم وصرعوهم في جملتهم»، كما يقول لنا ابن خلدون. وفتح باب من السيطرة التدريجية للقبيلة المنتصرة، فتوسّعت إلى الحواضر والمدن والمسارح الخصبة في وادي درعة وبدأت فيه فرض الضرائب. وكان الأمر محرّجاً للزكنداري الذي حاول الالتفاف عليه ببدء سياسة إقطاعية، يُمَلِّك فيها أراضي لحلفائه من المعقل من أجل تليينهم واستبقائهم. ونتيجة لهذا، توطّد الكثيرون منهم بصفتهم سلطات إقطاعية محصّلة للضرائب والجبايات^(٢). وعلى هذا تأسّس نظام جبائي عسكري في جنوب المغرب مبني على الولاء والجباية. وقد قدّم ابن خلدون، في آخر تاريخه الكبير، ما يشبه تقريراً صحفياً عن وضعية بني حسان وسيطرتهم على

(١) ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص ٢٦.

(2) Norris, *The Conquest*, 173-174.

القبائل في السوس الذي يصفه بأنه: «اليوم ضاح من ظل الدولة، والعرب يقتسمون جبايته ورعاياه من قبائل المصامدة وصنهاجة قبائل الجبابة، والطواغن منهم يقتسمونهم خولاً للعسكرة، مثل كزولة مع بني حسان وزكرز ولخس من لمطة مع الشبانات، هذه حالهم لهذا العهد»^(١).

وفي منتصف القرن الرابع عشر أصبحت قوة قبائل بني حسان ضاربة من تلمسان إلى وادي درعة والسوس وشمال الصحراء. في تلمسان تصارعوا مع المرينيين، وقام قائدهم، أحمد بن راحو، بثورة شعبية في الجنوب المغربي؛ كما أصبحوا ينجون ضريبة تجبى من وادي درعة، وبهذا تم إقطاع سجل ماسة لبطنين من ذوي منصور يسميان بالأحلاف من القبيلة المعقلية. وكجزء من وظيفتهم السياسية الإدارية الجديدة، قاموا بفرض المغارم (الضرائب غير الشرعية) على المدن. وقد ترك التملك المنصوري-المعقلي لجنوب المغرب الفرصة لبقية الأحلاف في القدوم إلى الصحراء التي أضحت جنة القبائل البدوية التي أصبحت تجد فيها فرصاً للهجوم على القوافل وغزو الواحات والتجمعات القروية في عمق الصحراء الجزائرية وجنوب المغرب حتى المجال الموريتاني. وبدأوا في هذه الفترة في تنظيم شتويات إلى الساقية الحمراء، فيما وراء زاوية أولاد أبي نعمان^(٢). اضطّر المرينيون للسماح للقبائل الهلالية التي هبطت وادي درعة -وهي: البرابيش، الأودية، أولاد رحمون، وآخرون-، باستيطان الوادي والتوغل فيه في إطار إرادة التخلص منهم ومن مشاكلهم. وكان هبوط هؤلاء يعني مزيداً من ممارسة السيادة وفرض المغارم على السوس وتوات وعلى الصحراء وسكانها^(٣). وعدد ابن خلدون هجمات بني حسان على الصحراء في عهده، فذكر أحد غزاتهم المشاهير الذي غاص كثيراً في الصحراء وهو أبو حميدة، محمد بن عيسى، الذي ذكر أنه «كان كثير التقلب في القفار والغزو للقاصية ولأهل الرمال

(١) ابن خلدون، ج ٦ ص ٧٠.

(2) Norris, *The Conquest*, 173;

ابن خلدون، ج ٦ ص ٦٩

(3) Norris. *Winds of Change in Western Sahara*, p. 3

والمثلثين»^(١). وذكر أيضًا سليمان بن ناجي بن عمارة من الزعامات المقاتلة من ذوي منصور من بني حسان الذين كانوا يقطنون في التافيلالت (سجلماسة)، وكان هو نفسه «ينتجع في القفر ويكثر الغزو إلى اعتراض العير وقصور الصحراء»^(٢). وربما كان هذان من أوائل من غزا الصحراء من بني حسان.

تدريجياً أخضعت الهجمات المسلحة كثيراً من الصنهاجيين في الواحات، بحيث إن كلمة «صنهاجة» ستتحول إلى «أزناكة» في اللغة الهلالية وستعني الملحقين أو المضطهدين، بعكس كلمة «عرب» التي ستعني الأسياد (وإن كان ثمة قول إن «أزناكة» هي النطق الصحراوي والأصح لـ «صنهاجة»، وبهذا المعنى فإن ارتباط الأخيرة باللاحق يعني هزيمة جماعية). سيتبلور هذا المفهوم على مدى العقود والقرون اللاحقة بعد قهر القبائل الصنهاجية في الصحراء، التي كانت هويتها الصنهاجية علامة نبل وكرامة. لعل أصول هذه العملية الطويلة بدأت عندما بدأ الهلاليون تأسيس مبدأ الإلحاقية والفتانة القسرية، حيث كان على الإقطاعية العسكرية الاستفادة من المخزون السكاني للقبائل المهزومة فألحقوها بقوتهم العسكرية الضاربة وجعلوها «خولاً للعسكرة»، حسب تعبير ابن خلدون. ويعرف هذا المفهوم في التقاليد الحسانية بـ «التزنكي» أو الصنهاجة التي أصبحت تعني الوضع في مكان دوني. وقد بدأ هذا في شمال الصحراء من خلال إلحاق قبائل جزولة بمحلات المعقل المقاتلة، وعندما فرضت الشبانات الحسانية تبعية عسكرية على قبائل زكّان ولاخ اللمطية. ولم ينتهِ القرن الرابع عشر إلا وكانت امتدادات قبلية من لمطة وجزولة قد أصبحت في أواصر القبائل الحسانية باستدامة. وعلى مدى القرون اللاحقة سيكسب الأمر ديناميكية ذاتية، بحيث إن قبائل جدالية ولمتونة ستجد نفسها مُمتَصّة من قبل القبائل المسلحة، الحسانية كأولاد دليم مثلاً، أو غير الحسانية كأولاد أبي السباع، كما يُخبرنا نوريس^(٣).

نزل العرب للمنطقة المغربية الجنوبية والصحراوية في ثلاثة تجمعات كبيرة:

(١) ابن خلدون، ج ٦ ص ٦٢.

(٢) نفسه، ص ٦٧.

(3) Norris, *The Conquest*, 174.

حكيم وهلال والمعقل. وكانت كل واحدة من هذه التجمعات تضم قبائل متعددة. ولكن مجموعة المعقل هي التي توغلت جنوباً إلى مجال الصحراء من خلال تجمعتين كبيرتين هما: بنو المختار وبنو حسان. كان بنو المختار يضمون كلاً من أولاد دليم والودايا (الأوداية) والبرابيش والرحامنة^(١). وسيكون هؤلاء من أوائل من هبط من بني هلال إلى الصحراء. أما بنو حسان فكانوا يضمون قبائل ستظهر لاحقاً كأولاد رزك والمغافرة (أولاد امبارك وأولاد أحيي من عثمان وأولاد عبد الله وأولاد أحمد من دامن). نزل هؤلاء أولاً شمال الصحراء في نواحي الساقية الحمراء في فترة من القرن الرابع عشر، وبدأ بعضهم في التعرض للقبائل ولل سكان، وكان ينطبق عليهم ما قاله حسن الوزان عنهم في أقصى شرق الصحراء إلى جهة تونس وهو أنهم «أخذوا يتعاطون النهب والقتل وارتكاب أفظع الجرائم، وكثيراً ما [كانوا] يتربصون في الكمائن، حتى إذا مرّ بهم مسافر خرجوا وجردوه من المال والثياب، ثم فتكوا به، فأصبحت الطرق غير آمنة البتة»^(٢). ولكن الكثيرين منهم بقوا بدوًا معتمدين على الإبل وعلى نمط حياة طواعني، هو ما أدخلهم في الصحراء تدريجياً دون أن يكون الأمر متعلقاً بفتح أو عملية عسكرية.

لاحقاً قامت الروايات بأسطرة الدخول الحساني إلى الصحراء، معتبرة أنه فتح عسكري مهول. ويظهر من خلال رواية الشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي ولاحقه، أن وجود إمارة قوية في مواجهتهم هي أبدوكل أو سلطنة لمتونة، هو ما منعهم من التغلغل إلى وسط الصحراء^(٣). غير أن المعطيات تحيل إلى علاقة ديناميكية طوال الفترة بين الحسانيين والصنهاجيين في الصحراء، حيث كانوا يهبطون في القرون اللاحقة إلى الصحراء من أجل المتاجرة مع البرتغاليين. وقد

(١) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج ١ ص ٤٩.

(٢) نفسه، ص ٤٨.

(٣) انظر مثلاً: الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، الرسالة الغلاوية، ص ١٤٦-١٥٤؛ بن محض، تاريخ

موريتانيا القديم والوسيط، ص ٢١٧-٢٢٢.

وانظر أيضاً: ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ٧٧-٩٤. وانظر نقد هذه الرواية في مقابلة أجريتها

بالمراسلة مع المؤرخ والسياسي عبد الودود ولد الشيخ بتاريخ أغسطس عام ٢٠١١، ونشرت على

موقع تقديمي الموريتاني.

وصف المارّون عبر الصحراء في عام ١٤٤٧ حالة من التقابل والتعايش بين العرب والصنهاجيين، وهي حالة التعايش نفسها التي سيتحدّث عنها كاداموستو بعد عقود في صحراء موريتانيا، كما تحدّث أيضًا عنها ليون الإفريقي الذي أشار إلى قبائل بني سليم الغنية التي كانت تعبر الصحراء متاجرة إلى تمبكتو^(١). وهي أيضًا الصورة نفسها التي نقلتها لنا الوثائق البرتغالية في القرن السادس عشر، وإن نقلت لنا توترًا وصراعًا بين العرب والبربر، وهي الصورة نفسها التي نقلها مارمول كربخال في منتصف القرن السادس عشر^(٢). هذا المؤرّخ الأسباني نقل وضعيّة بني حسان من خلال نواتهم القبلية الأولى التي وصلت للبلاد من ذوي عبيد الله وذوي منصور ودليم والبرابيش والرحامنة والأوداية. وفي عهده لم يكن متنفّذًا من هذه المجموعات غير الرحامنة والأوداية؛ بسبب تحكّمهم في ودان وفرضهم المغارم على ولاتة، وهي قوة نبعت أساسًا من سيطرتهم على طريق القوافل. أما بقيّة المعقلين فكانت في فاقة مدقعة وظلت لفترة تمارس قطع الطرق والللصوصية في شمال الصحراء وجنوب المغرب، وكانت عناصرها تنجح أحيانًا في القيام بصنقات وأعمال تجارة مع وادي درعة. وقد قدّم عابر للصحراء تقريرًا عن حالتهم الظرفية هذه، في شمال موريتانيا، التي عرفها بليبيا، قائلاً:

يعيش دليم في صحاري ليبيا مع الصنهاجيين الأفارقة ولا يمكنهم الحصول على أيّ إتاوة من أحد؛ لذلك فإنهم يعيشون عيشة بائسة كلصوصٍ أشرار. يأتي هؤلاء الأعراب عادة إلى إقليم درعة لبادلوا المواشي بالتمر مرتدين لباسًا رديئًا ويبلغ عددهم خمسمائة فارس وتسعة آلاف وخمسمائة راجل. يقيم البرابيش كذلك في صحاري ليبيا باتجاه السوس الأقصى الواقع في طرف مملكة مراكش، وهم عديدون ولكنهم فقراء ولو أنهم يملكون كمية وافرة من الإبل^(٣).

ولا يتعلّق هذا الأمر بنفي الطابع العام لحياة قبائل بني حسان المقاتلة، فقد

(١) نفسه، ص ٥٣.

(٢) كربخال، إفريقيا، ج ١، ص ١٠٦.

(٣) نفسه، ص ١٠٦.

بقيّ نبلاء المعقل أساسًا قوة عسكرية تعيش على المغارم والمكوس وقهر المجموعات وإحاقها والتزاج بها وتكثيف الأنساب بها. وكانت هذه الفترة فترة تحولات ذاتية في المعقل، حيث ظهرت تجمعات قبلية جديدة غير معهودة أو منتشرة في السابق كالمغافرة والبرابيش. ولكن من الواضح أن هذه القبائل بقيت مشتتة ولم تشغل قوةً فاتحة موحدة كما تم تصويرها. ولقرنين، فإنها كانت على تعايش مع الصنهاجيين وأحيانًا دخلت في مواجهات معهم. أما سيطرتها على الصحراء فقد أتت لاحقًا من خلال ديناميكيات اجتماعية عديدة ومختلفة أخذت قروناً.



من الأرجح أن الصحراء قبل مقدم بني حسان كانت مكانًا تسود فيه مجموعات صنهاجية قبلية عدة، وإن كان لا يمكن الجزم بطبيعة وحجم سيطرتها. وتذهب الروايات التاريخية إلى انقسام هذه المجموعات إلى ثلاثة تجمعات كبيرة بسطت نفوذها في الصحراء بين الشرق والشمال والغرب. فبينما كان الأنباط يسيطرون على تگانت والركيبة، فإن أبناء عمومتهم من إيديشلي كانوا سادة آدرار، أما انيرزيك الذين رأيناهم يتاجرون مع البرتغاليين فكانوا سادة أرض الغبلة وسواحل المحيط في الغرب. وفي الشمال كان التجمع شبه الأسطوري، أبدوكل، القوة الأساسية^(١). ولكن من الأرجح أن هذه السلطات لم تكن دولاً أو إمارات قوية بالمعنى الذي سيتوطد لاحقاً؛ إذ كانت الصحراء مجاًلاً مفتوحاً من خلال حرية الدخول والخروج التي أتيحت للمارين بالمجال من العرب من بني حسان ومن البرتغاليين الذين سيقومون بحرب تأسيس وتجارة طويلة. وربما لم تكن هذه المجموعات غير قبائل محاربة صغيرة تصول وتجول في عرض الصحراء. ويظهر لنا ضعف انيرزيك من خلال الوثائق البرتغالية، التي رغم تسميتها لزعيمهم بالملك، إلا أنها تظهر عجزهم عن وقف قراصنة قشتالة. كما أنهم ربما كانوا نواة أولية من أولاد رزك أو كانوا أقرباءهم. أي إنهم ربما كانوا حسانيين، رغم

(١) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ٧٩.

أن قناعة أغلب المؤرخين الموريتانيين أنهم كانوا صنهاجيين^(١). وربما كانوا مزيجًا بين هذا وذاك.

وفي القرن اللاحق لابن خلدون كان التقابل بين العرب الحسّانيين والبربر الصنهاجيين، الذي نظر إليه المؤرّخون اللاحقون ببنوية مغالية، قد بدأ في التحول إلى تغلغل مهم للعرب في عموم الصحراء؛ فقد كان تجارهم -الذين كان الفروقات اللغوية والشكلية واضحة بينهم وبين الصنهاجيين، كما رأينا في الفصل السابق- يأتون إلى آرغين ويشتررون الملابس والسجادات والقمح، الذي كانت نمط غذائهم الصحراوي يحتاجه. بل كانوا يتوغللون إلى منطقة النهر الصنهاجي (السنغالي) التي كانوا يقومون فيها بتجارة العبيد، التي كانت تناسب وضعيتهم الأرستقراطية القتالية، فكانوا يُحصّلون العبيد غالبًا بالمقايضة بالخيول وبالهجمات. لقد أصبحت الصحراء وطنًا لكل هذه المجموعات لعقود طويلة، وأصبحت خيراتها من التجارة إلى الرعي من حقّ الجميع. ومن هنا وُلد الصراع، ولعلّه كان مناطقيًا وليس نُظميًا، ولعلّه لم يكن يختلف جذريًا عن صراعات القبائل في كلّ فترات الصحراء.

وفي منتصف القرن السادس عشر بدأت المجموعات الحسانية في التطوّر من مجرد مجموعات متاجرة أو ظواعن إلى مجموعات طامحة لممارسة السيادة خصوصًا في مساحات وبقع معينة؛ فوصل المتقدّمون منهم كأوداي (الودايا) والبرابيش إلى وسط الصحراء حيث أصبحوا أهمّ قوة على المنطقة الممتدة ما بين ودان وولاتة وتيشيت. ورغم تراجع مؤقّت للبرابيش، إلا أن الرحامنة والأوداية أصبحوا متنفذين في جنوب آدرار وشمال تگانت، حسب مارمول كربخال^(٢). وقد لاحظ ليون الإفريقي أن أفواج بني حسان طردوا الصنهاجيين ودفعوهم جنوبًا. ومن الأرجح أنه كان يتحدّث عن طريق القوافل الشرقي^(٣). ورغم هذا، فإن نفوذ هؤلاء لم يكن يتعلّق بسيطرة نُظمية أو بفتح مباشر؛

(1) Fransisco Freire, "The "Narziguas".

(٢) كاربخال، ج ١ ص ١٠٧.

(٣) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج ١ ص ٦٢.

إذ كان الكثير منهم أيضًا ضحية سيطرة صنهاجية هو الآخر. فحتى نصف القرن السابع عشر بقي كثير منهم يدفعون المغارم للملك الصنهاجي، حسب مشاهدات فرناندس^(١). وتتغامض وثيقة برتغالية أخرى في هذا عندما تقول ما يفهم منه إن الودايا الحسانيين كانوا ساكنين في أرض ملك انيرزيك، أو أنهم يدفعون له الضرائب أو أنه منهم^(٢). ومن الواضح أن هذا يُحيل إلى تلاحُم سياسي وربما تصاهري، أو حتى انصهاري، بين العرب والصنهاجيين في السواحل في منتصف القرن السادس عشر. كما أنه قد يُحيل إلى وضعية تبعية وعمالة من العرب الحسانيين للقوى الأميرية الصنهاجية.

وإذا صحَّ هذا، فإن الحال آلت إلى التغيّر، ولكن فقط بعد قرون طويلة عندما بدأ نفوذ العرب، ربما بتحالفات أيضًا مع الصنهاجيين، في التزايد شيئًا فشيئًا وخصوصًا مع تزايد تدفُّقهم جنوبًا ومع ظهور مجموعات جديدة منهم. وربما استعانت هذه المجموعات ببعضها في التمكن؛ وربما حققت تفوقًا بنوعية السلاح خصوصًا أن هذه الفترة شهدت بيع السلاح البرتغالي، المهرّب والمتفوّق في أرغين. كما أن الحركة العسكرية في بعض -إن لم يكن أغلب- مجتمعات الصنهاجيين ربما ضعفت مع ازدهار التجارة والرعي. ويبدو أن النفوذ الصنهاجي في بداية القرن السابع عشر في أجزاء من آدرار تقلّص إلى المناطق الجبلية في كدية الجلد، حيث بقوا مسيطرين وفي حالة عداء شديد مع العرب، كما رأى ذلك زائر للمنطقة في بداية القرن السابع عشر إذ يقول:

... ثمّة جبل كبير اسمه الجلل. يسكنه كثير من الناس وله مَلِكٌ. ولا يتغذّى [أهله] إلا على الأغنام والحمير، ويتوفّر عندهم الماء بوفرة، إلا أنه لا تَمَرُّ لهم. إن ملوك هذا الجبل، ككلّ السكان، هم صنهاجيون. وهم أعداء كبار للعرب لدرجة أنهم لا يستطيعون مغادرة الجبل بينما لا يجراً العرب على اقتحامه^(٣).

(1) Fernandes, 73.

(2) Fransisco Freire

(3) Fernandes, 77

وواضح بحسب هذه المشاهدة أن الأمر يتعلّق بخوف وحصار فرضه العرب على الصنهاجيين في آدرار وامتناع الأخيرين عليهم وتشكيل تحادّ عسكري. وهو يعكس مدى تطوّر نفوذ الوافدين إلى الصحراء بعد قرنين من أولى غزواتهم عليها. كما أن الرحالة البرتغالي دَوْنَ مشاهدات بخصوص أكل الحمير بين الصنهاجيين في هذا المكان. وربما كان هذا نتيجة مباشرة للحصار، وإن كُنّا لا نعرف من السرد هل كان أكل الحمير جزءاً من عادات الصحراء الغذائية أم أنه نتيجة حالة حصار. وما يتبادر إلى الانطباع الاعتيادي، ولكن اللاتاريخي، أنه نجمَ عن حالة من الجوع سبّبها الحصار. أما الحسن الوزان فقد لاحظ أن هؤلاء العرب طردوا البربر الذين سمّاهم بالنوميديين إلى الجنوب، قرب السودان^(١).

في أيام الحسن الوزان كانت الوضعية الاجتماعية قد تغيّرت كثيراً بين الصنهاجيين والعرب الذين ظهروا متغلغلين في المجال شيئاً فشيئاً، وكانوا أحياناً في حالة مناوشات مع الصنهاجيين ولكنهم كانوا تجاراً ومحاربين ورعاة في المجال. وكانت بهائمهم وقواتهم فعالة، رغم أنهم لم يكونوا يمتلكون خيالة^(٢)، بعكس الصنهاجيين الذين كانوا يربّون الخيول في المدن الصغيرة ويستخدمونها في الحرب والتجارة. ولكن هذا الأمر سيتغيّر لاحقاً عندما سيطروا على الخيل ومهّروا في فروسيّتها وأصبحت سلاحهم المتفوّق. كان العرب الصحراويون في فترة نزولهم إلى صحراء موريتانيا قوة من الأرستقراطية الإبلية القوية أكثر مما كانوا يتوقّرون على الخيالة القوية^(٣). ورغم أن خيلهم العربية كانت قليلة وأبطأ من الخيل الصنهاجية عند سكان الصحراء، إلا أنها كانت أجود من خيول الصحراء^(٤). وبشكل حثيث وبطيء أصبحوا ينتشرون في الصحراء في مجال أوداي والبرايش والرحامنة وأولاد اعمر في القرن السادس عشر على طول خط القوافل الشرقي، في شكل تجمعات من المضارب الواسعة التي تضم مئات

(١) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج ١ ص ٦٢.

(٢) نفسه، ص ٥٤.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه، ص ٦٢.

الخيام التي تراوح أعدادها ما بين مائتين إلى خمسمائة خيمة^(١). كان لكل واحدة منها سيد أو أمير واحد يشرف عليها ويطبّق فيها القوانين^(٢). لقد تغلغلوا للمجال بديناميكيات الترحّل البدوي والانتجاع ثم اكتشفوا فرص الصحراء من تجارة وخفارة واقتصاد حربي ثم تطوّر طموحهم بالسيطرة إلى عملية صعود فئوي طويل.



ولكن ماذا عن تصور الصحراء للسيطرة الحسانية؟ لقد قرئت بآليات تعلّق السابق باللاحق وفُهم الدخول الحساني على أنه فتح هائل وآني للصحراء. وإذ تتحدّث الروايات التأسيسية عن الدخول الحساني عن عقد سياسي بين العرب والزوايا قام بفعل هذا الدخول «الفتاح»، فإنّه من الأجدى محاولة فهم هذه الرواية على أنّها جزء من تصوّر مجتمعات الصحراء لذاتها، وأنّها «إرادة المعرفة». نعرف أنّ الصحراء، إبان دخول الحسّانيين في الصحراء، كانت مكاناً للتجمعات المنتمية للمرابطين والهجرات التواتية والسوسية التي تفاعلت وتطوّرت إلى تنظيم مجتمعي نمت فيه تنظيمات اجتماعية من المحاربين والمتعلّمين وفئات أخرى متفاوتة في المكانة من الملحقين والمزارعين والفنانين والحرفيين. ومن الواضح أنّ هذه الكيانات كانت تعيش في سيادات وسلطات متباينة، وبطبيعة الحال لم ينتظر المجتمع الصنهاجي قدوم بني حسان لتنشأ فيه طبقة محاربة. فقد كان من الواضح، كما رأينا في الفصل السابق، أنّ ثمة أمراء عسكريين في مدن الصحراء التجارية في أزوكي وودان وشنقيطي وآبير والشريريك وعلى السواحل وفي غيرها. ولذا فإن صراعاً كان محتملاً مع القوى المسلّحة من بني حسان، التي نزلت في إيكيد في آدرار وتوطدت فيها^(٣). وهو على الأقلّ ما أسفر عن النزاع الذي نقله المؤرخ البرتغالي في آدرار في بداية القرن السابع عشر. ولكن الصراعات التي أتت بها الحسانيون والمعقليون كانت تأخذ معناها في سياق التحارب الدّائع في الصّحراء، حتّى بين الصّنهاجيين أنفسهم. ولم يتعلّق الدّخول

(١) وهو عدد كبير جدّاً؛ لأن فرناندس الذي اعتبر ودان من أكبر مدن آدرار قال إن سكانها يصلون إلى ٤٠٠.

(2) Fernandes, 93.

(٣) المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ٨٠.

الحساني بسلطة تُسقط سلطة، وإنما بتميزات اجتماعية وخلخلات وتعايشات سكانية واحترابات مناطقية، وليس بصراع دولتي.

وكانت هذه الصراعات طويلة وانقسامية ومصلحية طويلة الأمد. فبالإضافة إلى ضغط الرحامنة والودايا والبرابيش وأولاد دليم ولاحقاً أولاد الناصر، فإن صراعات كبيرة كانت تكتنف المجتمع الصنهاجي الكبير منذ القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر، إلا أن هذا ليس هو إدراك التواريخ الصحراوية الشعبية للتحويلات السياسية إبان التغلغل الحساني؛ وهي لا تسلم عادةً من التمثيل الدولتي والفتوحاتي. فقد تحدّث سارّد الحوليات وشاعرها، امبارك اللمتوني، عن انشقاق كبير في لمتونة، القويّة والمُسيطرة، عندما قام متنفذٌ يدعى أدد بابا بجمع المضطهدين البربر في انتفاضة ضد الأسياد اللمتونيين وحصل على دعم من العلماء في الشمال، أمثال الشيخ الكنتي الذي وصفه بأنه كان يحسد لمتونة على علوها وبأسها. وقد أفتى هذا الكنتي ومعه حليفه يعقوب الجكني بجواز محاربة لمتونة، وهي الحرب التي انضم لها التكرور ونتجت عن عقدين من الحرب تم فيها إنهاء السلطة العسكرية الصنهاجية ونزع سلاحها وتغريمها وجعلها في وضعية دونية⁽¹⁾. ويبدو أن هذه الرواية اللمتونية تُسيّق سقوط السلطة اللمتونية في شمال الصحراء في تيريس، الذي أتى معه ببعض الفعالية المعقلية، في تباغض سياسي أكبر وأجلّ من الحسانيين.

وقصة الانتصار الحساني على لمتونة في تيريس، التي يحكيها اللمتوني ولاحقوه، تأسيسية في قصة الفتح العربي للصحراء. وقد صارت منذ فترة سردية ذائعة في بعض الكتابات التاريخية المعاصرة من المؤرخ الإنجليزي نوريس حتى مؤرّخين موريتانيين معاصرين. ويبدو من هذه الكتابات أنها أخذت بسردية تأسيسية رواها سيد محمد بن سيد المختار الكنتي في الرسالة الغلاوية. وهذه الرواية تتفق في ملمحها العام مع رواية اللمتوني، وإن كانت تُغيّرها في عدّة نواح. فبحسب ما قاله الكنتي، فقد كانت كنتة في تلك الفترة قبيلة متعلّمة ولكنها لم تنزل الصحراء بصفة نهائية، رغم أن عناصر من العرب المنتسبين للفهرين ربما

(1) Norris. *Saharan Myth and saga*. Oxford: Clarendon press, 1972, p. 112-113.

كانوا قد هبطوا الواحات الأدرارية قبل قرون. في القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانت كنتة ما زالت قبيلة تواتية، إذ دُفِنَ معظم أجداد الكنتي بين توات وتلمسان ومستغانم حيث كانوا أحياناً معتبرين. وفي الفترة ما بين أواخر القرن الرابع عشر إلى منتصف القرن اللاحق قَدِمَ سيدي عالي الكنتي إلى الصحراء، فأنشأ بها أتباعاً ومركزاً. وكرجمة لهذا المركز، فإنه أصبح صهراً لأمير أبدوكل، محمد بن ألم بن كنت بن زام، عندما تزوّج ابنته وأنجب منها ابناً هو سيدي امحمد، ثم رجع إلى توات. وورث الابن علاقات والده وسلطاته الروحية كما يحدث في المرجعيات الروحية، وقد تزعم ما يليهما من الصحراء بحيث إنه ارتحل بقومه إلى منطقة ما بين الساقية الحمراء وتيريس، شمال موريتانيا وجنوب الصحراء الغربية، في وقت تحدّث فيه فرناندس عن تقابل بين الصنهاجيين المتترسين في كدية الجلد في مقابل قوات العرب شماله، وربما كان توسُّط الكنتي بين الجمعَيْن رمزاً لمكانته بينهم؛ إذ كان له أتباعٌ هنا وهناك. غير أن خلافاً نشب مع أبدوكل اللمتونيين، وهو ما عبّر عنه اللمتوني بـ «حسد الكنتي». وبالفعل، فقد استفاد استيراتيجيو المعقل من عدم التفاهم بين الكنتي وأخواله:

فورد عليه غزوٌ من أولاد الناصر، وقد بلغهم مغاضبته لأخواله فقال بعضهم: إن فاتتكم هذه الفرصة فحرام عليكم الظفر بهم بعدها، فقد غاظوا هذا الغوث وأغضبوه، وما يزيل قلنسوة الغوث عن رأسه يزيل ملك السلطان من رأسه. فاستضافوه ليلتهم وطلبوا منه أن يعطيهم دولة لمتونة، فقال: أعطيتكموها على شرط أنكم متى بلغتُم منهم الحد الذي تأمنون شوكتهم رفعتُم عنهم السيف وأبقيتُم عليهم عيشةً لبيني وبينكم. فأعطوه عهدهم وميثاقهم. وقالوا: كيف لنا بجموعهم المتناثرة ومحالُّهم المتظاهرة؟ فقال: إنما عليكم شن الغارات والإجهاز عليهم، فأني دعوت الله عليهم بإذهاب الدولة وإنهاء الصولة فأجاني فيهم. فأقبلوا إلى أهاليهم، وتألب أفناء أبناء حسان بمن انضاف إليهم فصبحوا لمتونة وهم غارون^(١).

وحسب الرواية، فقد انتهت المعارك بتدمير اللمتونيين وإلحاقهم ببني حسان

(١) الكنتي، الرسالة الغلاوية، ص ١٥٠-١٥١.

وترك الزوايا، وهم بهذا السرد النواة العلمية للقبائل الصنهاجية، احتراماً لعلمهم وصعود نجم الشيخ الكنتي. وتتفق هذه الرواية مع رواية اللمتوني حول حرب استمرت طويلاً وانتهت إلى هزيمة لمتونة، غير أنهما لا يتفقان على أطراف الحرب ولا على دور الكنتي فيها، وإن كان اللمتوني يتحدث عن دور الفتاوى في التعبئة ضد لمتونة. وربما ليس علينا أن نضرب عرض الحائط بهذه الرواية التأسيسية؛ بل نُتيح لنا، بغض النظر عن تصوراتها للسلطة في المجال الصحراوي، أن انتفاء قوة عسكرية صنهاجية مركزية ربما يكون قد أسفر عن تسهيل العبور إلى المجال الصحراوي للحسانيين، خصوصاً أنهم أصبحوا حلفاء قوى صاعدة، وسهل لهم أن يصبحوا القوة الأهم في المجال وأن يبدأوا تدريجياً في التوسع في عموم الصحراء في القرون اللاحقة.

وتمضي الرواية الفتوحية فتقول إنه مع انهيار الجماعات المحاربة اللمتونية أو ضعفها في الشمال، فإن القوى العربية الموجودة في الشمال بدأت في التقدم الحثيث وشرعت في «الفتح العربي» عندما لم يبق من القوى الصنهاجية المركزية غير تجمع انيرزيك الذي كان يضم سلسلة تجمعات قبلية، هي ايدغبانو وتغرجنت وانكادس، وكانت كلها تضم قوى مقاتلة وتجمعات زاوية تتمتع بحمايتها^(١). ولكن الذاكرة ستحتفظ بتجمعات من هؤلاء هم لخبابشة ولعزيزات، الذين اضطهدوا تاشمشة في أرض الغبلة وفرضوا عليهم الغرامات ومارسوا عليهم ما سماه اليدالي بالجور^(٢). وستقوم القوى الحسانية، وخصوصاً المغافرة، بامتصاص انيرزيك وجعلها بقايا من لحمة أولاد دامان^(٣). وفي داخل البلاد لم يبق لبني حسان غير القبائل الصنهاجية ذات الشوكة كالأنباط في تكانت ولعصابة وإيديشلي في آدرار وانيرزيك في أرض الغبلة^(٤).

(١) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ٨٩-٩٣.

(٢) اليدالي، شيم الزوايا، الشيخ محمد اليدالي: نصوص من التاريخ الموريتاني (شيم الزوايا - أمر الولي ناصر الدين - رسالة النصيحة)، تقديم وتحقيق محمد ولد باباه، تونس، بيت الحكمة: المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، ١٩٩٠، ص ٦٣.

(3) Le Chatelier, 47.

(٤) المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: تاريخ موريتانيا، ص ٨٠.

بيد أنه خلافاً للرواية الفتوحية، فإن الصحراء لم تتبع لنظام واحد يُفسّر فتحها في قصة أو مواجهة واحدة. من الأرجح أن الفصائل الحسانية لم تأتٍ للصحراء جاهزة بصفيتها جماعات صائلة، وإنما تبلورت وتشكّلت فيها بعد عقود، وأحياناً بعد قرون، من هجرتها إليها. ثم إن إرهاباتها قد تقدّمت بشكل حثيث، وعلى أجيال، من خلال موجات من الهجرات الرعوية المتتابة التي يمكن إجمالها بداية في أربع تشكيلات اجتماعية ظهرت منذ القرن الخامس عشر على الأقل، قبل «الدخول» الملحمي للعرب: قبائل الودايا في الغرب، التي أخذت مساراً توسعياً هابطاً من الشمال الشرقي إلى أن بسطت نفوذها على وادان ثم توجّهت إلى ولاته وتجاوزتها إلى حدود السودان^(١)؛ البرابيش في الشمال الشرقي؛ الرحامنة جنوب البرابيش حيث كانوا يفدون سنوياً منذ القرن السادس عشر على تيشيت^(٢)، ربما للاستفادة من استغلال السكان العزل وربما للانتجاع؛ وأولاد اعمر (جمان وأولاد شبل) في الشرق^(٣). ولم تكن هذه غير النواة الحسانية الأولى وقد تلتها أجيال لاحقة من المعقلين تراوحت حظوظها السياسية في المجال. هذه المجموعات اللاحقة ضمتّ الجيل الأول من الحسانيين كأولاد رزك ثم الجيل الأخير، الأدوم حظاً، المغافرة. وقد قامت هذه المجموعات، ولكن على عصرٍ طويل، بفرض نظام ضريبي على بعض صنهاجة، وبقيت حليفة أو منافسة للتجمعات الأ منع، وخصوصاً من المتعلمين والتجار. وبالنسبة إلى دافعي الضرائب المُغرّمين والمُمكنّين، ومنزوعي السلاح، والملحقين بالعناصر المسلّحة فقد أصبحوا «ازناكة»، التي هي نسخة قدحية من صنهاجة. أما الذين أعفوا من الضرائب فقد أطلق عليهم لقب «المرابطين» أو «الطلبة» أو «الزوايا»، نسبة إلى الرباطات التي أقامها المرابطون والتي ربما كانت الخزان التربوي للحركة المحاربة.

وعلاوة على أن الدخول الحساني كان حثيثاً ولم يكن ملحمياً وكان سابقاً

(1) Le Chatelier, 54.

مارمول، ج ١ ص ١٠٧

(٢) مارمول، ج ١ ص ١٠٧.

(3) Fernandes, 69, 71.

للأحداث الملحمية الموصوفة في التقاليد، فإن كثيرًا من القبائل الصنهاجية ظلت محافظة على قوتها وسيطرتها لفترة، كما كان حال انيرزيك التي بقيت حتى القرن السادس عشر وهي مجموعة ذات سيادة، وبقيت أعلى نفوذًا من القبائل الحسانية من أوداي (الودايا) الذين أشارت إليهم وثيقة برتغالية معاصرة لهم بأنهم ربما كانوا تابعين لانيرزيك أو حلفاءهم^(١). وفي وسط البلاد في آدرار وتكانت حافظ بقية الصنهاجيين على استقلالهم كما كان حال الأنباط، الذين عُرفوا لاحقًا بإيديشلي وإيدوعيش (رغم أنهم خضعوا لفترة لسيادة سياسية مغربية). وظل الصنهاجيون في عداء حذرٍ مع الحسانيين^(٢)، الذين أصبحت بقية عناصرهم من الودايا والبرايش وأولاد دليم تمارس غزوات مستديمة من الهتك على القبائل في الشمال إلى تيشيت. ومن الأرجح أن رواية الحرب الطاحنة الكاسحة لا تفسر الاختفاء التدريجي والحديث للقوى الصنهاجية وعدم سيادة بني حسان في الصحراء قبل القرن السابع عشر. ولا شك أنه من الأسلم التفكير في أن النفوذ الصنهاجي تقلص بديناميكيات مستدامة ومختلفة بعضها ثقافي وبعضها عسكري واقتصادي. ومن الأرجح أن سكان المدن بقوا صنهاجين غالبًا وسالمين من المد الحساني غالبًا، باستثناء الهجمات على ولايات والسيطرة المؤقتة على تيشيت أو الهجوم على ودان.



ولكن الصورة تغيرت مع القرن السابع عشر عندما أصبح بنو حسان، بتفرعاتهم المختلفة والمتعادية فيما بينها، سادة أجزاء كبيرة من الصحراء فسيطروا على المسالك القوافلية واحتكروا الأسلحة المُستقدمة من العلاقات مع رأسمالية الشواطئ وامتلاك مسارح الخيول وآليات تربيتها ومن خلال استثمارهم البشري في فنون الفراسة. وبفعل هذا تحولوا حثيثًا إلى أرستقراطية عسكرية تستفيد من الغزوات ومن المغارم والمكوس ومن ضرائب الحرمة والخفارة ومبدأ الإلحاق، وإن ظلت بهم طبقة طفيلية وأخرى متلصصة وقاطعة طرق. وهو التحول الذي

(1) Fransisco Freire, "The 'Narziguas," p. 48.

(2) نوريس، ص ٣٥.

مضى بشكل حثيث في مناطق مختلفة بطرق مختلفة. في مناطق معينة من آدرار ربما حدث هذا بحروب وعداوات ألجأت بعض الصنهاجيين إلى شعاب الجبال للتحصن والمقاومة، كما رأى ذلك فرناندس في مطلع القرن السابع عشر. وفي شمال آدرار وجنوبه لعبت التحالفات ومبدأ الإلحاقية - وربما المكاتبه والتنافس التجاري - عواملها، فانتشر البرابيش في مجال مسوفة وامتصّوهم سوى عناصر منهم ستظهر في وسط البلاد ثم جنوبها تحت اسم مشظوف؛ وامتصّ أولاد دليم بقايا الجداليين^(١)، وكانت لمتونة من نصيب الودايا. وفي العقود الطويلة القادمة سيظهر الودايا في اسم وإمارة جديدة هي أولاد رزك الأقوياء. وفي أرض الكبلية تدفقت نواة المحاربين من البرابشة التي انتشرت على شكل مجموعات مقاتلة ومترابطة عائلياً وعشائرياً، وبسطة نفوذها على قوى المكان من أحفاد البافور والتشمشيين. بل وسحقت بقايا انيرزيك كالخبابشة ولعزيزات. ويبدو أن كل هؤلاء أفسحوا المجال لوافد كبير هو أولاد رزك الذين شكّلوا مجموعة قامت بالتوزّع في امتدادات محاربة كثيرة: أولاد بواعلي، الذين كانوا يترأسون على بقية التجمعات، وأولاد رحمون، والعساكرة، وأولاد عبد الواحد، وأولاد عطية وغيرهم^(٢). كما يحدثنا أحد مؤرّخي الصحراء ونسابتها في القرن التاسع عشر عن هبوط محلة قوية عرفت بمحلة ابن دهموش وهي منتسبة إلى أودي بن حسان^(٣).

وهكذا بمرور الوقت اضمحلت ارتباطات العز والشرف التي كانت متحلقة حول صنهاجة في مساحات واسعة من الصحراء. فقد كانت القبائل العربية تنظر إلى نفسها على أنها أشرف من بقية سكان الصحراء^(٤). وهو أمر استطاعت ترجمته إلى واقع سياسي على الأرض وسرعان ما بدأت القبائل الصنهاجية، باستثناءات قليلة، ولكن منيعة، في إيديشلي وتجكانت وإيدوعيش وغيرها، بإعادة تأويل أنسابها لتأخذ بعداً شريفياً قرشياً (وهي عملية سبقت طبعاً المقدم الحساني؛

(١) بحيث إن لشاتليير، المُعتمد على المصادر الشفاهية في القرن التاسع عشر، يعتبر مثلاً أن جدالة تحولت إلى قبيلتي أولاد دليم والبرابيش، ص ٤٦.

(٢) محمدن ولد باباه، محمد البدالي: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ٦٣.

(٣) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب على الحسوة البيسانية، ص ٥٣.

(4) Fernandes, 71.

إذ تسيّقت في التاريخ المغربي الجنوبي الذي أعطى أهمية اجتماعية كبيرة للأشراف وأعطى أهمية للانتحالات الشرفية). ورغم أن كثيرًا من هذه القبائل بقيت محتفظة بتقاليدها النبيلة والاعتزاز بنفسها وبأفضليتها، إلا أن تغيرًا في الأنساب تلازم حتمًا مع السيطرة العربية في البلاد.

لن تنتهي الهجرات القبائلية القادمة من الشمال المغربي والصحراوي مع التغلغل الأخير للمغافرة، عربية أم بربرية، فسيأتي بعدهم أولاد اركيڭ ولبيدات في حملة بعث بها السلطان مولاي إسماعيل (١٦٧٢-١٧٢٧) (في ولد اطوير الجنة، كما المستشرق والإداري لشاتليير، الذي كرّر المعلومات المغربية التي تتزامن في الفترة نفسها في سرد الناصري؛ أن السلطان قدم بنفسه وقاد الحملة)^(١)، ثم لاحقًا مجموعات اركييات وأولاد بوسباع. ولكن التركيبة السياسية الاجتماعية كانت قد تحدّدت في عمومها مع المعقل والمغافرة، وسيكون على اللاحقين أخذ مواقعهم في التركيبة الاجتماعية الراسية نسبيًا. في العقد القادم سيتعمّق انحدار القبائل العربية إلى الجنوب شيئًا فشيئًا. في منتصف القرن السادس عشر وصل الودايا حتى نهر السنغال الذي كان معروفًا في تلك الفترة باسمه نفسه الذي عرفه به الرحالة العرب في العصر الوسيط: النيل^(٢)، وإن كانت أولى الإشارات إليه باسم نهر صنهاجة ستظهر بعد عقود قليلة^(٣). وهناك بدأ هؤلاء في ممارسة السلب. وهو ما جعل السكان السود فيما وراء النهر يحذرون منهم ويتصدّون لهم، على عكس التجار الصنهاجيين المسالمين^(٤). سيتطوّر هؤلاء لاحقًا إلى أولاد رزك وسيهبطون جنبًا إلى جنب الرحامنة وأولاد داوود متوغّلين في الصحراء^(٥). وسرعان ما بدأت المجموعات الحسانية تأخذ صفة جغرافية من

(1) Le Chatelier, 54, 59.

(2) Fernandes, 69.

(3) A Selection of Curious rare and Early Voyages and Discoveries of the English Nation, vol 3, London 1810, 2.

(4) Lec Chatelier, 56; Fernandes, 69, 71.

(5) Paul Marty. L'Emirat des Trarzas. Collection de la revue du monde musulman. Paris: Editions Ernest Leroux, 1919, p., 19

خلال سيطرتها على أراضٍ واسعة في الصحراء الفسيحة، فأصبح هنالك منذ القرن السادس عشر «أرض الودايا» التي كانت تحدها «أرض البرابيش» و«أرض الرحامنة وأولاد اعمر»، حسب مشاهدات فرناندس (يقصد فرناندس هنا أولاد اعمر الذين ينتمي لهم إجمان وليس أولاد اعمر من أولاد امبارك، الذين سيظهرون في الخرائط الأوروبية القديمة باسم لودامر أو أولاد اعمر)^(١).

لم ينحدر هؤلاء إلى الصحراء دومًا في إطار غزو عربي، بل كانت بينهم حروب وغزوات طاحنة أدّت إلى تفكير الكثيرين؛ فقد دارت حروب كثيرة بين البرابيش والرحامنة وبين الودايا^(٢). وعندما أصبح الأخيرون قوة في الخط القوافلي الذي ربط مدن آدرار وتكانت بولاية وبلاد السودان، فإن موجة حسانية أخرى من المغفرة أتت في أعقابهم وبدأت مع القرن السابع عشر تنافسهم. وبالطريقة نفسها التي أزاح بها الحسانيون الصنهاجيين، فإن الدماء المغفرية الجديدة بدأت في القضاء على المجموعات القديمة من أولاد أودي بن حسان أو هزمتها. ففي الشرق نجح أولاد گبلة في طرد الرحامنة^(٣)، وفي الغرب قضى المغفرة على أولاد رزك في أرض الغبلة، وفي الجنوب قضى أولاد امبارك على أولاد بوكار الذين كانوا محلّة قوية^(٤)، واستطاعوا توجيه ضربة أخيرة ملحمة لأولاد بوفيد في معركة كساري الكبيرة. وبدأ عصر المغفرة: عصر الأرستقراطية الحربية البدوية، ولن ينتهي هذا العصر إلا مع الاستعمار ثم الدولة الحديثة.

(1) Fernandes, 69, 77.

(2) Fernandes, 69, 77.

(3) Le Chatelier, 47.

(٤) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب على الحسوة البيسانية، ص ٥٣.

الداخلون إلى الصحراء (٢) الأوروبيون، المحلات (ق١٥ - ق١٧م)

«أصبحنا طمعاً للظلمة وأضأؤوا علينا الشموع»

الشيخ محمد المامي^(١)

لم تخلُ الصَّحراء من داخلين عليها وعابرين لها. فما كانت، كمعظم العالم قبل إمبراطوريات البارود، حيزًا محميَّ الحدود، ولم تكن بها سلطة مركزية متحكِّمة أو جماعات عسكرية صائلة في مساحات واسعة. فبقي الدخول إليها من مجموعات خارجة أصلًا على مجالها مفتوحًا. وقد حدث هذا بفعل عدة تحولات تعلَّق بعضها بالهجرات الفردية والقبلية الكبرى التي دفعت بموجات التواتيين والتافيلاليين ثم المعقليين والهلاليين إلى الصحراء؛ ثم دفعت بهذه المجموعات في العمق الصحراوي جنوبًا، فحاول بعضها السيطرة والتنافس على تجارة القوافل أو تغريمها أو نهبها أو تتبع الرعي والمسارح الخصبة. وفي إطار كل هذا تطوَّرت تركيبة شعوب الصحراء وتطوَّرت تكوينها بوتيرة أوضح مما نعرفه عن القرنين الرابع عشر والخامس عشر. بعض هذه التطورات سبق الدخول الحساني، ولكنه تعايش مع تغلغله، وهو يتعلَّق بقدوم المركنتالية الأوروبية الباحثة عن الثروات والأسواق للتبادل والمقايضة والتي تطوَّرت إلى حملات تجارية تتراد الشواطي المجهولة بحثًا عن الموارد والبضائع النفيسة.



(١) ترجمة لبيب من قصيدة له بالحسانية أصله:

عَدْنْ لَلْظَلَامْ طَمْعْ
وَكْدَاوْ اَعْلَيْنَ الشَّمْعْ

مع القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانت نوعية العلاقات التي تربط شعوب السواحل الإفريقية والأوروبية قد اختلفت عن أنماطها السالفة، ووصل المستكشفون والمغامرون المتاجرون الأوروبيون، وليس فقط العرب والمسلمون، إلى حياة الصحراء والسافانا. كان الشرق العثماني ما زال قوة عاتية، ومسيطرة حتى؛ ولكن أوروبا التجارية كانت تشهد اندفاعاً محمومًا للبحث عن أمكنة جديدة للتبادل أو الالتفات على الطرق التجارية المركزية التي يسيطر عليها الإسلام. كما أن الجزيرة الإيبيرية، ببرتغالها وإسبانيها، التي تمكّنت من طرد معظم العرب والمسلمين من معظم، ثمّ كلّ، الأندلس، قد وجدت في هذه الفسحة فرصة للبحث عن مصادر للثروة جنوبًا. وسرعان ما اشتدّ الاندفاع في الاكتشافات الجغرافية والتجارة العالمية بواسطة السفن الأوروبية المتاجرة. وكانت البضائع التجارية في مجال الصحراء، كالذهب والعبيد والصمغ وريش النعام، وما هو أهمّ، كالبضائع المُتخيّلة والمأمولة من قبل الإيبيريين، ما زالت مهمة للاقتصاد «العالمي»؛ ولكن آلية تسويقها القوافلية لم تعد وحيدة. فبفعل البواخر الأوروبية سيدخل خطّ جديد هو التجارة الأطلسية، التي ستتيح أسواقًا جديدة، مغيرة سير القوافل وحظوظ التجار الصغار من الشمال إلى الغرب. وقد ذهب الكثيرون إلى اعتبار أن «المركب هزم الموكب»، وأن التجارة الأطلسية قضت تمامًا على التجارة القوافلية التي لم تعد غير عامل توصيل البضائع إلى السواحل^(١). إلّا أن الواقع أن التجارة القوافلية لم تمت، بل وظّلت متفوّقة في المداخل في التجارة المراكب، وستأخذ مدًا متزايدًا وخصوصًا في القرون اللاحقة؛ ذلك أنها كانت تفد على تجارة المراكب وتصبّ فيها وتتموّن منها.

ابتداءً من القرن الرابع عشر سيختفي من الصورة الرحالة العرب الذين كانوا يأتون للتجارة وينقلون أخبار سكان الصحراء والسودان. ولعلّ آخر هؤلاء كان ابن بطوطة في ولاته. وبعده لن يأتي إلى ولاته ومجال التكرور غير العلماء القادمين من العالم العربي في إطار العلاقات العلمية مع بلاد التكرور، وسيكون من بين هؤلاء جلال الدين السيوطي (١٤٤٥-١٥٠٥). ولكن الوجه العربي-البربري الرّحال سيختفي تدريجيًا، وسيحلّ محله الوجه الأوروبي. بعد ابن بطوطة

(1) Ann McDougall, " Research in Sahara History ", P. 468

(١٣٠٤-١٣٦٨) مرَّ الحسن الوزان أو ليون الإفريقي (١٤٩٤-١٥٥٤) بالصحراء، وهو لم يبقَ مسلماً حتى آخر حياته، بل تنصّر ومال وعيه للثقافة الأوروبية واللغة الإيطالية التي كتب بها كتابه في وصف إفريقيا. قدم هذا الرحالة إلى الصحراء ماراً إلى بلاد السودان في فترته العربية الأولى، وذلك قبل أن يصبح مختلطاً ثقافياً ويصبح رمزاً لامتناس الوافدين إلى الصحراء في ثقافة أخرى غير ثقافة العرب. وابتداءً من القرن الخامس عشر لن يأتي للبلاد متعمّمون مسلمون، بل مسيحيون شُقر وضُهب. عرف البيضان هؤلاء بالنصارى^(١). وابتداءً من هذا العصر سيكون لهم شأن.

في البداية لم يقدم النصارى إلى مجال البيضان بصفيتهم مكتشفين بحثاً عن التطلّع والمعرفة، وإنما باعتبارهم باحثين عن الثروات، وليس حتى بالمقايضة دوماً؛ بل بالغصب والغلبة كثيراً. وكانت المعرفة الجغرافية مصباحاً لهذا الدخول ونتيجة له. كانت الخرائط الأوروبية قد بدأت منذ القرن الرابع عشر في إقحام الصحراء في الخطوط التجارية كما تدلّ على ذلك خريطة أبرهام كرسك في عام ١٣٧٥. ولم تكن هذه الخريطة غير ترسيم لمعلومات عن الصحراء كانت معروفة في إيبيريا. فقبل رسمها بخمسة عشر عاماً، في عام ١٣٥٠، كان راهب إسباني قد أشار إلى الساقية الحمراء وواديان. وابتداءً من العام ١٤٢١ سترجم البرتغاليون معرفتهم بالصحراء إلى رغبة في تعلم مزيد «عن الشعوب الذين يسكنون في تلك الأراضي، ومن أجل إيذاء البربر» حسب توصية الملك هنري البحار (١٣٩٤-١٤٩٠)^(٢). وكانت هذه التوصية تاجاً للرغبة في معرفة الصحراء؛ ذلك أنّها كانت تتعلّق أيضاً برغبات شعبية تمثّلت في أن فرسان البرتغال كانوا يتطلّعون إلى رخص من الأمراء تسمح لهم بسلب السكان «البربر» ونهبهم في الجنوب وتعبيدهم واختطافهم لنيل الفدية من ذويهم في الأراضي البعيدة في المغرب الأقصى وما وراء المغرب الأقصى^(٣).

ويبدو أنه كان للأمر علاقة بسيطرة البرتغاليين على السواحل بعد نجاحهم في

(1) Mercer, 77-78.

(2) Malyn Newitt, "Prince Henry and Origins of Portuguese Expansion," M. D. D. Newitt, Ed., *The First Portuguese Colonial Empire*. Exter: Exter University Press, 1986, 9-37.

السيطرة على ميناء سبته في عام ١٤١٥، من قبل الأمير البرتغالي اليافع هنري الذي حرّكته أيضاً الأطماع في الذهب الذي سمع أنه في غينيا (السنغامبيا) وأنه يعبر الصحراء^(١). وعندما استطاعت سفن البرتغاليين تخطي «رأس بوجدور» الذي كانوا يعتبرونه شيطانياً^(٢)، فإن السواحل الصنهاجية في الصحراء بقيت مكشوفة أمامهم وأمام رغبتهم في تحصيل الذهب والعبيد. وفي كل الفترة (١٤٢١-١٤٤٦) بقي البرتغال، الذين شجّعتهم مغامراتهم في المغرب، ينظّمون هجمات على السواحل في الساقية الحمراء وفي حوض آرغين.

وقد شجع عبورُ الفارس «رأس بوجدور» الملكَ على تكليف رجاله بالإبحار إلى شعب الصحراء لاستكشافه واستطلاع إمكانية التجارة أو إشاعة المسيحية فيه أو إيجاد مناصرين في الحرب ضد المغاربة^(٣). وقد حلّل الملك بأنه بما أن البعثة وجدت آثار الإبل والبشر فمعناه أن الناس يسكنون قريباً من الشاطئ. ولا بدّ أن هذا التحليل كان مُغرياً؛ ذلك أن العبيد البربر كانوا من أغلى العبيد في إيبيريا وإيطاليا، وكانوا منذ القرن الثالث عشر على الأقل إشارة ترف وفخر في قصور نبلاء أوروبا. وبتزدد قيمة الصحراء بالعبيد الذين شحنهم حاكم سبته، بدرو مينيسيس، من سكان المغرب وأثاروا ألباب النبلاء الأوروبيين التواقين للعبيد من المسلمين^(٤). وحتى في منتصف القرن الخامس عشر عندما تخلّى البرتغاليون، زعمًا، عن مشروع تعبيد البربر، سنجد صديقًا للبيضان وللصنهاجيين هو كاداموستو، يقول بأن العبيد الصنهاجيين أفضل من العبيد السود^(٥). ولعلّ الملك البرتغالي كان يتقاسم هذا التقييم عندما كلّف الفارس ألفونسو غونسالفيز بالديا بالقيام بغزوة لاستجلاب عيّنات من هؤلاء البشر، الذين خمن أنهم في السواحل الصحراوية^(٦).

(1) Bovill, 114.

(2) Gomes Eannes De Azurara. The Chronicle of the Discovery of Guinea (trns. Charles Raymond Beazley and Edgar Prestage) vol 1. New York: Burt Franklin, 1896, p. 33-34.

(3) De Azurara. The Chronicle, 27-30.

(4) De Almeida Mendes, 19-35.

(5) Ca'da Mosto, p. 50.

(6) De Azurara, 35.

تعدّت سفينة بالديا «رأس بوجدور» مرة أخرى إلى وادي الذهب، حيث نزل فرسانها مُسلّحين تسليحًا خفيفًا ولقوا مجموعة من الأهالي في الصحراء وتضاربوا وتراشقوا معهم حتى الغسق. ومن ثمّ، تمكّن المقاتلون من سلب بعض الأهالي الذين هربوا كما تمكّنوا من قتل كميات كبيرة من عجول البحر على الشاطئ وسلخها وأخذ جلودها؛ ولكن الرواية تقول لنا إن «غونزايز لم يكن سعيدًا؛ لأنه لم يأسر أيًا من أولئك البربر». وعادت الرحلة الثانية إلى البرتغال في عام ١٤٣٦. وكان الأمر الذي أحبط الراوي البرتغالي أكثر من غيره، هو أن الغزوات اللاحقة لم تعد «بأي شيء يستحقّ التسجيل»^(١).

لن تتغير الرتبة قبل العام ١٤٤١ عندما عزم أنتام جونسالفيز، الذي كان قائدًا بسيطًا بعثه هنري البحار إلى السواحل الصنهاجية للعودة ببعض جلود ذئاب البحر ودسمها، على جعل مهمته أكثر قيمة؛ فقرّر النزول بتسعة من رجاله إلى ما وراء الشاطئ حيث تمكنوا من اختطاف جمّال صحراوي وخادمة بربرية سوداء وعادوا بها إلى البلاط مستحقّين إشادة وتقديرًا من وليّ العهد^(٢). وهو ما شجع تريستام نونيو على تنظيم غزوة باغتت بعض البربر في عمق الصحراء وتمكّنت من اختطاف عشرة منهم، من الرجال والنساء، وقتلت منهم أربعة في أثناء المعركة. ورغم أن بربر الصحراء هاجموا بالحجارة والأسهم، إلا أن البعثة البرتغالية نجحت في إيصال المُختطفين إلى متن السفن والإقلاع بهم وتعييدهم^(٣).

ولكأنما أطلق هذا الكشف العنانَ لحملات استلاب الصحراء. فشرعت سفن البرتغاليين في تنظيم حملات خاطفة في حوض آرغين وجزيرة تيدرة ظلّت تباغت الأهالي البربر وتختطفهم وتسلبهم من ثرواتهم. لقد روى غوميس أناس أزورارا أهمّ هذه الحملات بروح انتصارية، ساردًا كيف كان البرتغاليون مسلّحين بكل ما يلزمهم للانتصار في المعارك الصغيرة عندما كان رماثهم وراجلوهم المسلّحون يواجهون بعض البربر من غير المقاتلين، الذين لا يملكون غير الحجارة والسهام.

(١) نفسه، ص ٣٥-٣٩.

(٢) نفسه، ص ٣٨-٤٢.

(٣) نفسه، ص ٣٨-٥٠.

وتجزل هذه الروايات في سرد كيف كان المهاجمون ينتصرون في هذه المعارك دومًا ويؤوبون بالعبيد والأسلاب. وكما قلنا فقد كانت قيمة العبيد البربر أعلى من قيمة العبيد السود الذين كان الحصول عليهم أسهل. وفي داخل البرتغال عرف العبيد الصنهاجيون باسم «البادرو» أو «اللوروس» في لغة القشتاليين، وكانت تعني المولدين أو الخلاسين. عدّد أزورارا ٩٢٧ عبدًا مختطفًا والكثير من الأسلاب التي عاد بها الغزاة، والتي ذكر من بينها الذهب وريش النعام والدروع والسمك وعجول البحر. وفي الحملات اللاحقة اكتشف البرتغاليون أن البربر يفادون أسيرًا منهم بسبعة من العبيد وبيض النعام وتبر الذهب والدروع الجلدية، فزادت أهمية اختطاف الأحرار بالنسبة إليهم^(١).

تداخلت العوامل الدينية بالتجارية واعتقد البرتغاليين أن البيضان على السواحل برابرة ومتوحشون وكفرة، وأنهم يأكلون أكباد الأوروبيين ويمتصون دماءهم وأنهم لا يعرفون بديهيات الحضارة: الطعام والخمر. وبالفعل، فقد دخلوا معهم حربًا مستديمة، وهو ما يتضح من استصدار الملك هنري في عام ١٤٤٠ غفرانًا من البابا بحق كل من يقاتل «أعداء الدين» في الحملة الصليبية عليهم^(٢). وتم إنفاذ القائد، غونزالو دا سترا، الذي كان فارسًا متمرسًا في مغامرات السلب والنهب، وهو مكتشف آرغين، وباسمه يسمى الآن عليه خليج فييلا سونروس في البرتغال تشريفًا له.

وبطبيعة الحال، فإن البيضان الصنهاجيين لم يقفوا دومًا مكتوفي الأيدي بل بدأوا في الاستعداد لحملات البرتغاليين المتكررة. وبالفعل، نجحوا في قتل أعداد منهم. وكان أكبر انتصارٍ للصنهاجيين في عام ١٤٤٥، عندما نجحوا في وضع كمين للقائد البرتغالي، غونزالو دا سترا، الذي توغل مع عددٍ من طاقمه بحثًا عن غلام مترجم له قد هرب. فتصدى له البيضان وقتلوه^(٣).

(1) De Azurara, 54-86; Bovill, 115; Jack Forbes. Africans and Native Americans: The Language of Race and the Evolution of Red-Black Peoples. Illinois: University of Illinois, 1993, 116; Ca'da Mosto, 50.

(2) De Azurara, 53.

(٣) نفسه، ص ٨٧-٩١.

ورغم أن المواجهات وحملات الخطف قد استمرت بعد مقتل داسترا وخصوصاً من قبل المغامرين البرتغال أمثال جيل الناس وديغو جيل ألفارو فاسكيز والكابتن مافالدو الذي أسر أربعة وستين من البربر في نواحي آرغين^(١)، فإن عمليات الغزو استصعبت شيئاً فشيئاً بأخذ البربر سُبُل الحيلة واليقظ. ومع زيادة تكلفة المواجهات مع البيضان، جنح البرتغاليون إلى الدخول معهم في عمليات تجارية ترضي الطرفين، خصوصاً أنهم كانوا حريصين على إيجاد سبل للمتاجرة في الذهب. وقد بُعث كاداموستو خصيصاً لهذه المهمة^(٢). وتطوّرت رغبات المتاجرة لحدّ تشييد حصن آرغين الأول في عام ١٤٤٥، من قبل نونيو تريستو ورجاله، وتحول بسرعة إلى مركز للتبادل الخصب والمقايضة. وقد قدّم الحسانيون الذين لم يتغلغلوا في تلك الفترة بما يكفي لبسط نفوذهم على المنطقة إلى الساحل، حيث بدأوا في المتاجرة مع البرتغاليين. وربما كانت أرباح المقايضة هي ما دفعهم إلى محاولة البحث عن قدم في المجال، ما سيتطوّر لاحقاً من حضورهم فرادى إلى تشكيلهم في قوات وسلطات.

بيد أن صلح المملكة البرتغالية مع البيضان لم ينسحب على كلّ البرتغاليين، فلم يستفد من التجارة مع البيضان، وهو ما نقصد به كلاً من الصنهاجيين والحسانيين، إلا وكلاء الملك وأصحاب الشركات التي رخصها الملك والتي كانت تتوطّد في جزر الكناري وجزيرة ماديرا. أما الخارجون عن سيطرة الملك البرتغالي من القراصنة القشتاليين المُقيمين في الكناري، فقد كانوا يهاجمون السواحل البيضاوية ويسترقّون نساء البيضان وأولادهم، غير مُبالين بالاتفاقات الفوقية أو بالسياسات المَلَكِيّة. ويبدو أن ملكاً لانيوزيا، التي ربما كانت تعني أولاد رزك أو قد عنت إمارة صنهاجيّة أو تحالفًا بين الصنهاجيين والحسانيين، اسمه بيلالة، استطاع أسر بعض البرتغاليين الصائليين في عام ١٥٢٢ ورفض تسليمهم للبرتغال، قائلاً إن عدم تسليمهم يتعلّق بحرمة أو ذمته، حسب ما تقول لنا وثيقة فرانسيس لويس نيتو^(٣). ويتضح أن هجمات هؤلاء الصائليين القشتاليين

(١) نفسه، ص ١٢١-١٢٢.

(2) Bovill, 117.

(3) Fransisco Freire, p. 45-46.

صارت خطرًا مزعجًا للقوى البيضانية السواحلية، بحيث إن ملكًا آخر لانيرزيك عرض على حلفائه البرتغاليين في عام ١٥٤٩ أن يُعطي ألف بقرة لمليكم مقابل لجم القراصنة عنه، كما تدل رسالة كريستاو فال دو رستال، مدير آرغين في عام ١٥٤٩^(١).

ورغم هذه التمردات، إلا أن البرتغاليين الرسميين مالوا للمقايضة والتبادل مع الأهالي الصحراويين. ورغم أنهم لم يُغيّروا من سيطرة التجارة القوافلية القديمة المارة عن طريق الخط الممتد من المغرب إلى بلاد السودان^(٢)، إلا أنهم جنوا أرباحًا بالغة من المتاجرة مع الصنهاجيين والعرب، خاصة أن المواد التي كانوا يعودون بها كانت ذات قيمة عالية في أوروبا النهضة. فقد أدخل البيضان إلى البرتغاليين حوالي ٦٦٨ عبدًا في الفترة ما بين مايو من عام ١٤٩٩ حتى ديسمبر من عام ١٥٠١. ورغم أن فتورًا نسبيًا شاب النخاسة في الفترة ما بين مارس عام ١٥٠٥ ونوفمبر عام ١٥٠٨، حيث تم إدخال ٥٢٦ عبدًا، إلا أن طفرة كبيرة ستشهد شحن العبيد إلى البرتغال من آرغين؛ فشحن ١٥٤٠ عبدًا في ثلاث سنوات ابتداءً من عام ١٥٠٨. وشهدت السنوات الثلاث اللاحقة شحن ١٠٠٢ عبد أيضًا. ولم تكن هذه الطفرة إلا بداية، ففي السنوات الثلاث التالية لذلك (١٥١٤ حتى ١٥١٧) شحن ٢٣٣٦ عبدًا. وبعد ذلك شحن ٣٧٩٢ عبدًا في السنوات الثلاث اللاحقة، وهو ما مثّل أكبر ازدهار لتجارة العبيد إلى البرتغال^(٣).

كانت حاجيات البرتغاليين من العبيد الأفارقة أكبر مما تُمدّهم به الصحراء وحدها؛ لذا طالت نخاستهم ومتاجرتهم بالعبيد ما وراء سواحل الصحراء. إلا أن عبيد الصحراء شكّلوا أغلبية العبيد الأفارقة المشحونين إلى إيبيريا في هذه السنوات

(١) نفسه، ص ٤٢-٤٣، ٤٨.

(2) Abdel Wedoud Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la société maure précoloniale (XI^{ème} siècle -XIX^{ème} siècle): essai sur quelques aspects du tribalisme. Tome I. Paris: Paris V Reine Descartes, 1985, p. 69

(٣) أرقام من الأرشيف الوطني البرتغالي قدّمها أنتونيو في:

De Almeida Mendes. Child Slaves in the Early North Atlantic Trade in the Fifteenth and Sixteenth Centuries, 22.

المشار إليها، وكان حضورهم وأكثريتهم ملموسة، وخاصةً في المدن البرتغالية والأسبانية كلشبونة وإشبيلية وفالنسيا. وكان أكثرية من نقله منهم البيضان البربر والعرب إلى البرتغاليين هم من النساء والأطفال من الولوف والمانديغ (السونينكي) الذين بلغوا ٧٠ بالمائة من العبيد المشحونين من آرغين، حسب إحصائيات أنتونيو منديس، وهو دارس جاد للوثائق البرتغالية المتعلقة بتاريخ آرغين^(١). وقد بلغ النساء والأطفال نسبة ٩٠ بالمائة من كل العبيد في القرن السادس عشر^(٢). وهو أمر مفهوم بالنظر إلى هشاشتهم وإلى طبيعة عمليات اختطاف العبيد نفسها، التي كانت تُشكّل جزءاً مهماً من نسبة تحصيل العبيد. فليكني يظفر الفوارس الصحراويون المختطفون بالعبيد، فإنهم كانوا يُهاجمون القرى السودانية ويُقيّدون صغارها ونساءها في ذيول الخيل العربية ويجرونهم بها أو يحملونهم عليها. ورغم أن أسعار الأطفال المُستعبدين لم تكن تصل إلى نصف أسعار العبيد البالغين، إلا أن أسرهم كان أسهل غالباً. ثم إن الممالك السودانية كانت مستعدةً لنخاسة الأطفال، ربما في إطار عمليات احتراب سودانية أهلية أخرى، لمقايضتها بالخيول البيضانية، المهمة جداً لاقتصاد الممالك السودانية وأمنها. وقصة هذا أن البيضان بدأوا يوفّرون مزارع لتربية الخيل العربية الأصلية في مُدُنهم في منطقة «المدن التاريخية» بأدرار، ولاحقاً تكانت، ويأخذون مكانها العبيد تبادلاً مع شركائهم في المجتمعات السودانية فيما وراء النهر. وفي حوالي عام ١٤٥٠ كان سعر الحصان يتراوح ما بين تسعة إلى أربعة عشر عبداً كان يبيعها التجار الصحراويون. ولم تغب أهمية الخيل المُستجلب للعبيد عن البرتغاليين، المرابطين على السواحل، فدخلوا أيضاً في خط تجارتها. وفي عام ١٤٦٠، ربما بسبب تزايد عرض الخيل، تراوح سعر الواحدة منها ما بين ستة إلى ثمانية عبيد^(٣).

(١) نفسه.

(2) Mark Peter and José da Silva Horta, *The Forgotten Diaspora Jewish Communities in West Africa and the Making of the Atlantic World*, Cambridge: Cambridge University Press, 2011, 174.

Trade in the Fifteenth and Sixteenth Centuries., 19-35

(3) Webb. *The Horse and slave Trade*, 236.

لم تنخفض قيمة آرغين في شحن العبيد إلا عندما بدأ البرتغاليون في النفاذ بأنفسهم إلى مراكز العبيد التي يأتي بهم منها الوسطاء البيضان، وذلك عند اكتشافهم للشواطئ، ثم بنائهم للموانئ، في الجنوب في السنغامبيا والرأس الأخضر. عندها أمكنهم شحن آلاف العبيد بتكلفة أقل، متجاوزين الدور الوسيط، وبالتالي الربحي، للبيضان. ويبدو أن البيضان لم يكونوا سُدجًا تجاه عملية تجاوزهم، وقاوموها بعنف. فيظهر أن من عرفه أنتونيو منديس بـ «ملك انيرزيك» حاول التصدي لهجرة التجارة بتنظيم هجوم على القرى السودانية في الجنوب البعيد في الرأس الأخضر ودمرها. على أنه من الأرجح أن هذه المحاولات كانت عبثية. ولم تستطع إيقاف عملية تراجع حوض آرغين، خصوصًا أن تُجار البيضان هجروه إلى المراكز المغربية التي كانت توصلهم إلى التجار اليهود، وهكذا بدأت الكفة تميل لصالح العبيد المُتسَقِّمين من بلاد الجولوف (الولوف) الذين أصبحوا يشكّلون ٧٠ بالمائة من العبيد المنقولين إلى البرتغال ابتداءً من العام ١٥٧٥^(١).

وإذا كان البرتغاليون لم يعودوا يعتمدون على الصحراء في العبيد، إلا أنهم لم يُفوّتوا الفرصة في استكشاف الصحراء لعلها تُعطيهم موارد أخرى. ففي الفترة نفسها المصاحبة لانحسار -وليس انقراض- تجارة العبيد بدأ تجارهم في التوغل لداخل البلاد لسبر أغوارها واكتشاف ثروات جديدة بها، خصوصًا أنهم كانوا يبحثون عن الذهب الذي سمعوا أنه يتوفّر في بلاد السودان. وهكذا تغلغلوا حتى ودان، حيث أسسوا مركزًا تجاريًا للتقرّب من مصادر الثروة ومن السكان المتاجرين داخل البلاد. ورغم هذا لم يفقد حوض آرغين قيمته، خصوصًا أنه ظلّ متنفس الشحن والتبادل. وبفعل قيمته بدأت أطماع الهولنديين -الذين بدأوا يتحوّلون إلى قوة تجارية عالمية في القرن السابع عشر- تتّجه صوب مكاسب البرتغاليين في عموم المناطق التي يسيطرون عليها. ولكن إزاحتهم للبرتغاليين من الساحل الموريتاني لن تحدث قبل العام ١٦٣٨.



(1) A de Almeida Mendes. Child Slaves, 26-29

بعكس البرتغاليين، فإن مادة جديدة هي ما حفّز اهتمام الهولنديين بآرغين: الصمغ العربي، الذي لعلّه كان -وليس العبيد- ما استقدّمهم في المقام الأول، إن لم يكونوا قد اكتشفوه في أثناء سيطرتهم على آرغين. في التصنيفات التاريخية لتاريخ التجارة الصحراوية يعرف هذا العهد بـ «عهد الصمغ»، الذي انفتح فيه باب جديد من العلاقات والتبادل مع الأوروبيين. وعلى العموم، فقد كان الصمغ ينمو في أشجار العلك الصحراوية الجافة ولعلّ قيمته فيها كانت عادية واستخداماته فيها طبيّة في الغالب، وإن كانت المصادر الأوروبية اللاحقة ستشير إلى قيمته كغذاء لساكنة الصحراء^(١)، وخصوصاً لعبيدهم. ولعلّه لم يكن مهمّاً للمتاجرة والدخل قبل الانتباه الأوروبي له في القرن السابع عشر. فبالنسبة إلى أوروبا نبعت قيمته من حاجتها له في صناعة النسيج وصباغته، وكانت تجارة الثياب، التي تطوّرت من إنتاج ثياب القرون الوسطى الثخينة والسميكة إلى ثياب عهد الأنوار الناعمة والخفيفة (حسب التقديمية الأنوارية)، لا تستعيز عنه. وبالنسبة إلى الأراضي المنخفضة كان محوريّاً في هذه الفترة لطباعة النسيج الهولندي الرائج. وهكذا، نظرًا لهذه الأهميته، استقطب الصمغ أطماعًا أوروبية أخرى بدأت تتوجّه بالتزامن نحو حوض ساحل الصحراء.

وكان على رأس هؤلاء المنافسين الفرنسيون، الذين توجّهت طموحات رجال السلطة فيهم إلى تجارة آرغين. وفي عام ١٦٢٦ أسّس الكاردينال ريشيليو، رجل فرنسا القوي والشرير في رواية «الفرسان الثلاثة»، شركة تجارية مهمة هي «شركة النورماندي الفرنسية» *Companie Normandie* التي استطاعت كسب سان لويس السنغالية وبناءها وإثبات موطن قدم لفرنسا في السنغال، بل وبدء استعمار سواحلها. وسرعان ما تطوّر أمرها حتى أصبحت إحدى أكبر الشركات المتاجرة في العبيد والصمغ العربي. وفي عام ١٦٦٨ بلغت هذه الشركة مجدها عندما استفادت من وزارة جان بابتيست كولبير (١٦٦١-١٦٨٣) التي دخلت في حرب مع الهولنديين وانتزعت منهم حوض آرغين والسنغال. حدّث ذلك بعد الحرب

(١) انظر مثلاً تاريخ ويليام ريند للأعشاب، المكتوب في الصدر الأول من القرن التاسع عشر:

William Rhind, *A History of Vegetable Kingdom*, Glasgow: Blakie & Son, 1841, p. 585.

التي انتهت بتوقيع اتفاقية نيميج Nimègue في عام ١٦٧٨. يعرف الدارسون هذه الحرب نظرًا لقابليتها للرؤية في التاريخ الأوروبي، بيد أن ما هو أقل شهرةً عنها هو مكسب الفرنسيين منها للسيادة على أرغين^(١). وهكذا بدأوا في السيطرة على مساحة ٥٠٠ ميل من تجارة الصمغ، حسب تقديرات كاتب سيرة أول حاكم إنجليزي للسنغال^(٢). ولن يعود الهولنديون إلا في عام ١٦٩٠، عندما استغلّوا فرصة ضعف فرنسا في السواحل فاحتلّوا الحوض بالقوة، مُستعدين لاحتكار التجارة مع البيضان. إلا أن نفوذ الفرنسيين ظلّ يتنامى خصوصًا في السنغال من خلال شركتهم التجارية^(٣). ورغم أن الإنجليز دخلوا على الخط وسيطروا مدةً وجيزةً في عام ١٧٩٢ على المنطقة التجارية، إلا أن الفرنسيين سرعان ما استعادوها منهم في العام الموالي.

بعكس البرتغاليين، فإن الفرنسيين تمركزوا أساسًا في السنغال التي بنوا بها حصن لويس، الذي سيعرف لاحقًا بالقديس لويس أو سان لوي (سان لويس) وسيعرفه الموريتانيون لاحقًا بـ «أندر»، التي تقول بعض الروايات الشفاهية، التي ربما لا مصداقية لها، إنها مشتقة من «الدار» التي أطلقها البيضان على الحصن. ومن الواضح أن الفرنسيين اهتمّوا كثيرًا ببقائهم في المنطقة وبمركزها الجنوبي الجديد، سان لويس، الذي بنوا فيه تحصينات على منطقة النهر؛ وبنوا حصن القديس جوزيف وحصّنوا جزيرة غوري وأرسوها محلاً تجاريًا أعطى دفْعًا واتجاهًا جديدًا للتجارة الأوروبية مع البيضان وغيرهم. وعلى العموم، فقد كان الفرنسيون يشترون من البيضان والسودان في المنطقة أصنافًا مختلفة من المواد الصحراوية كالصمغ والسمن والجلود وريش النعام والعييد؛ أما التجارة السودانية فكانت تأتي إليهم بالعاج، الذين كان «اللاوبة» أو الصيادون السود يقتلعونه من جثث الفيلة

(1) J. Ancelle, p 25..

(2) George Duke, *The Life of Major-General Worge, colonel of the 86th Regiment of Foot and Governor of Senegal in Africa with an Account of the settlement*. London: Parker, Furnivali and Parker Whitehall, 1844, p. 61.

(3) J. Ancelle. *Les explorations*, 25-26.

بعد اصطيادها في جنوب موريتانيا وشمال السنغال^(١). ورغم أن فقهاء البيضان اعتبروا أن العاج نجسٌ كما أفتى بذلك الحاج حسن بن آغبدي الزبيدي التيشيتي (١٦٥٤-١٧١١) وتبعه في ذلك حميَّ الله التيشيتي، إلا أن المعطيات التاريخية المختلفة تُشير إلى أنه ظلَّ عنصرًا ثمينًا في تجارة الصحراء^(٢). وكان التجار السودان أيضًا يأتون للفرنسيين بالعنبر وشمع النحل وتبر الذهب والعبيد والقماش الغيني^(٣).

على أنَّ انتقال ثقل الأوروبيين من آرغين إلى الضفة السنغالية لم يجعل الفرنسيين يتنازلون عن آرغين، بل ظلَّ أثيرًا عندهم. ولم يأتوا إليه عن طريق التفاوض، كما هو متوقع من تجارٍ، بل عن طريق سيطرة عسكرية واقتحام عنيف قتلوا فيه كثيرًا من البيضان من أتباع الأمير الترازي، اعلي شنظورة (١٧٠٣-١٧٢٧). ولفترة من عشرينيات القرن الثامن عشر ظلَّوا متوطَّدين في حصن آرغين، بينما توطَّدَ غرماؤهم، الهولنديون، في ميناء هُدِّي. وبسبب عنف الفرنسيين، وربما سياستهم في تحصيل موارد الصحراء بقيمة أقلَّ وبعنفٍ أكبر؛ فإنهم دخلوا في مواجهة مع أمير الترازة الذي نجح في طردهم مؤقتًا وقتل قائدهم العنيف، ديفال. ولكنهم سرعان ما عادوا وسيطروا على الموقع في عام ١٧٢٤، وبقي في حوزتهم مدة عقود، وإن لم يكن وجودهم استعماريًا بقدر ما كان تجاريًا ومركتاليًا^(٤).

على الصعيد العالمي، سرعان ما بدأت السيطرة الفرنسية في الإضرار بأعداء فرنسا التقليديين في التجارة المركتالية: الإنجليز؛ ذلك أن سيطرتها على تجارة العلك والعبيد مكَّنتها من توفير العبيد الذين كانوا يعملون في مزارع السكر وينتجون منه كميات كبيرة من دون تكلفة، فيبيعون منتوجها من السكر بسعر زهيد في الأسواق العالمية، ضاربين المنتجات الزراعية الإنجليزية. وعلاوة على هذا، فإن احتكار الفرنسيين للصمغ جعلهم يبيعونه بأسعار غالية للتجارة الإنجليزية التي

(1) George Duke, 62-63.

(٢) حميَّ الله التيشيتي، النوازل، مخطوط.

(3) George Duke, 62-63.

(٤) انظر الفصل عن إمارة الترازة.

-بفعل حالة التنافس والحرب مع الفرنسيين- لم تكن قادرة على التوفّر عليه إلا عن طريق الوسطاء الهولنديين الذين اشترّوه من الفرنسيين، وبأسعار غالية^(١).

وبدوره انعكس الصراع على مكاسب المتاجرة مع الفرنسيين على الصراعات المحلية في الصحراء، وخصوصًا في القرن الثامن عشر عندما انزاحت الإمارات البيضانية جنوبًا وسيطرت على حوض نهر صنهاجة. فانعكست الخطوة أو الجفوة مع التجارة الأوروبية على أداء وكلائهم في المجال، وهو ما غدّى لفترة طويلة صراعات البراكنة والترازمة. فعندما نجحت الترازمة في إقصاء أولاد دليم من حوض آرغين ومن ميناء هديّ للتجارة مع الأوروبيين، بقي القطبان الأساسيان الآخران، البراكنة والترازمة، في حرب دائمة. ولفترة ظلّ البراكنة حلفاء للفرنسيين؛ فيما كانت الترازمة حليفةً للإنجليز الذين عملوا معها في انقلاب ضد السيطرة الفرنسية على تجارة النهر في عام ١٧٥٧، ما فاقم صراعاتهما وحروبهما^(٢). وحدث الشيء نفسه بالنسبة إلى محطة بودور التجارية في الجهة السودانية من النهر، في المنطقة المعروفة لدى البيضان بـ«ادويرة». فلم يرض البيضان في الشمال أن تنافس هذه المحطة الأجنبية سوقهم الكبير في ميناء هديّ، فقاموا بتدميرها مرارًا وهو ما اعتبره مؤرّخ إنجليزي «مخططًا قديمًا ومفضلاً لديهم»^(٣).

ومن جهتهم لعب الأوروبيون، وخصوصًا الإنجليز بعد سيطرتهم، على إبقاء التنافس التجاري قائمًا بين البيضان فيما بينهم وفيما بين هؤلاء مع بودور (ادويرة)؛ وذلك لإبقاء أكثر من قطبٍ ومركز تجاري، ما عنى تصريف طاقة الفرقاء العدائية، وخصوصًا البيضان، بينهم وتقسيمهم إلى عدة مصالح متفرقة، مما يساهم في تخفيض الأسعار. وفي البداية اتّفَقَ أمير الترازمة المختار ولد اعمر (١٧٥٧-١٧٧١) مع الإنجليز على إبعاد البراكنة وتدمير محطة بودور. لكن الإنجليز، الذين رأوا أن احتكار الترازمة للتجارة سيكون خطرًا على أسعار

(1) George Duke, 61.

(2) نفسه، ص ٦٣-٦٨، ١٠٤.

(3) نفسه، ص ٦٣-٦٨.

الصمغ، نجحوا في إقناع المختر بإبقاء تعدد المحطات التجارية، واتفقوا معه على إبقاء ميناء هُدِّي الترازوي وميناء Le coq البركني، الذي عرفه البيضان بميناء دَيَّة، وميناء اذْويرة، منافذ تجارية لتوريد العلك للإنجليز^(١).



لم يكن الأوروبيون وحدهم هم الداخلين إلى الصحراء في هذه الفترة. فقد شهد العصر دخولاً ملحماً للمحلات الشمالية، الحسانية وغير الحسانية. وإذا كان البيضان قد دخلوا في حروب وغزوات مع الأوروبيين، فإن هذه المواجهات لم تشكّل جزءاً، ولو كبيراً، من الهجمات التي كانت تطبع الحياة البيضانية والسودانية فيما بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر. فقد شهدت هذه الفترة حركة واسعة للمجموعات الغارمة التي بدأت تجني عوائدها من اقتصاد الحماية، وأحياناً المداراة، من قبل أمرائها وشيوخها، ومن النهب والسلب من قبل جماعاتها الصغيرة. ومع القرن السادس عشر كانت المجموعات العربية، كالودايا والبرابيش، قد بدأت في حماية المناطق الجنوبية في الحوض وجنوب آدرار، وفي تلقّي العوائد بفعل هذه الحماية. ولا بدّ أن الفترة شهدت تراجعاً للسونغاي من التأثير في ولاثة ونواحيها، رغم أن البيضان ظلّوا حاضرين في تمبكتو.

كانت فترة القرن السادس عشر، ولكن بالتأكيد فترة القرن السابع عشر، فترة انحسار المساحة الخضراء من وسط الصحراء وشمالها بفعل الجفاف وبفعل نمو مجموعات الرعويين والخطابين. وأدّت طموحات المجموعات الغارمة، سواء من المحلات المعقلية أو العروسية أو السودانية، إلى تهديد الحياة المدنية والتجارية. كانت مجموعات الودايا التي تحدّث عنها فرناندس -التي ستتطور لاحقاً إلى أولاد رزك وأولاد عروك- قد بدأت في التسيّد في بقع مهمة من المنطقة الكبيرة من الصحراء إلى الجنوب المحتكّ مع بلاد السودان. وكانت تنظم في نمط حربي منظم جداً. وربما نجد أفضل مثال على هذا في أولاد رزك، المشتهرين بنظام تقسيم العمل الحربي عندهم؛ إذ، كما يُخبرنا محمد بن سعيد اليدالي، شكّلوا مجموعتيّ لِكْتَيْتَات ولِعَزِيْزَات اللّتين اقتسمتا الأدوار الحربية بين شقّ متخصّص

(١) نفسه، ص ١٠٦-١٠٧.

في تحييد العدو وشقّ متخصّص في السلب، ونجحنا في فرض سلطتهما على المجموعات الصنهاجية والبافورية التي وصلت إلى أرض الغبلة واستقرت بها، وأخضعت التجمّعات الصنهاجية والشرمية في المساحات العريضة في الصحراء وسواحلها. ولم يحدث هذا دون قهرٍ بالغٍ للأهالي. فكان العرب الحسانيون ينهبون الممتلكات ويغتصبون البنات وتُقدّم لهم الأطعمة فيما يشبه التقاليد الانهزامية التي ستتطوّر لاحقًا بشكل أوضح فيما بعد شربيّة، وإن بشكل أقلّ إذلالًا من الصورة التي وصفها فرناندس:

عندما يأتي العرب إلى مساكن هؤلاء الأزانكة، فإنهم يضاجعون نساءهم وبناتهم ويأخذون ممتلكاتهم وقطعانهم كما لو أن الأمر يتعلق بواجب من قبلهم. وإذا قدم عربي إلى كوخ صنهاجي أو خيمته، فإنه كان على هذا الأخير أن يسارع إلى ذبح شاة له ويجهّز له الأكل . . إلخ^(١).

وسرعان ما بدأت المحلّات تفرض الإتاوات على سكان الواحات وتنهب تمورهم في موسم التمور^(٢)، الذي سيعرف في الحسانية -وربما في الصنهاجية قبلها- بالكَيْطَنَة. وفي البوادي كانوا يفرضون ضرائب «الحرمة» ويواصلون الغزوات حتى في السودان^(٣). ولم يشهد فرناندس إلاّ بدايات هذه الهيمنة. أما فيما بعده فقد شكّلت المحلّات المغفرية الصاعدة تحالفات قرابية وأسرية بينها، وتمدّدت حثيثًا مستهدفة ليس الزوايا الصنهاجيين فحسب وإنما الموجة الأولى من الحسانيين المعقليين. ولعلّ النواة الضاربة الأولى للمغافرة كانت نواة أولاد عبد الله التي تشكّلت في القرن السادس عشر، وبدأت في التحلّق حول البنين الستة لعبد الله، الذين انتشروا مُسيطرين في مجال الترازة وجنوب غرب آدرار وكوركول والبراكنة. وكانت بقية مجموعات المغافرة، كأولاد أحمد بن دمان وأولاد امبارك وأولاد أحيي من عثمان، يتحالفون معهم. وقد استطاعوا بسط نفوذهم في الشمال الشرقي من البلاد بشكل نهائي في عام ١٦٢٩ عندما أنهوا معًا

(1) Fernandes, 73.

(2) نفسه، ص ٨٣.

(3) نفسه. وانظر أيضًا الفصل السابق.

نفوذ أولاد رزك. وعلى مدى قرن ونصف ستبدأ هذه المجموعات في التوسع والتفرق شيئاً فشيئاً، إلى أن تتحول إلى إمارات مستقلة عن بعضها.

ومن المهم أن نتذكر أنه في الفترة المذكورة من القرن الخامس عشر إلى ما قبل تشكّل الإمارات كانت هذه المجموعات عناصر غازية مترحلة وصغيرة، رغم أنه كانت توجد بها جماعات محاربة أو أخرى تعمل في الحماية وتحصيل الموارد الدورية دون الحاجة للاستمرار في النهب والغزو. ولفترة كان مشهد الجماعات الغارمة أوضح في الجنوب الشرقي من البلاد ووسطها منه في غربها، وربما عاد ذلك إلى أهمية الطريق القوافلي الذي استقطب المجموعات المحاربة، فبدأت تفرض نفسها على المسالك التجارية وعلى القرى القريبة من ودان وتيشيت وولاته، وخصوصاً مع ضعف السلطة السنغوية. وقد سمى أحد مؤرخي وولاته هذه المجموعات الناهبة بـ «العرب الفساق». ويبدو أن الأسكيا داوود اضطرّ إلى تسيير قوة لمهاجمتهم في نواحي بلاده، حتى ألجأهم إلى نواحي ولاته وذلك في عام ١٥٨٣-١٥٨٤^(١).

مع بداية القرن السابع عشر كانت المحلات القادمة من الشمال، وخصوصاً العروسيين، الذين عرفوا بالرماة، قد صاروا بلاء الصحراء فأصبحوا يحومون في مجالات واسعة من آدرار إلى الترازة إلى ولاته، فارضين المغارم القاسية على السكان. وفي البداية أتت هذه المحلات باحثة عن العبيد للتاج المغربي وتحالفت مع الحسانيين في الصحراء وعملت مع المخزن المغربي في شحن العبيد إلى المغرب^(٢). بيد أنها سرعان ما استقلّت ووجدت فرصاً في البقاء في الصحراء والاستقواء فيها، وبدأ بعضُها ينتظم في فترة تفكّك السلطة المغربية في السودان في وحدات متكسّبة بالغزو، وهو ما دفعها إلى مهاجمة المدن والكصور. وكانت عشرينيات القرن السابع عشر ذروة أفعال هذه المجموعة عندما وصلت محلّة العروسيين بقيادة إبراهيم العروسي وابنيه، شنان والتونسي، إلى ولاته، وفرضت

(١) تاريخ ولاته، في: رجال بوبريك، المدينة في مجتمع البداوة: التاريخ الاجتماعي لولاته خلال القرنين ١٨ و ١٩ مع تقديم ونشر تاريخ ولاته. معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ٢٠٠٢، ص ٥٠.

(2) Webb, Desert Frontier, 73.

سيادتها على سكانها في عام ١٦٢٨-١٦٢٩^(١). وقد تحصّلت هذه السيطرة أساسًا من قوات شنّان العروسي الذي ذكره المستشرق الكبير، هنري بارت، باسم «طاغية ولّاتة وتازوغت الشهر»^(٢).

وشهدت هذه الفترة -الموسومة بحثّ السلطان المغربي على غزو الصّحراء والسودان وبتداعيات تفكّك السلطة السعدية لتمبكتو- تدفّق الجماعات القادمة من التافيلالت (وهي منطقة سِجلماسة القديمة) ووادي درعة والساقية الحمراء إلى الصّحراء في إطار نزوح المحلات المغربية التي قدمت من زاوية إلّغ في عهد السلطان مولاي عبد الملك السعدي، ولم يكن العروسيون السملاليون غير الوجه الأبرز من هذه المحلّات. وربما انتمت لهذا المصنّف أصول المجموعات التي ستغدو لاحقًا بيضانية قحّة، كالرحالة الذين أتوا مع أعلي شنطورة في الترازرة وكالمجموعات التي قدمت في عهد السلطان مولاي إسماعيل كأولاد أركيگ ولييدات^(٣).

وصل العروسيون السملاليون إلى الصّحراء جزءًا من عناصر من رماة الجيش السعدي، الباحثة عن المغنم ووصلت معهم عناصر ضاربة من الدميسات ومن تكنة وعناصر عربية وأندلسية من تلمسان وفاس. ولأسباب ريعية وجدت كل هذه المجموعات حظوظًا في الصّحراء وفضّلت البقاء فيها، ووجد أغلبها وسائل لفرض مشيئته بالقوة^(٤). وساهم الغزو السعدي والمحلّات المنبثقة عنه في تحجيم تجارة ولّاتة وتيشيت ووادان. ومنذ أواخر القرن السادس عشر حتى عشرينيات القرن السابع عشر، وتجارة القوافل في أزمة حقيقية في هذه المدن^(٥). فعندما وصلت مجموعة شنّان المسلّحة والمهيأة للقتال إلى ولّاتة، فإنها بنت بها مركزًا عسكريًا أو «قصبه» وبدأت تفرض جبايات العُشر القاسية على كل الأنشطة التي

(١) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب، ص ٤٣.

(2) Henry Barth. Travels and discoveries in north and central Africa, 1849-1855, Volume 3

By Henry Barth, p. 711

(3) Le Chatelier, 54, 59.

(٤) محمذن ولد باباه، نصوص، ص ٨٧-٨٨؛ بن محنض، تاريخ موريتانيا القديم والوسيط، ص ١٩٣-١٩٤.

(5) Webb, Desert Frontier, 47.

يقوم بها الولاتيون، حتى على التحطيط المنزلي والمياه ونقل التراب، و«أضرّ بهم [شّان] غاية الإضرار» بحسب مؤرخ ولاتة^(١).

ولم يكن طُغيان شّان المذكور غير تطبيق لتجربة عروسية أخرى في الصحراء؛ إذ يبدو أن مجموعة عروسية أخرى بقيادة سيدي إبراهيم بن سيدي أحمد العروسي^(٢)، قد وصلت إلى الترازة في عشرينيات القرن السابع عشر^(٣)، وبدأت في فرض الجبايات على تاشمشة في الوقت نفسه الذي كان فيه أولاد رزك أقوياء في المنطقة، ما يعني أنها عاشت، بل وتنافست، مع المجموعة الحسانية النافذة. وفي الفترة نفسها وصلت مجموعة أخرى من العروسيين إلى اركيز، في الجنوب الشرقي، فاشتبكت فيه مع الجكنيين بقيادة سيدي المحجوب الجكني^(٤)، وكانت حربًا ضروسًا انتهت بإخراج العروسيين^(٥)، وذلك عندما استعان الجكنيون من إيديشف بأبناء عمومتهم، الكواليل، في لعصابة^(٦).

لم تبدأ التجمعات المدنية والمجموعات المغفرية الصاعدة في التخلص من نفوذ العروسيين إلا في الثلاثينيات وبداية الأربعينيات من القرن السابع عشر، واستغرق إنهاؤه وقتًا، وهو أمر حدث بسيناريوهات مختلفة. ففي الترازة استفاد أحمد بن دامن، زعيم تجمع قبلي مغفري صاعد، من القوة الضاربة للعروسيين في مواجهة أولاد رزك، عدوهما المشترك. ولكن عندما تلاحم الجمعان في انتيتام عام ١٦٣٠ سقط أكثر الضحايا من العروسيين، فكانوا الخاسر الأكبر بحيث إنهم لم يعودوا قوة منافسة للمغافرة بعد انقشاع غبار المعركة. وهكذا سدّ المغافرة الفراغ السلطوي الناجم^(٧). أما في اركيز فإن تحالفًا واسعًا أقصى

(١) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب، ص ٤٣.

(٢) يجزم محمذن ولد باباه أن التباسًا وقع على البدالي، وأن المقصود هو سيدي أحمد العروسي لا ابنه سيدي إبراهيم. (نصوص، ص ٨٨-٨٩).

(٣) نظرًا إلى المسافة وإلى أن العام الذي وصلت فيه المجموعة إلى ولاتة هو العام نفسه الذي حدثت فيه معركة انتيتام في أرض القبلة. وحسب الرواية فإن العروسيين كانوا حاضرين بقوة في انتيتام.

(٤) محمذن باباه، نصوص، ص ٨٨.

(٥) المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ٦٠-٦١.

(٦) نفسه.

(٧) محمذن باباه، نصوص، ص ٨٩-٩٠؛ البدالي، شيم الزوايا، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ٨٧-٩٤.

العروسيين، كما رأينا. وفي ولاتة استطاعت فيه المجموعات المغرومة الاستفادة من تحالف مع قوة أولاد يونس الصاعدة في عام ١٦٤٠، وتخلّصوا من نفوذ شنان وقتلوه بعد خطة عسكرية محكمة^(١). رغم هذا، فإن العروسيين لم يندحروا نهائياً بل ظلّوا يصلون في مجالات مختلفة حتى وقت لاحق من القرن السابع عشر؛ ففي العام ١٦٦٤-١٦٦٥ هاجم هيبة بن إبراهيم بين سيدي أحمد العروسي، أخو شنان، هجوماً أرخ به ولد اطوير الجنة، كاتب حوليات بيضاني قديم^(٢). من الواضح أن اندثارهم لم يكن درامياً، رغم أحداثٍ عسكرية معلميّة.

ولا تتعلّق هزيمة المحلّات «المغربية» بصعود المجموعات المحاربة الصحراوية خصوصاً المغافرة في الغرب ومجموعات أولاد داوود المختلفة من أولاد بللة وأولاد يونس في الشرق وإنهائها حكماً «أجنيباً»؛ فقد كانت المحلّات «المغربية» الصغيرة تأخذ هوية في الصحراء وتتوطّد فيها من خلال استعمار التجمّعات القروية والمدنية والثقاف معها، ومن خلال التحالف مع المجموعات الأهلية والتنسيق معها، فقد استخدم الأمير التروزي أعلى شنظورة لاحقاً محلّات مغربية في بسط ملكه على الساحل والجنوب الغربي وفي إبعاد الزوج إلى ما وراء النهر. وربما شكّلت هذه المحلّات مجتمعاً مستقراً في مجال البيضان كما كان حال العروسيين في تكبة، التي نزلوها وأسّسوا بها قرية وتناسلوا فيها مع فرع مهاجر من تيجكانت، هم أيديشف، في النصف الأخير من القرن السادس عشر^(٣). ولكن عمل المحلّات كان يعتمد على الإغارة على الجيران أو الاستفادة المكوسية من حمايتهم. ولم يتم امتصاصهم في الحياة الأهلية المسالمة إلا بعد لأي.



يتعيّن علينا هنا التوقّف قليلاً والعودة إلى الأسباب الكبيرة التي أدّت إلى فتح الصحراء أمام المجموعات الجيشيّة المغربية. فالواقع أن هذا الدخول كان من

(١) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب، ص ٤٣.

(٢) المختار بن حامد، حوادث السنين، ص ٥٢.

(٣) المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ٦٠.

العواقب السياسية للمغامرات السلطانية المغربية في الصحراء. وبدورها تدخل تلك المغامرات في بابنا هذا الخاص بالداخلين إلى الصحراء. ففي أحيان كثيرة كانت المحالّات ظاهرة عسكرية عابرة لمجال الصحراء وليست مستقرة بها؛ إذ قدم بعضها في إطار عمليات غزو كبيرة كان المستهدف منها بلاد السودان، كما حدث في الصراع الكبير بين السونغاوي والسعديين على ممالح تغازة، التي افترض ملوك المغرب، السعديون، أن امتلاكها يضمن موازنة الملح بالذهب وأرادوا انتزاعها. ويتحدث المؤرخ مارمول كاربخال (١٥٢٠-١٦٠٠) عن جيش قاده الملك السعدي، السلطان محمد الشيخ (١٥١٠-١٥٥٧) في عام حكمه الأخير، مكوّنًا من ١٨٠٠ خيال وعدد لا يحصى من الإبل، فكوّن تحالفًا مع القبائل المعقلية، وخصوصًا الرحامنة (أولاد رحمون)، وسيطر على ودان ثم انعطف خارج المجال إلى تارودانت عندما علم بأن الملك السونغاوي قد حشد ٣٠٠٠٠٠ مقاتل لقتاله^(١).

وقد بقي شأن الصحراء والسيطرة على تغازة، ربما عن طريق الصحراء وبسط النفوذ عليها، حلمًا حاضرًا في ذهن الحاكم المغربي ولم يغب في هذه الفترة إلا في سنوات السلطان مولاي عبد الله (١٥٥٧-١٥٧٨) بسبب انشغاله بالتصدي للخطر العثماني والبرتغالي. وعندما استأنف السلطان أحمد المنصور (١٥٧٨-١٦٠٣) مشروع السيطرة على تغازة تمّ صدّه مؤقتًا بفعل دبلوماسية العاهل الماندي، الأسكيا داوود، الذي صادقه وبعث له بهدايا ثمينة. ولكن هدايا خليفة الأخير، الأسكيا الحاج، لم تُقنع السلطان أحمد المنصور في عام ١٥٨٤، وعزّم على المضي قدمًا في مصادرة الذهب مباشرة من السونغاوي. فأرسل في العام نفسه بعثة قيل إنّها تكوّنت من ٢٠٠٠٠ محارب، وصلت إلى ودان في الطريق إلى تمبكتو. بكلّ المقاييس كانت هذه الحملة كارثة عسكرية؛ إذ افتقر جيشه للتنظيم والخبرة في شؤون الصحراء؛ لذا قضى عليه تحالف البيئة الصحراوية القاسية ورجالها، وذلك عندما هاجمه البيضان في الصحراء وأفنوه قبل الوصول إلى تغازة^(٢). لكن الإصرار والتنظيم السعدي جعل جيشًا ثانيًا بقيادة جودر يعبر

(1) Jaques-Meunié, *Le Maroc saharien*, 2, 575.

(2) Le Chatelier, 57; Jaques-Meunié. *Le Maroc saharien*, 2, 576.

الصحراء ويسيطر على تغازة، بل ويسيطر على تمبكتو ودولة السونغاي في عام ١٥٩١.

رغم أنّ أحد أهمّ مؤرخي المغرب لا يذكر أيّ حدث مُلِفَت للجيش السعودي العابر إلى السودان في صحراء موريتانيا، التي تبدو من إشارته كما لو أنّها فارغة؛ إذ يقول لنا الناصري إن جيش الملك المنصور، المتكوّن من ٢٢٠٠٠ مقاتل في عام ١٥٩١، مرّ بالصحراء، جنوب وادي درعة، ف«لم يَضَعْ لهم عقال بغير ولا نَقَصَ منهم أحدٌ فنزلوا على تنبكتو»^(١). ومن الأرجح أن هذا خرافة؛ ذلك أن اهتمام الحكام المغاربة اللاحقين بمجال الصحراء يُحيل إلى كتلة متفايزة فيها من العلاقات البشرية والسياسية. ولعل أكثر من اهتمّ بالعلاقات مع سكان الصحراء كان السلطان مولاي إسماعيل ملك المغرب (١٦٧٢-١٧٢٧). ويتصادف عام ١٦٦٤-١٦٦٥ مع ما تعتبره بعض تواريخ البيضان، كتاريخ ولد اطوير الجنة مثلاً، دخولاً تاريخياً لهذا الملك^(٢). ورغم أن التواريخ المغربية^(٣) لا تُحيل إلى هذا الدخول إلّا في وقتٍ متأخر هو عام ١٦٧٨، إلّا أن التاريخين يتفقان في هذا الدخول. ولعلّه، وقد سبقته محاولات السعديين، كان يخلُف عنها من حيث أنه قصد الصحراء هدفاً، ومن حيث أنه ابتغى الطاقة البشرية من عبيد الصحراء، لا من ثروات السودان. فلعلّ الهدف الأبرز لما سُمي بـ«دخول المولى إسماعيل» كان تحصيل العبيد، وهذا كان مشروعاً للسلطان المغربي لإعداد ما سيُعرف بـ«جيش البخاري»، وهو جيش ابتغى فيه جمع العبيد، وأحياناً الرجال السود، في المغرب وأرسل في تحصيلهم من تلمسان وفاس وقبائل الحوز وقبائل الغرب وبني حسن وتامسنا ودكالة. ورغم أنّه حصّل بهذا جيشاً من العبيد وصادرهم أو اشتراهم من أسيادهم، إلّا أن ما حصّله لم يكفِ طموحه السلطوي فاتجه إلى الصحراء الموريتانية، ودخلها دخولاً غير عابر، كدخول أسلافه^(٤). ولا شك أن

(١) الناصري، كتاب الاستقصا، ج ٥ ص ١٢١.

(٢) الطالب أحمد بن طوير الجنة الحاجي الوداني، تاريخ ابن طوير الجنة، تحقيق سيد أحمد بن سالم، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ١٩٩٥، ص ٤٥.

(٣) الناصري، الاستقصا، ج ٧ ص ٥٨.

(٤) نفسه، ص ٦٥-٥٨.

هذه المهمة تطلّبت تورطاً عسكرياً في الصحراء، بيد أنه لا يبدو من سرديات الصحراء أنها أنتجت محالّات بدوية ضاربة متسيّدة كفرق الرّماة السملاليين العروسيين. وما يبدو في المقابل أن السلطان المغربي، وإن كان قد أهدى بقدومه للصحراء مجموعات عشائرية، لم يفرز فيها حركة مُسيطرة. ويقول الناصري، واصفاً دخوله:

ثمّ دخلت سنة تسع وثمانين وألف فيها غزا السلطان المولى إسماعيل صحراء السوس فبلغ آقاوطاطا وتيشيت وشنكيط وتخوم السودان، فقدمت عليه وفود العرب هنالك من أهل الساحل والقبلة ومن دليم وبربوش والمغافرة وودي ومطاع وجرار وغيرهم من قبائل معقل وأدوا طاعتهم، وكان في ذلك الوفد الشيخ بكار المغفري والد الحرة خناثي، أم السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل، فأهدى الشيخ المذكور إلى السلطان ابنته خناثي المذكورة، وكانت ذات جمال وأدب، فتزوّجها السلطان ﷺ وبني بها، وجلب في هذه الغزوة من تلك الأقاليم ألفين من الحراطين بأولادهم فكساهم بمراكش وسلّحهم^(١).

ونعرّف في غير هذا أن السلطان تحالف مع اعلي شنظورة، أمير الترازة، وأرسل معه محلّة كبيرة وتفاهم مع أولاد امبارك في باغنة والحوض. بل أرسل ابن أخته على محلة كبيرة تغلّغت في وسط الصحراء ووصلت إلى تگانت، وتعرّضت فيها للسلطة الصاعدة من أولاد بللة، الذين سادوا في أجزاء مهمة من المجال بإقصائهم للرحامنة والبرابيش. ورغم تعرّض عناصر المحلّة لخسائر كبيرة، إلا أنها نجحت في كسر هؤلاء وإزاحتهم في عام ١٦٨٠^(٢). وبطبيعة الحال، فإن الأدلّة تُشير إلى أن هذا الإسقاط لم يتحصّل من دون تغليب للعناصر المُخاصِمة لأولاد بلّة. وعلى العموم، فلم يكن العبور المغربي الكبير بلا أثر ديمغرافي في الصحراء؛ إذ أدخل في تركيبة قبائلها مجموعات أولاد اركيگ ولبيدات^(٣). ورغم أن المحلات العروسية، الأقدم من هذا العبور، كانت قد

(١) نفسه، ص ٥٨.

(2) Le Chatelier, 59.

(٣) نفسه، ص ٥٩-٦٠.

أصبحت جزءًا من حياة البيضان؛ إلا أن المحلات المرتبطة بالغزو السعودي أو بالدخول العلوي ظلت أيضًا خطرًا على الحياة المدنية، وخصوصًا في الجنوب الشرقي حيث استمرت بقاياها تجوب الأماكن بحثًا بالقوة عن عوائد. وقد هاجم الباشا خطير مدينة ولاتة مدة خمسة أيام في عام ١٧٠١-١٧٠٠^(١). وهاجمها في العام نفسه محارب نُخْمَن أنه مغربي يدعى عمر الهزهاز^(٢).

أما في غرب الصحراء فقد صيغ عقد بين المغاربة والمجموعات المقاتلة، المغفرية أساسًا، التي أصبحت تعوّض، بالنسبة إلى المخزن المغربي، دور المحلات. فإذا كانت المحلات العروسية والسعدية قد كانت رسالة المخزن أو هبة المصالح التجارية المغربية في إشباع حاجيات الشمال المغربي من العبيد؛ إلا أنها سرعان ما ضعفت واضمحلت. ويبدو أن سيطرة المغفرة على المنطقة فرضت عقدًا بديلًا أصبحوا فيه هم من يوصل، في روابط التجارة والمقايضة، العبيد المختطفين من الجنوب إلى الشمال. وقد أسفر طلب العبيد عن هجمات كبيرة على إمارة الوالو والكايور شمال النهر وجنوبه من قبل المجموعات المغفرية في الفترة (١٦٠٠-١٦٧٥)^(٣). ولا شك أن هذه الهجمات كانت عنيفة؛ ذلك أنها ربما كانت السبب في جعل ملك الكايور يغيّر عاصمته، انجربل، من شمال الكايور إلى جنوبها في عام ١٦٩٧^(٤).



وفيما انتهى الوضع في الغرب إلى توطيد مجموعات قتالية مركزية ومستديمة، فإن هذا لم يكن هو حال الوضع في الجنوب الشرقي حيث بقيت ولاتة، المدينة التجارية، عرضة لكثير من الهجمات. ولم تكن هذه الهجمات حكرًا على المحاربين من الشمال، بل كانت مقصد المحاربين السودان مرارًا فأتوا لطلب المغارم والأسلاب وهاجموها مثلًا في عام ١٦٨٢^(٥)، ودخلوا في مواجهة مع

(١) المختار بن حامد، حوادث السنين، ص ٧٥.

(٢) نفسه، ص ٧٦.

(٣) انظر الفصل عن الحياة البيضانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

(٤) Webb, *Desert Frontier*, 24, 39

(٥) المختار بن حامد، حوادث السنين، ص ٥٩.

قافلة ولائية في معركة الكلاكة في شرق تگانت في عام ١٦٩٦^(١). وبعد عامين (١٦٩٨-٩٧) هاجم قائد سوداني -هو آيم- قافلة ولائية^(٢)، وفي عام ١٧٠٢- ١٧٠٣ هاجم المدينة قائد آخر، هو كلاي^(٣). ولن يتوقف المدّ السوداني المحارب في أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر إلا لفترة قليلة مع ازدياد قوة القبائل الضاربة في المجال من أولاد يونس وأولاد امبارك وأولاد الناصر. ففي عام ١٦٩١ هزم أولاد يونس السودان في وقعة انترش^(٤). وساهم وجود القوى الحسانية المنزاحة إلى الجنوب في منع السودان من السيطرة على الحواضر البيضانية في الحوض واركيبية، شمال الحوضين ولعصابة. لكن الهجمات السودانية الخاطفة عليها وعلى القوافل ستُثابر لوقت، وخصوصًا في القرن الثامن عشر في الأعوام ١٧٠٠ و ١٧٢٠ و ١٧٢١ و ١٧٣٤. بل إن بعضها حدث في القرن التاسع عشر عندما هاجمت أكبر غزوة من السودان ولاية في عام ١٨٤٤، وذلك عندما دخلها ديوغو، أحد المحاربين البمبارا في مملكة سيغو، وأوثق شيوخها. ولم يكن هؤلاء كلّ الخطر الجنوبي؛ إذ لاح على ولاية خطر المحاربين الطوارق، وكانت عرضة أيضًا لهجمات البرابيش الذين كانوا يحرسون القوافل في الطريق الواقع بين ولاية وتمبكتو، والذين هاجموها في عام ١٧٠٤^(٥)، ولم يغادروها إلا في عام ١٧١١^(٦)، وهاجموها أيضًا في عام ١٧٣٧^(٧).

وربما عادت الهجمات السودانية إلى تفكك السلطة المركزية من السونغاوي بعد الغزو السعدي، ففُسح المجال للبامبارا في التطلّع إلى منطقة القوافل. وواضح أن تفكك النظام المركزي في السونغاوي جعل الصحراء مقصدًا، ليس فقط

(١) نفسه، ص ٧٠.

(٢) نفسه، ص ٧٤.

(٣) نفسه، ص ٧٧-٧٨.

(٤) نفسه، ص ٦٧.

(٥) نفسه، ص ٨٠.

(٦) نفسه، ص ٨١-٨٢.

(٧) حوادث، ص ٤٦-٤٧.

للمحاربين، وإنما خصوصًا من الجالية الصنهاجية المستقرّة التي كانت مقيمة في تمبكتو فعادت إلى ولّاية ثم لاحقًا إلى تيشيت فأدرار^(١).

على العموم، فقد كان لهذا التفكك أثرٌ في المجتمعات المدنية؛ لأنّه عسكريها، وأدّى إلى مولد المجموعات المقاتلة الصغيرة التي لم تعد مضبوطة من سلطة مركزية، فعاشت على هامش الممالك العسكرية في المنطقة وتطوّرت من عصابات إلى دول صغيرة كدولة الجولوف في السنغامبيا ودولة الفوتانكة في الفوتا العليا، التي ستتوسّع حتى تقترب من شرق تمبكتو وتصبح معروفة بدولة الفوتا الكبرى. أما بالنسبة إلى الصحراء فقد كانت القوة العسكرية الضاربة الحقيقية هي الجماعات الحسانية التي تحوّلت إلى إمارات ورئاسيات كبيرة فيما بعد القرن السادس عشر، وأصبحت تمارس سلطة كبيرة بفعل نفوذها وقوتها الحربية، وأسست إماراتها الكبيرة التي صارت أكبر سلطات الصحراء حتى القرن العشرين.

(1) Elias Saad, *Social History of Timbuktu*, 27-33, 71

تشكل المجتمع البيضاني (ق١٢ - ق١٩م)

«ورأيتُ من أبناء ملوك العجم من لا يعرف حال أبيه وزمانه؛ ورأيتُ من ينتمي إلى الفصيلة وهو لا يدري من أيِّ العماثر هي، وإلى البطن وهو لا يدري من أي القبائل هو؛ ورأيتُ من رغب بنفسه عن نسبٍ دقّ فانتُمي إلى رجل لم يُعَقَّب كرجلٍ رأيته ينتسبُ إلى أبي ذر الغفاري، ولا عَقَبَ لأبي ذر؛ وآخر ينتمي إلى حسان بن ثابت، وقد انقرضَ عَقَبُ حسان»

ابن قتيبة^(١)

«لقد تَمَّت صناعة هوية الناس على أساس متخيّل كان يُخفي أو يُقصي الاختلافات، وهو ما ترافق على المستوى العملي مع الإلحاق العنصري والتطهير الاجتماعي»

مايكل هاردي وأنتونيو نغري، «الإمبراطورية»

«... بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِنَّمَا فَائِدَتُهُ هَذَا الْإِلْتِحَامُ الَّذِي يُوجِبُ صِلَةَ الْأَرْحَامِ حَتَّى تَقَعَ الْمُنَاصَرَةُ وَالنَّعْرَةُ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ مُسْتَعْنَى عَنْهُ؛ إِذِ النَّسَبُ أَمْرٌ وَهَمِيٌّ لَا حَقِيقَةً لَهُ»

ابن خلدون

(١) أبو عبد الله محمد بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعارف، ط٤. القاهرة: دار المعارف، ٢.

في الفترة اللاحقة لمقدم بني حسان ومع تعدّد مشارب التجارة القوافلية والسواحلية وتوسّع «الأرستقراطية» العسكرية والعلمية، حسان والزوايا، تشعّبت سبل الإخصاب الثقافي الذي سيجعل الصحراء تتقارب ثقافيًا ولغويًا، خصوصًا بعد استلحاق السكان البربر (وليس فقط الصنهاجيين) والسودان والناطقين بالأزيرية ودفعهم أو تهيمشهم خارج المجال الذي سيطرَ عليه لاحقًا بلاد شنقيط أو «تراب البيضان»^(١). إلّا أن توسيع الثقافة هذا كان في جزء منه مخالطة اجتماعية، فلم يكن تاريخ الصحراء ثابتًا بلا حراكٍ أو مثاقفةً بلا اختلاطٍ في الهوية كما يُعتقد مرارًا، ولم يكن النقاء القبلي العرقي الذي توحى به الاستخدامات الذائعة للأنساب القبلية يترجم إلى قبائل ثابتة الأصل وغير مختلطة؛ فعلى مدى القرون المتلاحقة تلاحت الكيانات العصبية القديمة مُعَيَّرَةً قبائل قديمة ومُنتَجَةً قبائل جديدة. ولا يسع المُدَقِّق في تاريخ الصحراء إلّا أن يرى التحوّلات السريعة للبنى الانتمائية والنسبية والعشائرية في قبائل الصحراء. فالصورة التي وصلتنا عن الفترة اللاحقة للعصر المرابطي الأول تُشير إلى تواصل الديناميكيات السياسية الاجتماعية المؤدّية إلى الاختفاء التدريجي للتجمعات الكبيرة من جدالة وجزولة وهسكورة ولمطة وبني وارث ولمتونة ومسوفة وغيرها من العشائر والهويات القديمة، لتتفرّع في وحدات جديدة. أحيانًا تبدو هذه العملية سريعة بفعل الفراغ الوثائقي، وأحيانًا تبدو عملية طويلة تأخذ قرونًا من المثاقفة والذبول والانصهار والاندماج والتفرع والاستقلال.

ولعلّ المجموعات الصنهاجية والعربية من غير بني حسان كانت دائمًا تمرّ في أواصر انتماءات جديدة، ولكن هذا يبدو لنا أوضح في الفترة اللاحقة للعصر المرابطي؛ بسبب اقتصاد الحرب والهجرة والفتوحات، وبسبب تشتتها في التحوّلات الاجتماعية المتسارعة؛ مما صعب مواصلة تطورها النسبي في إطار التطور المعياري والعشائري للقبائل القائمة. وهكذا ظهرت وحدات نسبية وقروية

(١) رغم إطلاق «بلاد شنقيط» على المجال، وخصوصًا من قِبل النُخب المُتعلّمة، وبالأخصّ خارج الصحراء، فإنه يبدو أن شعب الصحراء في عصارته الصنهاجية-العربية ظلّ يُطلَقُ صفة «تراب البيضان» على المجال بعمومه، وذلك قبل، وحتّى بعد الاستعمار. ولا يبدو أن هذه التوصفة الدارجة قد اختفت إلّا مع الالتقاء بالمفاهيم الحديثة للدولة، وابتكار مصطلح «موريتانيا» في جملة الالتقاء الرأسمالي الاستعماري.

جديدة. لذا تعتبر فترة الهجرات ما بعد المرابطية مهمة في تكوّن وإعادة تكوين القبائل البيضاوية الحديثة. وبالإضافة إلى هذا العامل، فإن الهجرات الجديدة ضمّت عناصر خارجة على ثنائية الصنهاجيين والزناتيين، السائدة في مجال رؤية المؤرخين والرحالة العرب في الفترة الوسيطة. فمع فترة ما بعد المرابطين ستبرز لنا مجموعات صحراوية عابرة، على الأقلّ خطائياً، لثنائيات صنهاجة وزناتة كما كان مثلاً حال المجموعات التي ستعرف لاحقاً بتركز وبإيداغزيمبو أو الزينبيين، الذين يقال إن أصولهم الأولى قدمت مع أبي بكر بن عمر عندما فضّل العودة إلى الصحراء^(١). وينطبق الشيء نفسه على المجموعات العلمية كمدلش الذين انتسبوا لإبراهيم الأموي، الذي قدم مع أبي بكر بن عامر في عودته، وينطبق على المنتسبين إلى الإمام الحضرمي، القادم بدوره إلى الصحراء في إطار الإمكانيات التي فتحتها الحراك المرابطي، كأهل جدو في قبيلة السماسيد. وهو انتساب يزعمه معهم كل من أهل اتشفاعة حمود في قبيلة تاغنيت وإدواغشاللة في قبيلة إيدابلحسن وشرفة أهل اعلية في بلدة امبود^(٢)، كما ينطبق على مجتمعات الواحات الجزائرية كقبيلة كتنة التي غادرت توات في القرن الخامس عشر لتتأسس في شمال الصحراء بين آدرار وتيرس^(٣).

وبغض النظر عن صنهاجية الجكنيين وما يُقال عن تسيدهم في المرابطين، فإنه يُقال إن كثيراً منهم قدموا من الواحات التواتية ثم استوطنوا «تن انجمارة» قبل أن يهبطوا إلى تنيكي. ومن تابلبالا الواقعة في غرب الجزائر قدمت النواة الأولى لإيدوعللي الذين انتسبوا إلى أصل علوي. وقدمت أيضاً أصول مجموعات انداعمشة التي استوطنت الساحل الأطلسي مع تندغة. وأتت جماعات متعدّدة من المنتسبين لآل البيت، الذين عُرفوا بالشرفاء، وتوطّدوا في ودان وتيشيت. وفي الفترة نفسها أيضاً قدمت أصول مجموعة الأغلال أو الأقال التي توطّنت في

(١) الحسين بن محنّض، تاريخ موريتانيا القديم والوسيط: ما قبل التاريخ إلى الانتشار الحساني، نواكشوط: مطبعة دار الفكر، ٢٠١٠، ص ١٣٨-١٣٩.

(2) Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique, 1, 155.

(3) Le Chatelier, 48-49; Thomas Whitcomb. New Evidence, 2, pp . 410-411.

Le Chatelier, 48-49.

توات لفترة^(١). كما أن القبائل -التي قدمت في إطار تداعيات اعتبرها البعض ملاحم ابن غانية، وهو ما يبدو مؤسّطراً، أو خطأ في الفهم في أسوأ الأحوال (ذلك أن ابن غانية لم يصل إلى الصحراء الموريتانية وإنما الليبية والتونسية) -تطوّرت إلى فئات ستتفرّع إلى قبائل التواوير وأولاد مزوك^(٢). وإضافة لهؤلاء فستزداد الصحراء في القرون اللاحقة بموجات من الهجرات من القبائل القادمة من جنوب المغرب وأكثريتها بربر. وكان ثمة الفارّون والمُستعبدون والمُستلحقون الذين اندمجوا حتّى في الكيانات القبلية القائمة. ومن المحتمل كثيراً أن الوافدين كثّفوا من التحالفات المبنية على أساس ديني ومستقر لتوطيد تعاضدهم ضد المجتمع المعادي لهم.

تُحِيل تواريخ كل هذه المجموعات إلى عمليات هجرة متعدّدة المشارب ومبتعدة عن الأهالي الزناتيين والصنهاجيين المرابطين الصحراويين. وليس علينا بالضرورة أخذ هذه الأيديولوجيا على علاقتها، غير أنّها تُحِيل إلى اشتراب النسابة الصحراويين المتأخرين إلى أصول مغايرة للأصول الأهلية القديمة. بيد أن ما هو موح هو أن أسطورة انتقال المغاربة إلى الصحراء ليست خاصة بأهل الصحراء، بل إن بعض المصادر الأوروبية ظلّت إلى وقت قريب تعتبر أن سكان الصحراء هم أبناء المطرودين من الأندلس^(٣). أما بعض المصادر العربية فتحدّث عن هروب صنهاجي من المغرب قبل ذلك، إلّا أن لا شيء يدعونا إلى الاعتقاد أن بقية الشعب في عرض الصحراء لم يكن هو الأكثرية أو لم يشهد ديناميكيات متسارعة توتّر في هويته وعلاقاته النسبية، وأنه لم يكن يتأثر ويؤثر في الوافدين الجدد ويحتويهم ويمتصّهم كما كان يتطوّر ويتفرّع بديناميكياته الخاصة والذاتية.

لا تنحصر تخيلات الأصل الشمالي لسكان الصحراء فيما بعد العصر المرابطي على التقديّمات الغربية في القرن الثامن عشر أو على السرديات الأنسابية

(١) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ٦٢ و٧٠؛ بن محنّض، تاريخ موريتانيا القديم والوسيط، ص ١٥٤-١٥٥.

(٢) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ٦٨.

(٣) انظر مثلاً الإداري والمستشار الفرنسي في السنغال في القرن الثامن عشر أنطوان برينو دو بوموغروج:

Antoine Edme Pruneau de Pommegorge. *Description de La Negrite*, Amstrdam, 1789, 7-8.

54. Saugier and Brisson. *Voyages to the Coast of Africa*. London, 1792, 13.

البيضانة. بل توجد الصورة نفسها عند بعض الأندلسيين العرب المعاصرين للمرابطين والموحّدين. فيذكر الرحالة والمؤرخ الغرناطي أبو حامد الأندلسي (١٠٨٠-١١٧٠) أن الملك الموحّدي رمى بالمرابطين إلى الصحراء، حيث «طردهم إلى البر وأكلهم الدهر» وأسّسوا مملكة حكموها بقيادة إبراهيم بن عمر التكروري ثم أولاده: داوود، ثم إدريس بن داوود، فعثمان بن إدريس بن إبراهيم، الذي وصفه بأنه كان مرابطًا مجاهدًا^(١). والإشارة واضحة إلى استمرار الصحراويين المرابطين في العمليات العسكرية بعد وقت من رجوعهم إلى الصحراء.

إلا أن التقاليد اللمتونية عند مؤرخ لمتونة، امبارك اللمتوني، تقدّم صورة أقرب للمعقولة؛ إذ يتحدّث عن سيادة الصحراويين الأهليين على أرضهم من خلال السلطة المنحدرة من أبي بكر بن عامر، الذي بقي في الصحراء باعتبارها مملكة، وليس عن سيادة المغامرين والمطرودين الهاربين من الملك الموحّدي. وحسب سرد اللمتوني، فقد استمرّت السلطة الصحراوية رغم عزل ابن أبي بكر بن عمر، محمد، وذلك عندما بايع الصنهاجيون الخطير بن عتبة الذي حكم الصحراء أربعين عامًا^(٢)، واستمر الحكم في أولاده الذين ذكرهم المؤرخ اللمتوني تتابعًا: عتبة بن الخطير (ستون عامًا) ثم ابنه بشار (ثلاثون عامًا) ثم ابن هذا، الملقب «أنة». ولكن عهد السلام والحكم المستقرّ في سلالة واحدة سرعان ما انقلب إلى قلاقل بعد عشرين سنة من حكم محمد البنبري اللمتوني، وبقيت السيادة بين مراكز قوى هي عبارة عن أربعة رجال أكثريتهم من لمتونة^(٣). ولاحقًا ستفرّع من هذه الأسرة الأميرية المخلوعة عائلات في قبائل إيديشلي ولماتونة- بل ويخمن دارسون، على ما في ذلك من قولٍ بالأب المشترك- أن الأمير المستقل هو جدّ كل القبائل المنحدرة من لمتونة كإيديشلي وإيدوعيش^(٤). وتقدّم أرجوزة تاريخية

(١) أبو حامد الأندلسي، عجائب المخلوقات، مقتبس في: المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا:

التاريخ السياسي، ص ٥٨.

(٢) نفسه، ص ٥٧.

(٣) نفسه.

(٤) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ٧١.

مجهولة المصدر معلومات شبيهة عندما تتحدث عن انتماء الأسرة اللمتونية إلى أولاد يحيى بن عمر بدلاً من أخيه، ثم تعطي التسلسل الأميري نفسه الذي انتهى بقلقل تفرّع منها نبلاء لمتونة إلى ثلاثة آباء مؤسسين: بيلك (جدّ إيديليك)، وابن الأمير عمار (جدّ لمتونة بكيهيدي)، والعلوي (الذي يتساءل نوريس إذا ما كان الحاج عليّ الوداني، جدّ قبيلة إيدوعلّي)^(١).

يبدو من هذه الصورة أن قوى الصحراء العتيقة ظلت مهيمنة على زمام الأمور في الفترة السابقة لسيطرة بني حسان دون أن تخضع للمطرودين من الشمال كما اعتقد أبو حامد، صاحب المركزية الأندلسية. ومن الواضح أن التجمعات المحاربة كانت مصدر جزء كبير من السلطة في الصحراء؛ فقد كان المرابطون، سواء من هاجر منهم إلى الشمال أو من بقي في الجنوب، حركة عسكرية غالباً. وفي العقود السبعة في الأندلس والمغرب لم يتحوّلوا إلى إقطاعية زراعية، بل بقوا دوماً أرستقراطية عسكرية متعالية فتوزّعوا على العمل الإداري والعسكري بصفّتهم طبقة نبلاء اعتيادية. ولئن كانت بعض المصادر رأّت أنهم نزلوا للصحراء عندما فشلت محاولاتهم الكثيفة في العمل العسكري ضدّ الموحيين، فإنها بهذا لم تحدّ عن تصوّر النظام الصحراوي خارج النموذج المرابطي. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الطبقة الصحراوية ظلّت تحوي رجالاتها المحاربين وطبقتها الغارمة التي ظلّت جزءاً أساسياً من الصحراء، ومن الصّعب تخيّل أنها خضعت للعائدين بدلاً من أن تمتصّهم وتحتويهم في أساليبها.



على أن الموحّي هو أن فترة الغموض هذه هي الفترة التي ترجع إليها كثيرٌ من الأنساب الصحراوية وحكايات التأسيس فيها. فمع القرن الثالث عشر نرى التجمعات اللمتونية القديمة تتطوّر إلى قبائل عدة كما توحى به ميثولوجيا تفرّق القوى المنحدرة من القواد الأربعة بعد القلاقل التي تحدّث عنها المؤرخ اللمتوني. ولا شك أن الأمر يتعلّق بحكايات التأسيس الذائعة لدى القبائل الصحراوية، التي يجمع الكثير منها ترسيم الآباء المؤسسين للقبائل وترسيم أصول

(1) Norris. *Sanhaja Scholars of Tinbuktu*, 634-635.

القبائل والتجمعات. وهذه هي فترة بروز القوى الصغيرة، المختلفة اسمياً عن القبائل الصنهاجية المعروفة لدى ابن حوقل والبكري، وانتشارها في مجال تيريس وآدرار وتكانت والساحل الغربي. ففي تكانت ظهرت مسميات جديدة من الأنباط ومن بخواكة الذين انتسبوا إلى لمتونة، والذين سيتفرعون لاحقاً إلى قبيلة إيدوعيش المقاتلة. وفي آدرار ظهر فرع أميري مستقل من لمتونة من قبيلة إيدغشاشيجتي. ولكن أهم القوى ما بعد المرابطية، وعلى الأقل أكثرها ذكراً، كانت إيدوكان في الشمال، التي ستعرف لاحقاً بأبدوكل، وانيزي في الساحل الغربي. وبطبيعة الحال، فهذه تكتلات غامضة لا توجد غالباً مصادر معاصرة لها تُبلغ عن كنهها. ورغم أن انيرزيك هي الاستثناء لهذه القوى، إذ تُبلغنا عنها المصادر البرتغالية المعاصرة لها، كما رأينا سابقاً؛ إلا أننا لا نعرف على وجه الدقة هل هي طليعة حسّانية (من أولاد رزك ربّما)، أم أنها عشائر صنهاجية. يذهب من يقول بالاحتمال الأخير إلى أن انيرزي كانت تكتلاً صنهاجياً كبيراً ستفرع منه لاحقاً قبائل انكادس وأهل يوسف وأهل يفرج الله وأهل نيار وأهل المختار غالي وتغرجنت ولخابشة وإيدغمحم وإدغبانو^(١). أما تجمع أبدوكل، الذي يُبلغنا عنه الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيد المختار الكنتي، فربما نبع من اتحاد صنهاجي جديد -شبيه بالاتحاد الصنهاجي الذي أفرز حركة المرابطين- كما يدل عليه الاسم الذي يعني التوحد أو التكتل. ويبدو أنه ضمّ قوى دينية وأخرى عسكرية على غرار النموذج المرابطي الأول. وقد اعتبر اللاحقون أن النواة الأولى لكثير من القبائل المتعلّمة قد التحمت تحت ظلّ أبدوكل كإيدكجمل وتاكاط وإيجكوجي، المنحدرين من إدنان^(٢)، التجمع الصنهاجي الذي كان قوة مهمة في القرن الثاني عشر عندما توّغلت عناصره إلى الجنوب السوداني واستطاعت تأسيس تمبكتو في عام ١١٠٠^(٣).

(١) ولد السالم، في: موسى كمرا، تاريخ قبائل البيضان، ص ٥٩.

Whitecomb, Evidence, 1, 115-116.

(٢) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ٧٩.

Whitecomb, Evidence, 1, 115-116.

(3) Norris, The Conquest, 247.

وعلى العموم، فإن ما نلاحظه في هذه الروايات هو تداخل بين الكيانات المرابطية القديمة والقبائل البيضانية الحديثة، فيما يُشبه عملية المخاض النسبي. وغالبًا ما تتعلّق قصص الأنساب بصناعة تواريخ جديدة، وفي الوقت نفسه بسرديات الديمومة والأصالة. وهكذا نجد، على غرار قصص نمو القبائل البيضانية في التجمعات المرابطية أعلاه، قصصًا شبيهة عن نمو قوى مرابطية في ظل اتحاد أبدوكل كتاشديت وبني غيجيه الذين ينتمي لهم فرع من قبائل الطوارق هم أولاد ماغوغ بن حافث^(١). ونجد في هذه السرديات عن كيان أبدوكل التأسيسي دورًا روحياً جاهزاً لقبيلة إيدولحاج، ومختلفاً عن الأدوار العسكرية لبقية مكونات الحلف^(٢). وربما تمّ التضخيم من شأن إمارة أبدوكل، التي تحدث عنها مؤلف الرسالة الغلاوية، ولكنه نظر إليها على أنها امتداد للمرابطين، بل إنه سمّاها بالمرابطين، بما يعنيه ذلك من هيروقراتية دينية عسكرية. وعلى العموم، فمن الممكن الإحالة إلى قبائل موريتانية كثيرة منسوبة إلى المرابطين وصنهاجة، ويتعلّق الأمر غالباً، كما يُنبّه عبد الودود ولد الشيخ، بـ «لمتونة ومسومة وتجكانت وإيديليك وإمدّم وانجمارة وسيبك وأبدوكل وتاشديت وتندغة وإيدولحاج». إلخ^(٣).

فترة أفول المرابطين الأوائل كانت، تماماً كالفترة التي سبقتها، فترة توزّع فيها المجتمع الصحراوي بين المجموعات المحاربة وتلك المزارعة والمتاجرة. وربما لم تؤسّس القبائل المحاربة سلطة ترابية كبيرة مانعة للتغلغل إلى الصحراء كما اعتقد بعض المؤرخين، بل تواصلت الهجرات طوال العقود اللاحقة للعهد المرابطي؛ ففي القرن الثالث عشر وصل المحاجيب إلى المجال، مرتجلين أيضاً من توات. وقد قاد هذه الهجرة جدّهم، يحيى الكامل، الذي كان من أعيان المحاجيب. كان يحيى سِجلماسياً واستوطن لفترة في توات كغيره من أسلاف بعض قبائل الصحراء. ولكنه اختلف عن كثير من المهاجرين في أنه لم يتوقّف

(1) Norris, The Conquest, 28; Evidence, 1, 115-116.

(٢) ولد السالم في: مقدمة موسى كمر، ص ٥٢.

(3) Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique , 1, 158.

عند وسط البلاد أو شمالها، بل توغل في الجنوب حتى ولاتة فكان المحاجيب أول من سكنها من البيض، حسب المختار بن حامد. وهنالك انتظموا في إطار قبيلة واحدة بعد أن كانوا ثلاث قبائل، وبدأوا يتنقذون فيها. وعلى مدى القرون اللاحقة سيدخل كثيرون الصحراء بقبائلهم المتعددة أو بالنواة الأولى لهذه القبائل، بما فيها المحلات الحسانية، التي لم يكن دخولها صامتاً دوماً، والمجموعات التي قدمت في إطار التحالفات العسكرية بين الشمال المغربي والجنوب الصحراوي كالرحالة والبيدات وأولاد اركيك^(١)، إلى المجموعات الكبيرة القادمة من المحلات المغربية التي أصبحت جزءاً من القبائل القائمة قبلاً، إلى المجموعات التي نزحت من جنوب المغرب إلى الساقية الحمراء ثم إلى تيريس في إطار الصراع مع المخزن المغربي أو بسبب البحث عن المسارح الآمنة في فترة القرنين السابع عشر والثامن عشر، كالرقيبات وتكنة وأولاد تيدرارين^(٢) وأولاد بوسباع^(٣).



تمتلك معظم هذه المجموعات تاريخاً شفاهياً حول آبائها المؤسسين وأصولها، الشريفة أو القرشية غالباً، وتواريخها الملحمية. ولكن المسكوت عنه هو عملية صناعة القبائل من دون ميثولوجيات الصحراء التمجيدية. والشيء الذي يغيب دوماً من روايات الأصول الصحراوية هو عوامل الاندماج والإخصاب والإنتاج وكتابة التاريخ بأثر رجعي، ودور التحالفات والتجمعات القروية والسياسية وآليات الإلحاق والاستدخال في صناعة القبائل. غاب كذلك بالتصريح، وإن بقي بالتضمن، كيفية تحوّل المجالس العلمية والاتحادات التجارية والسياسية إلى قبائل ذات هويات تصنع أنساباً متخيلة حول الأب المشترك وروابط الدم. وغاب من هذه الصورة نزوع هذه الفئات إلى الكصور وتحولها إلى قبائل مستقرة في

(1) Le Chatelier, 59.

(2) Sophie Caratini, *Les Rgaybat 1619-1934: des chameliers à la conquête d'un territoire*, Tome 1. Paris: L'Harmattan, 1989, pp 47-67.

(3) Hodges, Historical, 265;

محمذن ولد باباه، نصوص، ص ٨٧-٨٨؛ بن محنض، تاريخ موريتانيا القديم والوسيط، ص ١٩٣-١٩٤.

المدن الصغيرة. وربما كانت كيانات الاتحادات التجارية السياسية والمصاهرات والاندماجات النسبية، هي الأكثر استعدادًا لتأسيس الحواضر بفعل طبيعة عملها، إضافة إلى أن معظم هذه المجموعات قدم أو ارتبط بثقافات الواحات التواتية كإيدو علي والأقال وتجكانت وكننة والمحاجيب ومدلش^(١). وهكذا شهدت الفترة اللاحقة للمرابطين تأسيس الحواضر الصغيرة كشنقيطي (يوجد اسم شنقيط أيضًا في الواحات الجزائرية) وتيشيت ووادان، وغيرها، وسرعان ما أصبح لهذه التجمعات هويات قبلية واضحة.

ولعلّ أهمّ التحولات النسبية في الصحراء هو تعرّبها الحثيث في العهود ما بعد المرابطيّة. ومهما اختلفت ديناميكيات الأنساب ما بعد المرابطية في الصحراء، إلّا أن بها ميلًا غالبًا إلى زعم نسب عربي والتخلّص من أنساب البربر (أو تعريب نسخها الصنهاجية) التي كانت سائدة بلا مشاكل. وتنتسب بعض المجموعات التي قدمت مع أبي بكر بن عمر إلى أصول أموية وعلوية، كتركز وإيداغزيمبو. ولاحقًا قدمت مجموعات عربية في إطار ما اعتبر فرارًا من نير الموحدين. وصحيح أن تعريبًا نسبيًا ربما طبع حياة المجتمعات العلمية النخبوية التي تشكّلت أساسًا من الرباطات العلمية، فقد كان الإمام الحضرمي عالمًا ومؤلفًا كبيرًا وقد نشأ وترعرع في القيروان، العربية آنذاك، وكان قاضيًا بأزوكي وقد قدم مع أبي بكر بن عمر أيضًا. وسرعان ما تحوّل المجتمع العلمي بأزوكي إلى مجالس علمية، ومن المحتمل جدًا أنها تحوّلت إلى قبائل. إلّا أنّ التعرب لم يكن يعني العروبة العاربة، بل كان يعني العروبة المستعربة: ولم يصبح هوية أصلية قبل أن يصبح عملية اجتماعية كبيرة مع سيطرة الحسانيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

على أننا نشاهد إرادة تعرب نسبي وربما ضئيل في الصحراء قبل قدوم بني حسان، حيث يبدأ ظهور الأسماء العربية بشكل ملحوظ، وإن لم يكن مسيطرًا.

(١) يذكر البعض أن مجموعات عرقية عدة من الجداليين والهواريين والزناتيين والغرامنت التّأمت في هذه المجالس مشكلة قبيلة مدلش. انظر: الحسين بن محنّص، تاريخ موريتانيا القديم والوسيط: ما قبل

التاريخ إلى الانتشار الحساني، نواكشوط: مطبعة دار الفكر، ٢٠١٠، ص ١٤٦-١٤٧.

ومن ذلك أن أسماء نبلاء صنهاجة قد عربت قبيل -ولكن بالتأكيد بُعيد- العهد المرابطي، مثل: الخضير، بشار، عبد المومن، وهي أسماء أميرية مذكورة في عداد أمراء المنطقة في هذه الفترة كما رأينا؛ وستبدأ الأسماء الصنهاجية القديمة التي كانت بارزة، مثل: كونكي وسيلا وزالوي وزيلاو ويالوتان وباروتان ووكاك، وأنظارها في الاختفاء وخصوصًا في منطقة التجارة من آدرار إلى ولاتة، وإن بقيت الأسماء الصنهاجية الصرفة موجودة بعد ذلك، وخصوصًا في الجنوب الغربي حيث هاجرت عناصر مهمة من الفئات الإدارية في القرن السادس عشر مستصحبةً معها أسماءً من نوع: بهنضم وإيدوبك وأوبك وأمغار. . إلخ. بل ومن الواضح أن اللغة المنطوقة في معظم المجال بقيت لفترة، حتى القرن الثامن عشر، لغة بربرية أو أزيارية؛ وكانت المجموعات الطوارقية تعيش بشكل طبيعي بين أبناء عموماتها الصنهاجين كما كان حال بني غيجيه وكل إندان وغيرهم.

ولكن رغم تسلل عناصر تعريبية إلى حياة الصحراء قبل مقدم المعقل (إذا اتخذنا الأسماء والمجاسل العلمية دليلًا)، إلا أن التعريب المطلق لن يصبح حقيقة اجتماعية قبل السيادة المطلقة للقبائل الهلالية القادمة من الشمال، التي ستبسط نفوذها بشكل يكاد يكون مطلقًا ابتداءً من القرن السابع عشر، وبدأت في التغلغل في البلاد شيئًا فشيئًا قبل هذه الفترة وطوالها. وربما كنوع من تقبل ثقافة الوافدين بدأ المجتمع الصنهاجي القديم يعيد تأويل أنسابه إلى أصل عربي. وقد حدث هذا من وجهين: انتسبت المجموعات التواتية والقادمة لاحقًا من جنوب المغرب إلى أصول قرشية وشريفية، بينما بدأت بقية القبائل الصنهاجية واللمطية في تعريب أصولها.

وتعود عملية الانتساب الجماعي والمتزامن للعرب إلى ما قبل السيطرة الحسانية على الصحراء؛ إذ سادت أسطورة عروبة البربر وانتسابهم لحِمْير^(١)، ووجدت طريقها إلى كتابات الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والبيهقي. وقد فندَّ ابن حزم في «**جمهرة أنساب العرب**» هذه الأطروحة، باعتبار أنه لا يمكن إثبات هجرات حميرية إلى منطقة المغرب، وباعتبار أنه لا يوجد

(١) يسميها نوريس بأسطورة العلماء أو scholars myth.

أصلاً ابن لقيس عيلان بن حمير اسمه بر، الذي ينتسب له البربر «إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن»^(١). ويكمن اضطراب الصورة القائلة بعروبة البربر في ميكانيكيّتها؛ ذلك أن ابن خُرَدَازِبَه مثلاً الذي تحدّث عن هذا الأصل وتلك الهجرة من فلسطين إلى المغرب، بقي مُصِرّاً على أنهم كانوا بربراً في الأصل بتكويناتهم القبلية من صنهاجة ومصمودة وزناتة ولمطة^(٢)، وهو ما يوافقه فيه صاحب الاستبصار^(٣). وهو المنطق نفسه الذي انتقده ابن خلدون وردّ على من قال بعروبة البربر، واعتبره من «ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة»^(٤). وكان ابن خلدون على وعي بأن نسبة العروبة للبربر هي أسطورة من المركز العربي لا تعتمل في أوساط البربر، فختم حديثه عن نسبة البربر إلى اليمن، قائلاً إنه «تأباه نسبة البربر، وهو الصحيح»^(٥). وهو التفنيد نفسه الذي يوافق عليه الناصري المتأخّر^(٦).

إلا أن صنهاجة الصحراء ونسابتهم في فترة تشكل المجتمع البيضاني لم يعودوا يأتون عن الانتساب للعرب بعد تغلب العرب وارتباط الصنهاجة بالآزنكة، وبدا أنه من مصالح المجموعات الصنهاجية النبيلة ممايزة نفسها عن الملحقين من بقايا الصنهاجيين. وحتى في المناطق التي بقي فيها المنحدرون من الإمارات الصنهاجية الصغيرة على استقلال وبقوا معترفين بأصلهم الصنهاجي، فإنهم بقوا يربطونه بالعروبة. وفي القرن الثامن عشر سترى الفنان التمجيدي، سدوم ولد انجرتو، يشير إلى أحمد، أمير إيدوعيش، في قصيدة الرسم بأنه «أمير للعرب»،

(١) أبو محمد علي بن سعيد ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٨، ص ٤٦١.

(٢) أبو القاسم عبد الله بن عبد الله ابن خردابة، المسالك والممالك، ليدن: بريل، ١٨٨١، ص ٩٠.

(٣) الاستبصار، ص ٤٢.

(٤) ابن خلدون، ج ١ ص ٩.

(٥) نفسه، ص ١٢.

(٦) الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٢:

الدولتان المرابطية والموحدية، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء: دار

الكتاب، ١٩٥٤، ص ٣.

وأَمِيرٌ «للأنباط وانيرزيگ» في الوقت نفسه^(١)؛ كما سيعتبرُ غزافيه كو ولاني، المٌهندس الفرنسي للاستعمار الفرنسي موريتانيا في مطلع القرن العشرين، أن إيدوعيش عرب^(٢). أما أنساب البربر في الصحراء في بقية القبائل فستختلفي غالبًا وسيتمّ التمييز بين الملحقين والأحرار من القبائل التي آوتها الرباطات والزوايا.

وصحيح أن قبائل في الصحراء سبقت مقدم بني حسان كانت تنتسب لأصول عربية وأحيانًا شريفية، ولكن أكثرية القبائل في الصحراء انتسبت إلى أصول شريفية أو أنصارية من دون أن يتعلّق الأمر بهجرات جماعية إلى الصحراء، بل هي تحيل دومًا إلى أصل واحد مشترك من خلال جدّ مؤسس. وفي غالب الأحيان يتعلّق الأمر بأصول شريفية أو أنصارية. وينتسب للأنصار كل من إيديوسات وتاكّاط وأولاد أهل الحاج عثمان والصيام من أيدولحاج. ولقريش تحيل قبائل كثيرة نسبها، كمدلش وإيداغزيمبو وكننة وتركز ولمحاجيب والأقلال وأولاد ديمان وإيدابهم وإيداشفاغة وإيداغبهني وإيدواي وإيديقب وأهل باركللة. أما إلى النسب الهاشمي الشريف فتنتسب سلالات وقبائل واسعة قادمة من سلاسل نسبية مختلفة. ويتعلّق الأمر عمومًا بمجموعات الشرفاء المختلفة والموجودة متفرّقة في قبائل كثيرة، كما يتعلّق بالقلاقمة وأولاد اتشفافة وأهل كَنار وإيكمليلن والسماسيد وإيدوعلي وإيداشغرة وإيدكجمل والرقيبات وأولاد بوسباع وإيدابلحسن وإيداوبلال وتاكّيت وغيرهم^(٣).

ومن الأرجح أن كثيرًا من الأنساب قد وُضعت أو تُخِيلَت لأغراض تتعلّق بالصعود الاجتماعي والتخلّص من أصول البربر وكتابة أخرى شريفية. وقد لاحظ الباحث توماس وايتكومب في دراسته لعملية صناعة الأنساب تناقض الأنساب عند نسابة الصحراء. فبينما ترفض السلالة النسبية عند نسابة كننة -مثلًا لا حصراً- نسبة إيديقب من إيدولحاج إلى يعقوب بن عقبة وتنسبهم إلى يعقوب يبني، فإن الآخرين يتشبّهون بالزعم بالانتساب إلى عقبة. ويلاحظ وايتكومب تناقضًا في

(1) Norris. Shinqiti Folk Literature and Songs. Oxford: Clarendon Press, 1968, p. 78-80

(2) Xavier Coppolani, Mauritanie Saharienne: Novembre 1903 a mai 1904, Paris: L'Harmattan, 1999, 100.

(3) Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir, 1, 217-230.

مزاعم القبائل من خلال مقارنة كتابين في الأنساب للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي هما: الرسالة الغلاوية وكتاب التلائد من كرامات الشيخين والوالدة والوالد. ويخلص وايتكومب إلى أن عملية صناعة واسعة للأنساب قد خضعت لها قبائل الصحراء في فترة القرنين الخامس عشر والسابع عشر. ويرجّح وايتكومب، قياساً على أنساب كنتة، أن تكون الأنساب الشريفة عند إداغزيمبو وإدوعلي -الذين يخمن أنهم قد يكونون أولاد أياو- قد تكونت حديثاً؛ والشيء نفسه عن حيميرية تجكانت (وبالتالي قد ينطبق الأمر على أقربائهم القرييين كمسوفة وإيدولحاج والتافلات) وإديشللي وأنكادس ولمتونة وتامغونة (المنسوبين إلى مسوفة)^(١). وتُشاهد عملية التضارب في الأنساب القديمة مع الأنساب الجديدة، التي اعتبرها وايتكومب دليلاً على اختلاق الأنساب، في معظم الوثائق المختلفة المكتوبة التي وصلتنا عن أصول القبائل. فمثلاً ينتسب إيداغزيمبو لأصول أموية رغم أن وثيقة لاحقة، أو سابقة، في مكتبة أهل حبت بشنقيطي تنسبهم إلى زينب بنت علي بن أبي طالب^(٢).

وتُشاهد عملية تضارب الأنساب في أصول بعض القبائل القادمة من جنوب المغرب. ففي القرن الرابع عشر وصلت قادمة من تارودانت عناصر أولية مما سيعرف لاحقاً بتشمشة في إطار هجرة بربرية^(٣). ويبدو أن هذه النواة مارست أولاً حياة حرابية، ولكن تشكلها القبلي النهائي لن يتم إلا بعد دخولها في المجتمع العلمي الذي أسسه المرابطون في آدرار، وهو المجتمع الذي تطوّر إلى وحدة قبلية هي المجالسة أو مدلش. وحسب فلكلور تشمشة، فإن الأمر بدأ عندما قامت جماعة هائمة من أسلافهم بالحووم ذات ليلة حول مجموعة مدلش المتعلمة بغرض نهيبهم، وتسَلَّل جريء منهم وبقي يرصد مدلش ويستمع لما يقولون من الدروس الدينية فحفظها، وكان صاحب قريحة حفظية سريعة، وعندما عاد إلى أصدقائه قام بسرد الدرس الذي سمع فأثار الوعظ في نفوس أصدقائه، الذين

(1) Whitcomb. New Evidence, 2, 123.

(٢) بن محنض، تاريخ موريتانيا القديم والوسيط، ص ١٣٨.

(3) Paul Marty. L'Emirat des Trarzas. Collection de la revue du monde musulman. Paris: Editions Ernest Leroux, 1919, p. 12.

قرروا الدخول في المجالسة والانتماء لمجتمع الزوايا الوليد هذا^(١). وحسب هذه الصورة، فسيصبح التشمشيون منذ تلك اللحظة نواة الزوايا وإحدى مجموعاتهم المترسّخة في العلوم والحفظ، وسيكسبون هوية زاوية علمية إلى اليوم. ورغم ميثولوجية هذه الرواية، إلا أنه يمكن فهمها إحالةً أو أسطورة للإندماج التشمشي في المجتمع العلمي الذي كانوا خارجين عليه.

لاحقًا سيظهر نسب التاشمشين القادمين من تارودانت بأنهم ينتسبون إلى أبي بكر الصديق، وأيضًا إلى عيسى الممتوني، المنتسب إلى لمتونة ومن لمتونة إلى حمير، القبيلة العربية القديمة التي عاشت فيما قبل الإسلام في اليمن ونواحيها. ولقد ظهرت هذه العلائق النسبية، على تضاربها، في خريطة نسابي القبيلة، سيدي أحمد ولد اسمه، في وقت كان فيه التشمشيون يتعرّضون لهجمات حسان، المنتمين إلى حمير. ويُخمن المؤرخ نوريس أن الانتماء إلى حمير -ولو على حساب التناقض التاريخي بربطه أيضًا بأبي بكر الصديق، الذي كان ينتسب إلى تيم الله من قريش- كان مفيدًا ضد العداء الحساني^(٢).

ومن المهمّ النظر إلى علاقة إعادة كتابة الأنساب القبلية بمواءمة أنماط الإنتاج وتداخلها. ولفترة بقي امتصاص المجلسيين للتاشمشين امتصاصًا موسميًا، حيث «إذا رحل المجلس إلى أرض التل تخلف عنهم تشمش في الغبلة حتى يرجعوا إليه»، كما تقول الرواية^(٣). ولم تكن المجتمعات العلمية وحدها هي من امتصّ القبائل الوافدة أو إن القبائل القارة امتصّت القبائل الرعوية؛ ففي آدرار، حيث تكوّنت نواة كثير من القبائل البيضانية في الفترة المرابطية الصحراوية وما بعدها، أُفسيح المجال لقبيلة إيداغشاشيتجي لمتص الهجرات الصغيرة من القبائل الحسانية كأولاد الناصر والبرايش التي تقاطرت بشكل تدريجي إلى آدرار. ولاحقًا سيظهر هذا الامتصاص في مسمى قبلي جديد هو إيديشلي، رغم أن نواة هذا التجمع

(١) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب، ص ٣٩.

(2) H, T. Norris. Znaga Islam During the Seventeenth Centuries. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, vol 32., 496.

(٣) اليدالي، شيم الزويا في: نصوص، ص ٧٠-٧١.

كانت لمتونية أساساً^(١). وفي الجنوب في القرن الثالث عشر فما بعده، استقبلت ولاتة هجرات المسوفيين القاطنين في غانة الذين هربوا من السوسو وتزاوجوا مع العرب والزنج، مغيّرين من التركيبة الصنهاجية الأولى ومنتجين مجتمعاً مسوفياً مستعرباً^(٢).

لا يقترح هذا البحث أنه لا أصول شريفية أو قرشية أو أنصارية أو عربية للمجموعات التي زعمتها، وإنّما يقترح أن جلّ هذه القبائل هو السواد الصنهاجي من السكان الأصليين، وأن تواريخها النسبية اعتمدت على التعيم على الهويات الأصلية. لقد انتسب العلويون إلى البلبابي الذي كان شريفاً في تلمسان، إلا أن هذا ربما لم يمنع أن ينهض تشكّلهم في الصحراء متلاحماً مع المجموعات الصنهاجية، كمعظم التواتيين القادمين إلى الصحراء أو بعض نبلاء الصنهاجيين المقيمين بها. وتنسب بعض التقاليد رجلاً مؤسساً باسم العلوي إلى المجتمع الصنهاجي الذي تكون من أعقاب يحيى بن عمر، عندما تأمّر المجتمع اللمتوني وصدّر منه أجداد لمتونة وصدّر منه رجل اسمه العلوي، ويتساءل نوريس ما إذا كان هو الحاج علي، جد إيدو علي^(٣). والشيء الذي يمكن الجزم به هو أن عناصر قدمت من الجنوب الجزائري في هذه الفترة، فمن تلمسان التي انتسب إليها العلويون إليها فرّ أنجمار في تلك الفترة إلى الصحراء حيث يُقال بأنه أصبح من أجداد قبيلة تندغة. وينطبق الشيء نفسه على الحجاج والشرفاء الذين قدموا إلى الكصور في ودان وتيشيت، وهم منتسبون إلى أصول شريفية، ولكنهم تعايشوا مع المجموعات المسوفية الصنهاجية، وامتزجوا معها^(٤). وتزامناً مع عملية كتابة الأنساب تغيّرت أسماء القبائل، فتحول دبويهاش إلى إدابلحسن، وتحول دق تيجنت إلى تجكانت، وتحول إيدودر إلى إيدوعيش^(٥).

ربما ليس هنالك سبب للاعتقاد أن الفترة اللاحقة لمقدم بني حسان كانت

(١) ولد السالم، تاريخ موريتانيا: العناصر الأساسية، ص ٧٦.

(2) Lechatelier, 46.

(3) Norris. *Sanhaja Scholars of Tinbuktu*, 635.

(٤) بن محنض، تاريخ موريتانيا القديم والوسيط، ص ١٥٤-١٥٥.

(5) Whitcomb. *New Evidence*, 2, 123.

مفرقًا في تشكّل هويات القبائل الصحراوية، وربما كانت الديناميكيات نفسها عاملة قبل مقدم العرب الحسانيين وخصوصًا إذا تذكّرنا أن المرابطين في الصحراء ساهموا في خلق مجتمعات وهويات جديدة، غير أننا نمتلك توثيقًا أكثر دقة على تغيّر المجتمع الصحراوي وتشكّله في القرون التي أعقبت القرن الرابع عشر. ويمكن إجمال هذه الصيغ في عمليات التوحد والاندماج والإدماج والمكاتب والإلحاق.



لم يندر في الصحراء توحد كثير من القوى غير المتجانسة في جسم قرابي واحد، ومن ثمّ تطورها إلى قبيلة واحدة. ولا يُشدّد الفولكلور على هذا، وإن كان يحضّر في بعض الروايات التأسيسية. ففي فترة بناء المدن التجارية نجد أنّ تحالف الآباء المؤسسين يشكّل دومًا مجتمعًا مدنيًا تجاريًا. وربما تعلّق الأمر بتكثيف القوى والجهود في سبيل الدفاع والتجارة المشتركتين. وهكذا في ودان نجد مجموعة رجال أوائل يؤسسون مجتمعًا في القرن الثالث عشر. وهذا المجتمع الأول هو نواة إيدولحاج الأولى في ودان، التي قدمت إليها مجموعة من الحجاج في عام ٥٣٥ هـ (ح. ١١٤١م)، ويبدو أنهم امتزجوا مع سكان المدينة من البافور وأفخاذ مسوفة: تفرلة وتامغونة وتيريس، التي تمّ امتصاصها في المجتمع الجديد الذي لعب الحاج يعقوب، جدّ إيدولحاج، والحاج اعلي، جدّ إيدولحاج ولوتيدات، أدوارًا تأسيسية فيه. وقد تكوّن هذه المجتمع الجديد في إطار نسخة جديدة عرفت بالحجاجين أو الحجاج وضمت العناصر اللمتونية كلوتيدات وعناصر أولاد الحاج والصيام^(١).

ومن الواضح من هذا أن فولكلورات التأسيس في الصحراء تجاهلت الاندماجات الاجتماعية لصالح قصص عن آباء مؤسسين شبيهة بقصة آدم أو الإنسان الأوّل دون اعتبار -أو بتهميش- المشاركة الجماعية في التأسيس. ورغم أن قصص التأسيس في تيشيت تحيل إلى تزاوج الوافدين العرب مع

(1) James Webb. *The Evolution of the Idaw al-Hajj Commercial Diaspora*, Cahiers a" Etudes Africaines. 1995, 35, 2-3(138-139), 457.

مجموعة أماسنه السودانية، إلا أن معظم قصص التأسيس الأخرى تميل إلى نموذج أبي الأمة وأبي القبيلة، الذي انبثق منه مجتمع متماسك ووافر ونقي. وهكذا نسمع قصة الشخصيات التأسيسية التي تحلقت حولها المجتمعات وبدأت تنتسب لها: أحمد قلي، جد الأقال، أو يحيى العلوي، الجد الجامع لإيدوعلي، أو شمس الدين، الجد الجامع للشماسدة أو السماسيد، أو جكن أو جاكير، جد تجكانت.. إلخ.

ولم تكن قصص الآباء المؤسسين للقبائل مجرد أيديولوجيا القرن الثالث عشر، بل كانت موضوعاً ميثولوجياً وفلكلورياً ثابتاً في تواريخ القبائل الصحراوية حتى تلك التي قدمت منها في القرون القريبة؛ فينتسب أولاد بوسباع إلى أب مؤسس هو سيدي عامر الهامل الذي عاش في القرن الخامس عشر وانتسب لأصول إدريسية شريفية. ويحيل توني هودجس -الذي يشير إلى قصة النشوء هذه باعتبارها أسطورة- إلى أول إحالة للقبيلة في حوليات العروسيين، وذلك بصفتهم أعداء لهم أرسلهم الملك المغربي للقضاء عليهم. إلا أن أول ظهور اجتماعي للقبيلة كان في القرن الثامن عشر عندما وصل إلى الساقية الحمراء أولاد إبراهيم، مهاجرين من اضطهاد المخزن المغربي وبقوا لفترة في الساقية الحمراء قبل أن يهاجروا إلى تيريس، التي قهرها بها أولاد قندوس وأصبحوا قبيلة قوية ممتنعة ومتاجرة بين الشمال والجنوب^(١). وتشاهد ميثولوجيا التأسيس هذه أيضاً عند قبيلة اركييات -التي يرجّح الباحثون أنها قبيلة صنهاجية كلية- ولكنها تنتسب لأب مؤسس ذي أصل عربي شريف، هو سيدي أحمد الركيبي الذي قدم من فاس في بداية القرن السادس عشر إلى الساقية الحمراء، حيث تزوج وأنجب أولاداً ثلاثة أنتج كل منهم بطناً من بطون القبيلة الثلاثة: اركييات الساحل، واركييات الشرق المعروفين بالقواسم^(٢). وتشاهد أسطورة الأب المؤسس أيضاً عند العروسيين المنتسبين إلى شخص سيدي أحمد العروسي المنتسب إلى الرسول ﷺ والذي عاش في القرن السادس عشر. وحسب الأسطورة، فقد قدم هذا الولي الصالح

(1) Hodges, Historical, 265-266.

(2) نفسه، ص ٢٩٦-٢٩٧.

من تونس إلى المغرب التي دخل فيها نزاعاً مع السلطان ثم خلف ثلاثة أولاد أصبح كل منهم أباً لأحد أفخاذ القبيلة الثلاثة: أولاد بومهدي، وأولاد خليفة، وأهل سيدي إبراهيم^(١).

ليس هذا للقول إن هذه الشخصيات التأسيسية وهمية؛ وإنما أنه ستتم أسطرتها لاحقاً واتخاذها نقطة ابتدائية في التاريخ وفصلها من علاقاتها الاجتماعية التاريخية. مثالاً على هذا هو شخصية الشريف بُزُؤُون أو ذو الشدي، الذي كان رجلاً متدينًا هاجر من بلاد الهاوسا (نيجيريا) إلى «أرض الغبلة» في جنوب غرب موريتانيا، حيث يُقال إنه كَوّن مجتمع أهل كَنّار في تيگمّاطين حوالي ١٥٧٨-١٥٨٨. وكغيرها من القصص التأسيسية، فإن هذه السردية تتناسى الوجود الأقدم للمجتمع المنسوب للأب المؤسس؛ ذلك أن مجتمع تيگمّاطين قامَ على أنقاض مجتمع امبول حيث كانت قرى المزارعين السود الذين اندمجوا في تيگمّاطين، التي تحولّت إلى قرى كثيفة وبدأ سكانها السود في الانتساب للرسول ﷺ^(٢). أما «فال» المنتمي إلى الشريف بُزُؤُون فستنحدر منه مجموعات في القبائل، كالسماسيد وأولاد أتشفغ حَيْبَلَلَّة الذين سيصبحون لاحقاً جزءاً من تشمشة، وسينتمي له إيداشغرة في ايدابلحسن وإيدكفويه في تندغة، وهو في الوقت نفسه جدّ أهل كَنّار ومجموعات من تندغة^(٣).

وبالطريقة نفسها سنشهد أن الهجرات والتفرّعات القبلية ستلعب دوراً مهماً في إعادة التأسيس القبلي في المجموعات الزاوية، كما حدث في القرن الثامن عشر عندما أدّت صراعات إيدولحاج إلى مغادرة وَدَّان وتأسيس قبيلة جديدة متعدّدة الأصول والمشارب في تگانت، ثم لعصابة، هي أهل سيدي محمود^(٤). وفي القرن السابع عشر وصل إلى الترازة شخص محوري يُدعى نجيباً، وكان «أول» شخص من إيدولحاج بعد تفكّك مجتمع الحجاجين الودانيين؛ ولاحقاً قامت أولى

(١) نفسه، ص ٥٠.

(2) Webb, Desert Frontier, 29-31.

(3) Webb, The Evolution, 458; 134 ص. محمذن ولد باباه، نصوص، ص 134.

(4) Bonte, Fortunes commerciales, 1.

نواة هؤلاء المهاجرين بالتزاوج مع تندغة التشمشين، وإفراز تشكّل جديد^(١). ويخمن ويتكلم أن قبيلة كنتة ربما انبثقت من صراع بين تجكانت في تينكي في الفترة ما بين منتصف القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر^(٢). ويلاحظ أن مجموعات عدة انبثقت من قبيلة تجكانت وأصبحت كيانات قبلية مستقلة كبابوات في الولوف وإيدلبة في ولاتة وأهل يند محم وأهل أعمر أبابك في أرض الكبل^(٣).



إلا أن أنماطاً أخرى من التشكيل القبلي ستزدهر مع بني حسان، وإن لم تتوقّف عليهم، وخصوصاً نموذج الإلحاق. كان هذا نموذجاً من القنانة، ولكنها كانت مختلفة عن القنانة الزراعية؛ لأنها كانت قنانة رعوية أرستقراطية. يتعلّق هذا النموذج باختلاق قسري للكيانات الاجتماعية وبتشكيل فوق القبائل بإدماج العناصر الرجالية من القبائل المهزومة في العساكر المنتصرة واستخدامها في الهجمات والغزوات، وهو أمرٌ لاحظ ابن خلدون انتهاج القبائل الحسانية له تجاه القبائل الصنهاجية عندما جعلتها «خولاً للعسكرة»^(٤). وما يعتبره ابن خلدون «الخوالة» هو ما نسميه هنا بالقنانة، وهو الإدماج والمخالفة القسرية. على أن هذا الإدماج في الصحراء لم يكن دوماً، أو حصرياً، لأغراض عسكرية بل طال الأغراض الاستغلالية الإنتاجية. وقد عُرفت هذه القنانة بـ«اتزنكي» أو تحويل المهزومين إلى لحمة أو أزنّاكة. وتعني «لحمية» جعل المجموعة المُلاحقة تابعة دائمة للمجموعة المتسيّدة. وفي أحيان كثيرة كان هؤلاء اللحمية يتركون لشأنهم مع إلزامهم بدفع غرامات دورية للأسياد. وربما ظهرت أولى الإشارات إلى هذا المفهوم مع منتصف القرن السادس عشر، عندما تحدّث فرناندس عن جماعة

(1) Webb, The Evolution, 458.

(2) Thomas Whitcomb. New Evidence on the Origins of the Kunta. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 38, No. 2 (1975), pp. 410-411.

(3) نفسه، ص ٤١٣.

(4) ابن خلدون، ج ٦ ص ٧٠.

تسمى بـ «الزيكي» تعيش مندمجة في قبائل الأوداية العربية القوية في تلك الفترة. يبدو أنها كانت مجموعة أزنائية محترقة، بحيث إن الرحالة البرتغالي شَبَّها بجماعة البيرة Beira العجرية في البلاد الإيبيرية^(١).

ومع انزياح العرب المعقلين والمغافرة إلى الجنوب بدأت هذه القنانة الرعوية والحرية تتحول إلى قنانة زراعية عندما بدأ الأسياد العرب يفرضون غرائب زراعية على المجتمعات المزارعة، السوداء غالبًا، وعُرفت هذه الضريبة بـ أباخ أو مودي حرمة. وربما تشكَّلت بعض المجتمعات الصنهاجية والشريفية الحرة بالغيرية من القنانة؛ إذ اضطرت إلى التحلل من العناصر التي تم اضطهادها منها. فقد تحدث الرحالة البرتغالي عن نموذج جديد من سحب الجنسية القبلية عن بعض العناصر التي أذلَّها الغزاة والمحاربون أو انتهبوا مالها. وربما كان الأمر يتعلق بإجراء شرفي تقوم به القبيلة الصنهاجية لإبعاد كل من نُهب وأذلَّ منها كي تبعد نفسها من وضعية الأزنائكة^(٢).

وقد حدَّث الشيخ سيدي محمد الكنتي أيضًا أن أصل هذا الإدماج في الصحراء بدأ أول ما بدأ بعيد ما فهم على أنه انتصار بني حسان على تجمع أبدوكل وإلحاق العناصر المقاتلة فيه والعفو عن المجتمعات المتعلمة^(٣). وفي الشمال حدث هذا من خلال مواصلة إدماج الصنهاجيين في وادي درعة، عندما قام أولاد دليم والبرابيش بإدماج جدالة وإلحاقهم وامتصاصهم^(٤). وهكذا ستظهر جدالة في قبيلة جدالة الجديدة وفي البرابيش وأولاد عمران وأولاد منبّة^(٥)، وفي المجموعات الصغيرة من الملحقين ببعض القبائل كأهل شتّان في أولاد اللب

(1) Fernandes, 73.

(2) فرناندس، ص ٩٥.

(3) الشيخ سيدي محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار الكنتي، الرسالة الغلاوية، في: سلسلة نصوص ووثائق: الرسالة الغلاوية: تأليف الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي؛ ورسالة في نسب إيدولحاج، تأليف عبد الله بن سيدي محمود الحاجي، تحقيق حماد الله ولد السالم، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ٢٠٠٣، ص ١٥٠-١٥١.

(4) Le Chatelier, 46.

(5) نفسه، ص ٥٤.

وأهل سيد أعلي في الطرش وأهل القريب في أهل باركللة^(١). وفي أرض الكبلة ستفرق القبائل المنسحقة بين القبائل الباقية، حيث هاجرت بقايا الخباشة من انيرزي إلى أهل سيدي محمود ضمن مجموعات إدوعيش التي هاجرت اليهم^(٢). أما بقية انيرزي فسيقوم أولاد دمان بإدماجهم وإلحاقهم^(٣)، كما أدمجوا إيدغبان وجعلوهم جزءاً منهم^(٤). وفي الحوض قام أولاد امبارك بإدماج قبيلة محاربة هي أولاد بوكار، وفعلوا الشيء نفسه لفرقة من أولاد رزك^(٥). وكان هذا السيناريو رائجاً حتى القرن التاسع عشر بين القبائل المحاربة، فقد كان أولاد عكبة بن عروك أمراء في الحوض ولكنهم احتكوا بالقبيلة القوية في حينه، أولاد امبارك، الذين هزموهم وقهروهم وقاموا بإلحاق أولاد بوكار منهم في المنتصرين من أمراء أولاد لغويزي، حيث أصبحوا «كراة» لهم، أي حاشية للرئيس. وأصبح أولاد مزول منهم تبعاً لأولاد بهدل من أولاد امبارك. وبعضهم ذهب إلى أهل اللب وإلى مشظوف^(٦).

وفي لحظات كثيرة كان يشبُّ صراع وتقوم مزاحمة على سيادة الملحقين تُسفرُ أحياناً عن انتزاعهم من أسيادهم الأصليين إذا تمكن طرف من فعل ذلك. فعندما حارب مشظوف أولاد امبارك في القرن التاسع عشر، فإنهم قاموا بانتزاع الملحقين بهم كأولاد محمد وأهل الطالب مصطفى وأولاد مزوك وأولاد عبد الوهاب وأهل الرواسيل وجعلهم مبايعين لمشظوف في إطار المكاتب والإلحاقية^(٧). وعندما صعد نجم قائد إيدولحاج، عبد الله بن سيدي محمود، وحارب كنتة وطرفاً من إيدوعيش فإن بعضاً من لحمة هؤلاء وأزناكتهم انضموا له

(1) Abdel Wedoud Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la société maure précoloniale (XI^{ème} siècle -XIX^{ème} siècle): essai sur quelques aspects du tribalisme. Tome I. Paris: Paris V Reine Descartes, 1985, p. 156

(2) محمدن ولد باباه في: هامش اليديالي، نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ٦٤.

(3) Le Chatelier, 47.

(4) اليديالي، شيم الزوايا، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ٨٧.

(5) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب، ص ٥٣-٥٤.

(6) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٦٧.

(7) Cleaveland, 108.

«فصار كهفًا لهم وصاروا جنْدًا له»، بتعبير أحمد بن الأمين الشنقيطي^(١). وكما هو معروف، فإن الأمر يتعلق هنا بتأسيس كونفدرالية قبلية، فوق الانتماءات القبلية التقليدية، هي أهل سيدي محمود. ولا يتعلّق الأمر دومًا بالملّحقين؛ إذ لم يكن يندر أن تكون هذه التحولات هي رهان مجموعاتٍ محاربة على خيارات حرابية أخرى، كما كان حال لِعُوَيْسات الذين انتقلوا إلى تكانت. فبالأصل كانوا أبناء عبد الله بن عثمان قريب يحيى بن عثمان، الأب الظنّي لكلّ من أولاد عمّني وأولاد آكشار، ولكنّهم انتقلوا إلى تكانت ربما في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، بعد قلاقل في آدرار، وأصبحوا جزءًا من آبكاك، في إيدوعيش^(٢).

وعلى العموم، فقد أدمجت كثير من القبائل النبيلة أو اللمتونية والصنهاجية الأصل التي انهزمت من قبل القبائل المحاربة بعد السيطرة الحسانية بشكل واسع في القرن السابع عشر، أو توخّدت في الاقتصاد الإقطاعي المغارمي للقبائل المحاربة. ويتعلّق الأمر بقبائل كثيرة من العهد الصنهاجي، كـ «لادم وأولاد بوحمدة وأمكاريج وأرالين والتوابير ولبحيحات وأولاد الفاجي ولمرادين والدراغلة وتابيت (لعراس) والبوريد وباسين ولمزازكة ولكويدسات...»^(٣). كما يتعلّق بقبائل أخرى غير صنهاجية، ولكنها ألحقت ببني حسان بعضها حساني الأصل كالرحاحلة وبعضها حرطاني الأصل كزمبتي وأولاد عايد وبعضها غير ذلك كآرويجات^(٤)، وكاليتامي الذين ألحقوا بإدوعيش في غورغول^(٥).

وقد أثر هذا الإدماج حتى في هويات القبائل المتسيّدة، بحيث إن زائرًا فرنسيًا للمغرب وللصحراء هو لشاتليير تحدّث في القرن التاسع عشر عن أولاد دليم

(١) الشنقيطي، الوسيط، ص ٣٥٩.

(2) Ahmedou Mamadou Ba, "L'Emirat de l'Adrar Mauritanien de 1872 à 1908" *Bulletin Trimestriel de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran*, Mars, 1931, Tome 53, pn. 84.

(3) Abdel Wedoud Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la société maure précoloniale (XI^{ème} siècle -XIX^{ème} siècle): essai sur quelques aspects du tribalisme. Tome I. Paris: Paris V Reine Descartes, 1985, p. 158

(٤) نفسه، ص ٢٥٧-٢٥٩.

(5) Oumar Kane. La première hégémonie peule: le Fuuta Tooro de Koli Tenella à Almaami Abdul. Dakar: Karthala, 2004, 458.

ومشظوف والعروسيين على أنّها تشكيلات قبلية جديدة^(١)، كما نظر إلى مشظوف والعروسيين باعتبارهم خليطاً قبلياً بين العناصر المسوفية واللمتونية وعناصر الودايا، التي كانت من أوائل المجموعات الحسانية التي هبطت إلى وسط البلاد^(٢)، وهو ما يقابل تقصّي أصل مشظوف إلى تلاحم بين عدة عوائل حسانية من أولاد مبارك وأولاد الناصر وأولاد عكبة وأولاد دليم وغيرهم، وعناصر زاوية من إيدوعلي والأقلال ومسومة وعناصر من الشرفاء كالمزاوير وغيرهم^(٣). وفي القرن التاسع عشر سنشاهد أن الهويات تتداخل حتى في القبائل ذات الأصل العربي كالبرابيش الذين دخلوا في زيجات كثيرة بين الطوارق والصنهاجيين، بحيث إن المستشرق لينتز اعتبرهم بربراً، خلافاً لهنري بارت الذي لم يرغب عنه إنهم عرب^(٤). أما تكنة، ذوو الأصول اللمطية، فقد امتزجوا منذ بداية القرن الثالث عشر مع المعقل وذلك من خلال بطنيهم، زوغن ولخص، وأصبحوا قبيلة معقلية/بربرية في واد نون قبل نزولهم إلى الصحراء بقرون^(٥).



لم يكن إعادة التشكيل أمراً خاصاً بالقبائل الصنهاجية، كما قد تريد ذلك الأيديولوجيا الانتصاروية لبني حسان. ومن الواضح كما رأينا أنّ إعادة التشكيل القبلي كان ظاهرة مألوفة أيضاً لدى القبائل المتسيّدة العربية، وخصوصاً تلك التي انهزمت منها وتفكّكت كالودايا والرحامنة وأولاد رزك وأولاد بوكار. وعلاوة على الأشكال التي ذكرناها، فقد حدث هذا أيضاً بآليات اجتماعية هي التوبة والهجرة التي كانت تتعلّق باندماج المنهزمين والمنتدئين الذين هجروا اقتصاد الحرب في مجتمعات تجارية ودينية متناسبة مع تحولاتهم السياسية والروحية. ولم يكن الأمر يتعلق دوماً بالحقاق هؤلاء بقدر ما كان يتعلق بلجوئهم إلى قبائل أخرى وبحثهم فيها عن حظوظ اجتماعية وسياسية بعد انهزامهم. فقد حدثت حرب كبيرة بين

(1) Le Chatelier, 47.

(2) نفسه، ص ٥٤.

(3) بن محنّض، تاريخ موريتانيا القديم والوسيط، ص ٢٤٦.

(4) Le Chatelier, 56.

(5) بن محنّض، تاريخ موريتانيا القديم والوسيط، ص ٢٤٦.

الودايا والبرابيش كما أخبر بها فرناندس في القرن الخامس عشر ودارت رحاها في ولاتة والحوض^(١)، وفي هذه الحروب المستعرة وُلدت شرائح جديدة من المنهزمين الذين لم يبقَ أمامهم غير الفرار والاستقرار بين القبائل الزاوية والذوبان بينهم. وهو ما حدث لأغلب قبيلة أولاد رزك القوية التي هزمها المغافرة في أرض الكبلة في انتيتام في عام ١٦٣٠. وقد تفرّق الرزكيون وانضموا لايدولحاج واكمليلن، أما بعضهم فاندمج في السودان، وكما أصبح البعض الآخر لحمة كأولاد عبد الواحد المندمجين في إرالن، وبعضهم ذهب إلى أولاد امبارك وغيرهم^(٢).

كانت القبائل الزاوية هي الملجأ الطبيعي للعناصر المنهزمة التي كانت تنضم إليها في ظاهرة عرفت في الصحراء بـ **التوبة وبالهجرة**، وهي ظاهرة قديمة؛ ففي فترة مقدم العرب الحسانيين نشاهد النواة الأميرية من إيدوعيش، أهل اعمر خنة، لاجئة في إيدوعلي، كما نشاهد كثيرًا من «**التياب**» من إيدوعيش وإيديشلي على مرّ القرون اللاحقة يهربون إلى إيدوعلي والأقلال وإيديبوسات وتجكانت^(٣). وفي الفترة نفسها وبعدها نشاهد جموع المهزمين الحسانيين تائين في القبائل الزاوية كما حدث مع أولاد نخلة من أولاد داوود الذين كانوا أمراء حرب في الحوض، فهاجروا بعد أن هزمهم أولاد امبارك إلى أهل الحاج أمين من الأقلال وأصبحوا جزءًا منهم^(٤). وهربت مجموعات من أولاد بوكار وأولاد يي وأولاد ياسين بعد هزيمة أولاد عكبة بن عروك وهاجرت إلى قبائل الزوايا أمثال تنواجيو وتاكاظ^(٥).

وعلى مدى القرون اللاحقة ستبقى الأبواب مفتوحة لأفراد الصحراء في الاندماج في القبائل، تائين ومهاجرين ومكاتبين. وهو أمر كانت تستفيد منه عناصر كثيرة وخصوصًا بالنسبة إلى المجموعات العربية التي انهزمت في حروب

(1) Fernandes, 69; Le Chatelier, 56.

(2) نصوص، نفسه، ص ٥٤.

(3) Abdel Wedoud Ould Cheikh. *Elements d'histoire de la Mauritanie*. Nouakchott: Centre Culturel Français, 1991, 108.

(4) المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ١٤٣.

(5) نفسه، ص ١٦٧.

الوراثة أو الصراعات على الإمارة. كانت هذه تمارس ما عُرف بـ«الزوكة» (من الزوج) أو الفرار، وتستقرّ بين الزوايا تائباً بينهم أو تنضمّ إلى قبائل حسانية أخرى تواصل مشوارها الحربي معهم. ففي بداية القرن التاسع عشر انهزم أمراء أولاد دليم من أولاد بوهندة، الذين كانوا رؤساء أولاد المولاة، ولم يجدوا خياراً غير مكاتبة الذين انتصروا عليهم من البرابيش فاندمجوا فيهم^(١). وبعد هزيمة البرابيش من قبل أولاد يونس تفرّق أعقاب هؤلاء من الأطفال، الذين عرفوا بالحشاشة، بين القبائل فأصبح منهم الجرّش في أولاد يونس والبرابيش في أولاد الناصر وأولاد علوش وفي إيدوعيش وأغرازير والأقلال. وقد وجد بعض هؤلاء وظائف حدادية في بعض القبائل^(٢).

لم تكن التوبة تتعلّق دوماً بخيار اضطراري للجماعات المحاربة المدحورة، بل كانت تتعلّق أحياناً بصدق نية ونقمة على حياة الحاربة. ويذكر صالح بن عبد الوهاب (ت ١٨٥٥) جدّه الحاج عبد الوهاب بن اعمر بن ناصر، الذي ربما عاش في صدر القرن السابع عشر، بصفته «أول» تائب في الصحراء. وقد هاجر من السوس وتافيلالت إلى ولاتة، حيث بدأ في إقناع أولاد الناصر بالتوبة وهي الدعوة التي نجحت عندما انضمّ له الكثيرون، وهم المعروفون بـ«طلبة أولاد الناصر»، الذين رفضوا الحاربة طوعاً وأخذوا في العلم والعبادة^(٣). ولم يكن يندر أن تعود التوبة لقرار مجموعات بترك هويتها القبلية وتبني هوية أو وظائف اجتماعية أخرى بفعل مشاكل اجتماعية-اقتصادية أو سياسية، أو أخرى تتعلّق بالهجرة الصرفة. ففي القرن السابع عشر هاجر انتشايت ولد محمد إلى قبيلة أولاد أبييري، التي تحوّلت بدورها إلى قبيلة من الزوايا، وعاش بينها وتزوّج ابنة امرابط مكة ولد أبيير، وتزاوج أولاد انتشايت بأولاد أبييري وأصبحوا جزءاً منهم مع مرور الزمن^(٤). وعندما تخلّت مجموعة معتبرة من أولاد الناصر عن هويتها

(١) نفسه، ص ١٠١

(٢) نفسه، ص ١٦٨-١٦٩

(٣) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب، ص ٨٣-٨٤.

(4) Charles, C. Stewart. *Islam and Social Order in Mauritania: A Case Study from the Nineteenth Century*. Oxford: Clarendon Press, 1971, p. 20;

صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب، ص ٩٣.

الحسانية وانتَهجت نهج الزوايا، فإنها تحولت إلى قبيلة انتابّة. وعندما انضوت مجموعة محاربة بالأصل ومنتمية لثروز جدّ الترازة ومن التكاير والسمايل، فإنها ظهرت في قبيل جديد ينتمي للزوايا هو قبيل الطلابين^(١). وعندما انتهج أحفاد أجم المعقلي، وهو رجل من المعقل، نهج الزوايا فإنهم ظهوروا في قبيلة إجمان التي لم تعد قبيلة حسانية بالمعنى الوظيفي. بل وإن نسبة القبيلة تركوا الانتماء النسبي لحسان وبدأوا في الحديث عن نسب شريفي، حسب بول مارتني^(٢). أما صالح بن عبد الوهاب فيتحدّث عن تضارب نسبي بين صنهاجة والعرب في أصل هذه القبيلة. وقد أشار ابن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر إلى الشيء نفسه في قبيلة إيديقب الزاوية التي قال إنها تنتمي إلى أصول حسانية^(٣). كل هذه كانت مجتمعات حسانية غيرت هويتها إلى مجتمعات زاوية، بل إنها أصبحت تبرّ الزوايا في العلم كما كان مثلاً حال أولاد أبييري وأولاد الحسن وأولاد إبراهيم من أولاد زيد، القبيلة المحاربة من أولاد داود بن عروك^(٤). وينطبق الشيء نفسه على أولاد بزيد والطلابين ذوي الأصول الحسانية، وتحديدًا المتأصلين من شبكة عزّونة، وقد دخلوا في مجال تشمشة وتخلّوا عن القيم الحسانية^(٥).

ولم يتعلّق الالتحاق بالقبائل فقط بالمجموعات؛ بل كان الأفراد التائهون والهاربون يجدون مكاناً لهم في كلّ القبائل. وفي عشرينيات القرن التاسع عشر كتب الشيخ سيدي محمد الكنتي وهو في معرض الحديث عن قبيلة إيدولحاج أنها ك «سائر القبائل منهم الصميم واللصيق والإشابة والعريق»^(٦). وربما كانت

(١) Abdel Wedoud Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la société maure précoloniale (XI^{ème} siècle -XIX^{ème} siècle): essai sur quelques aspects du tribalisme. Tome I. Paris: Paris V Reine Descartes, 1985, p. 230

(٢) بول مارتني، القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني، تعريب محمد محمود ولد ودادي، دار الكتب الوطنية ببنغازي، ليبيا، ٢٠٠١، ص ١٨٥.

(٣) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب، ص ٣٩.

(٤) نفسه، ص ٤٥.

(٥) محمد المختار ولد السعد، الإمارات والنظام الأميري الموريتاني: النشأة والأطوار السياسية الكبرى، مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، ٢٠١٤، ص ٥١.

(٦) الكنتي، الرسالة الغلاوية، ص ١٣٠.

«الإشابة» و«الصلابة» تتعلّق أحياناً بهجرات قبيلة تأوي إلى قبائل أخرى لأسباب مختلفة. ويحيل المؤرخ صالح بن عبد الوهاب إلى إحالات متعدّدة من هذا النوع عندما ذكر أن أولاد بُوردة كانوا مهاجرين في أولاد علوش، كما أحال إلى هجرات أطراف من أولاد داوود وسكنهم في البادية مع الأقلال وذلك بعيد طردهم من تيشيت^(١). كما أن أولاد محمد الزناكي هاجروا إلى الأقلال وسكنوا بينهم^(٢). وبعضهم سكن في تجكانت^(٣). كما هاجر أهل أبوبك من نبلاء أولاد الناصر إلى إيدو علي بتجكجة^(٤). وتتعلّق هجرة الرعيان إلى آدرار ثم تكانت بمنافسات في صميم عوائل مقيمة بالسوس، حيث هاجر أحد أعيانهم وهو عبد الله بن آبة بن مختر إلى ودان حيث عمل مع نسله في الرعي، ومنه ظهر المسمّى الجديد لقبيلته ذات الأصل الدليمي. ويبدو أن الأمر تعلّق بوحدة إنتاجية ذات طابع قبلي سرعان ما تحوّلت من منمّين إلى قوة غزو واستثناء؛ وهو أمر واضح لمؤرخ تكانت في مطلع القرن العشرين، سيدي ولد الزين، الذي تحدّث عن كثرة الحلفاء والنزلاء فيهم^(٥).

ورغم عروبة بني حسان الواضحة، إلا أنهم لم يسلموا من ديناميكيات إعادة إنتاج الأنساب التي مرّت بها بقية القبائل الصحراوية. وقد بدأت هذه العملية قبل نزول الحسانيين إلى الصحراء، عندما بدأوا في الانتساب إلى قريش. وقد حاول ابن خلدون بحسّه النقدي تنفيذها كما فنّد عروبة الصنهاجيين، إلا أن حسانيي الصحراء سيواصلون نسبة بني حسان إلى قريش، وإلى جعفر بن أبي طالب تحديداً. وسيتغنّى بهذا النسب الفنانون أمثال اعلي بن مانو وابنه الخو، والمثقفون، أمثال محمد بن سعيد اليدالي الديماني ومحمد بن خالد، في القرن السابع عشر^(٦).



(١) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب، ص ٤٥.

(٢) نفسه، ص ٦٦.

(٣) نفسه، ص ٦٧.

(٤) نفسه، ص ٧٨.

(٥) سيدي ولد الزين، كتاب النسب، مخطوط، ص ٣٠.

(٦) آمحمد بن أحمد يورة الديماني، إخبار الأخبار بأخبار الآبار، تحقيق أحمد ولد الحسن، جامعة محمد

الخامس، الرباط، ١٩٩٢، ص ١٩-٢٠.

لم تقتصر الديناميكية في الأنساب على مجتمع العرب والبربر، بل طالت البولار والسونينكي والولوف والباشان الذين أدمج الكثير منهم في المجتمعات العربية والبربرية المنتصرة التي بسطت حمايتها على الساحل في فترة الجفاف الكبير في القرن السابع عشر. وفي هذا الإطار يمكن الإشارة إلى مجتمع تيغماتين البيضاني الذي تكوّن بامتصاص مجتمع امبول المكون من قرى المزارعين السود. فاندمج هؤلاء في قرى تيغماتين وبدأ سكانها السود في التعرّب والانتساب للرسول ﷺ^(١). ويشاهد إدماج شبيه في حضور عوائل ذات أصل سوداني في القبائل البيضانية كأهل اندبنان وأهل بهنين في أولاد ديمان^(٢). ويعطي مؤرخ القرن السابع عشر، محمد بن سعيد اليدالي، حالة من التزاوج بين نبلاء شربة والولوف في القرن السابع عشر من خلال زعيم الوالو المّعين من قبل حركة ناصر الدين بعد فتح شمامة، وقد أصبح هذا خال همّد فال بن إبراهيم^(٣). ومن الأرجح أن كثيرًا من نبلاء المجتمع اللمتوني القديم تزوجوا مع السود وتلاحم بعضهم مع الوافدين التواتيين. وليس زواج أبي بكر بن عمر بأميرة سودانية وسيادة اللغة الأزيرية إلا المثال الأوضح والأقدم؛ غير أن القرون اللاحقة ترينا لمتونيين سودًا، كما كان شأن اللمتونية السوداء التي تزوجها أحمد بن محمد وأنجبت له سيدي أعمر، الذي سيستقلّ في القرن الثامن عشر بتسمية وأبوة أولاد سيدي الوافي، البطن البارز في قبيلة كنتة، والذي كان نفسه أسود بفعل هذا الزواج^(٤).

وفي أحيان كثيرة كان المجتمع السوداني هو من يمتصّ المجتمع البيضاني كما حدث لمجموعات إيدولحاج التي دخلت في مجتمع الولوف، وكما حدث لأولاد ازعيم من أولاد يونس الذين غادروا إلى النيجر وسكنوا فيها في أواخر القرن

(١) Webb, Desert Frontier, 31.

(٢) منقول عن المختار بن حامد ومحمد لقظف ولد سيدي محمد.

Webb, Desert Frontier, 145.

(٣) اليدالي، أمر الولي، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ١٣٣-١٣٤.

(٤) ولد الزين، كتاب النسب، ص ٢٢.

التاسع عشر^(١). وكما حدث لمجموعات من كتنة في باماكو وأزواد. وقامت الديناميكية نفسها بين البيضان والطوارق كما حدث لعشيرة شنقيطي أجار المنتسبة إلى إيديجير، التي استوطنت تمبكتو وصارت قبيلة طوارقية^(٢). وكما حدث لبابوات، ذوي الأصول الجكنية، الذين أصبحوا جزءاً من الولوف^(٣)، أو لليتامي الذين امتزجوا مع السود في غورغول وأصبحوا خلاسين منهم، كما يقول بول مارتى. وتمازجاً كالمجتمع الصنهاجي، فإن المجتمع الزنجي أيضاً تعرض لديناميات كتابة الشرف وصناعة الأنساب، وسيظهر السونينكيون كمنتسبين لسراقة بن مالك. كما سيظهر البولار كمنحدرين من سلالات عربية أو بربرية شمالية، وأحياناً شريفية.



يمكن القول بأمان إن تحوّل هوية مجتمع البيضان وتشكله المعاصر قد انغرس في هذه الفترة المغطاة في هذا الفصل، وعلى الأذق من القرن الخامس عشر حتى السابع عشر. وكانت اللغة العربية، من خلال اللهجة الحسانية، التي استبدلت الأنماط اللسانية السائدة قبلها، هي معلم هذا التشكّل. ومن المهم ربط انتشار، ثم سيادة هذه اللغة، هذا بأواصر التجارة والترحّل والعلاقات المعقّدة بين المجموعات، إضافة إلى تأويل الأنساب وإعادة تأويلها لتتماشى مع المعطيات السياسية الجديدة، وازدهار أنظمة القرابة كرأسمال سياسي وثقافي، من دون نسيان أدوار المجتمعات العربيّة المنتصرة حديثاً والمجتمعات الزاوية العلمية المتنقّلة التي ساهمت في توحيد القيم والتواصل من خلال النظام التعليمي الصحراوي، وأدوار السلطات الروحية العابرة للقبائل التي شكّلت إطارات واسعة للاندماج وللتعايش ولللهويات المشتركة. لقد أدّت قرون الامتزاج هذه إلى خلق مجال جديد، هو بلاد شنقيط و«تراب البيضان»، انصهرت فيه المجتمعات في نظام تواصل واحد بثقافة متقاربة ولغة واحدة.

(١) المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ١٦٨.

(2) Norris, Sanhaja Scholars, 636.

(3) Whitecombe, Evidence, 2, 413.

بالأصل لم يكن الصنهاجيون يتكلّمون العربية. ورغم زعمهم أنهم عرب حميريون، وهو زعم وّظدوه في المغرب والجزائر في القرون الأولى بعيد دخول الإسلام وأخذوه معهم إلى الصحراء وامتدّحوا به في الأندلس؛ إلا أنهم لم يكونوا قادرين على تأكيد هذا بلسان عربي فصيح. فلم يكن يوسف بن تاشفين، على قيادته لحركة مؤسّلة- بل ومُعربة- يجيد العربية، وإن كان يفهمها جيّدًا^(١)، ربما بفعل التعليم الذي أتى به عبد الله بن ياسين للصحراء. ولفترة بقي الصنهاجيون والعرب يعانون من مشاكل التواصل مع بعضهم، ففي عام ١٢٧٠ عندما تعطلت سفينة ابن فاطمة عند الرأس الأبيض، أو ربما عند شماله في وادي الذهب، عند «الجبل اللماع» كان التمايز اللغوي بين الصنهاجيين والعرب قويًا بحيث إن كل طرف لم يفهم كلام الطرف الآخر:

فلما انتهوا إلى تحت الجبل اللماع أشار عليهم برابرة كدالة ألا يقربوا الجبل ولم يعلموا سبب ذلك، فأخذوا عنه شمالًا حتى خرجوا عن حده. ولما خرجوا إلى الساحل لم يفهموا كلام كدالة حتى جاء شخص كان يفهم الكلامين فسألهم عن ضلالهم فأخبروه، وسألهم أهل المركب عن تحذيرهم إياهم من الجبل اللماع...^(٢).

وحتى بعد نزول بني حسان واختلاطهم مع الصنهاجيين في الساحل كانت وضعية التواصل ما تزال صعبة، فقد كان عموم الجمهور يتحدث بالصنهاجية أو الآزيارية على طريق القوافل. ومن الواضح أن الحاجة لمترجمين ظلّت قائمة لقرون، فقد صوّر ليون الإفريقي كيف أن أمير تنواواز من بربر المغرب لم يفهم القصيدة العربية التي كان يقرأها في مدحه^(٣). وصوّر أزورارا مشهّدًا لم يقدر فيه العرب على التواصل مع الصنهاجيين، ولم يُنقذ الموقف إلا رجل صنهاجي له تاريخ في الرحلات والاختلاط مع العرب فاستطاع الترجمة بينهم:

ثم عاد القباطنة إلى السفن وطلبوا من العربي الذي أحضره نونيو تريستام

(١) ابن خلكان، وفیات الأعيان، ج ٧ ص ١١٤.

(٢) ابن سعيد، الجغرافيا، ج ١ ص ١٩-٢٠.

(3) Jaques-Meunié. Le Maroc saharien, 2, 327

معه أن يتكلّم مع أولئك العرب، ولكنهم لم يكونوا قادرين على فهم كلامه؛ لأن اللغة التي كان يتكلّم بها هؤلاء لم تكن عربية بل أزنائية من الصحراء، التي هي اسم تلك الأرض. ولكن النبيل كان من أصل أكرم من الأسرى الآخرين؛ ولذلك شاهد أشياء أكثر وأفضل منهم وسافر إلى بلدان أخرى، حيث تعلّم اللسان العربي؛ لأنه استطاع أن يفهم كلام العربي ويجيبه في كل ما سأله باللغة نفسها^(١).

كانت اللغة الأزنائية هي ما وثّقهُ ابن خلكان باللغة المرابطية، المختلفة عن اللغة العربية^(٢). وتشاهد الحاجة للمترجم بين البرتغاليين والصنهاجيين، وليس العرب، بحيث إن نهاية غونزالو دا سترا جاءت من محاولته استرداد مترجمه الصنهاجي الذي هرب في داخل الأراضي الصنهاجية. وحتى بداية القرن السابع عشر كانت الفروق بين العرب والصنهاجيين واضحة بالنسبة إلى زائر عارض إلى المجال. وهو اختلاف يُخبرنا الزائر فرناندس أنه كان في نمط الإنتاج ونوعية البداوة؛ فيفما كان العرب غالبًا جمّالين كان الصنهاجيون مربّي قطعان؛ وفيما كان الأولون غزاة كان الآخرون تجارًا^(٣).

على أن عدم عروبة الصنهاجيين لا يمنع أن موجة من التعريب النخبوي ربما قد بدأت تتسرّب للبلاد قبل مقدم بني حسان. ولعلّ هذا قد نهض بفعل التعليم؛ فقد كانت الرباطات أو المجالس العلمية التي ستعرف لاحقًا بالمحاضر (التي أدخلت التدين إلى حياة الصحراء وجعلت المرابطين يرفضون القتال قبل الصلاة في وضع حرج كمعركة الزلاقة)، وإن يبدو أنّها لم تكن واسعة الانتشار قبل القرن الثامن عشر، محاضر مبنية على التعليم الديني الذي تركز على اللغة العربية. رغم أن كل الصنهاجيين لم يكونوا متقنين للعربية في الأندلس، بل كانوا عرضة

(1) Azurara, 48-49.

نلاحظ أن أزورارا استخدم كلمة مور للعربي، وربما يذهب البعض إلى ترجمتها بالبربري، وبالتالي يكون الاختلاف اللغوي بين لغتين بربريتين مختلفتين. ورغم بعد هذا الاحتمال، إلا أنه لا يجافي النقطة الأساسية وهي أن المجموعتين في الصحراء لم تكونا على تواصل بفعل اختلاف اللغتين.

(٢) ابن خلكان، وفیات الأعيان، ج ٧ ص ١١٤.

(3) Fernandes, 71.

للسخرية بفعل جهلهم باللغة العربية؛ إلا أن الكثيرين منهم كان على احتكاك طويل بالعرب. وقبل الزلافة أتت مجموعات عربية مع أبي بكر بن عمر لدى عودته لأدرار وتم امتصاصها في السواد الصنهاجي. وكان هؤلاء، مثلهم مثل بعض المجموعات الصحراوية، ينتسبون لعقبة بن نافع ولأمويين. وإذا أخذنا النموذج المغربي، فقد كان هنالك تقدير كبير لهم بين القبائل الصنهاجية؛ إذ كان يُعتقد أن فيهم البركة.

وفي ولادة ما قبل الحسانية كان يمكن الحديث عن تعريب اجتماعي بفعل التزاوج مع العناصر العربية التي غيّرت الهوية المسوفية بشكل جذري بعد تكوّن المدينة من النزوح والتجارة في القرن الثالث عشر^(١). فعندما وصل ابن بطوطة إلى إيولاتن كان واضحًا أن اللغة العربية كانت مهمة وأساسية بها، وذلك قبل التعريب الكبير الذي أتى به بنو حسان. كما يتضح أن بعض العناصر العربية كانت في أوداغست في القرون السابقة، وكانت تمارس التجارة والأعمال. وربما كانت من أوائل المجتمعات العربية التي تركت أثرًا في الصحراء. بل يذهب لوشاتلييه إلى الاعتقاد أن موجة من التعريب كانت آخذة في المسير لولا أنها تعرّضت لانتكاسة بفعل الوعي الصنهاجي المتمثل في حركة المرابطين^(٢)، التي دمّرت المجتمع العربي في أوداغست كما ذكر البكري.

أما فيما يتعلّق بالعامية فلعلّ العربية لم تكن متاحة لهم في معظم البلاد قبل ملحمة التعريب المصاحب لبني حسان. فحتّى القرن الخامس عشر كانت العربية العامية محصورة في الشمال وفي الوسط وفي ألسنة المعقلين، وربما في إطار الزوايا العلمية الصنهاجية. أما في مناطق البلاد الجنوبية في المجال الذي تعرّفنا إليه ببلاد التكرور وفي الجنوب الغربي، فقد سادت الأزيارية. ورغم أن التقاليد السونينية وبعض التقاليد البيضانية كتقاليد أولاد باركلله تذهب إلى أن الأزيارية هي لغة سونينية^(٣)، إلا أن من المرجح أنها كانت متولّدة من الاختلاط الطويل

(1) Le Chatelier, 46.

(2) نفسه، ص ٥٢-٥٣.

(3) Lucas, 161-162, 165.

بين الصنهاجية والسونينية كما هو حال اللغات التي تنشأ على هوامش الالتقاءات التجارية والثقافية. وربما ازدهرت أول ما ازدهرت في الواحات أيام التعايش الكبير والاختلاط الأول بين البربر والسود والبافور. وربما حدث اختلاط بين الآزيرية وبين الصنهاجية عند مجموعات الصيادين التي ستعرف لاحقاً بالنامادي^(١).

إذن، تُفهم أهم مظاهر التعرّب في أوساط العامة في إطار سيادة المعقل وعملية تحوّل الأنساب التي شرحناها أعلاه. ولا تتناقض الجذور الصنهاجية للتعريب مع ارتباطه بالسيادة الحسانية. ولعلّ انتشار العربية في واحات توات والتافلات وهبوط مجتمعات تلك الواحات إلى الصحراء وغلبتها على المدن التجارية، شكّل سياقاً «للغزو» الثقافي العربي وسهّل الطريق لمن عرفهم نوريس بالفتاحين العرب المعقلين. ومع السيطرة السياسية للعرب الحسانيين ظهرت الحاجة لتعرّب الباحثين عن الشرف من خلال تكلم العربية واصطناع الأنساب العربية. وفي الوقت نفسه الذي كانت فيه الحسانية تنتشر بسرعة بسبب نفوذ بني حسان في الشمال، فإن الماندية الصرفة كانت أيضاً تنهي الآزيرية في الجنوب. وقد تحقّق الأمر بسرعة، منتجاً تغييراً سريعاً في الهويات بحيث إن الاستكشافي فينسان جزم في القرن التاسع عشر أنه لم يعد يتكلّم البربرية إلا بعض الشيوخ الطاعنين في السن في الترازو؛ أما القبائل البربرية كإيديقب وأهل بارك الله فقد لاحظ أنها لم تعد تتكلّم البربرية مطلقاً^(٢). وقد توفي آخر ناطق بالصنهاجية من تيجكانت مثلاً في عام ١٩٠٠^(٣).



كانت العربية لغة قريض وشعر أدبي وكانت البلاغة العربية والقدرة على قرض الشعر جزءاً من الفتوة الصحراوية وتقاليدها الملحمية. ومع التوسع الحساني بدأ الشعر الحساني يتسرّب إلى بلاد شنقيط شيئاً فشيئاً، إلا أنه لم ينضج بالمعنى

(1) Mauriel Devey. La Mauritanie. Paris: Karthala, 2005, 39.

(2) J. Ancelle. Les explorations, 125.

(3) Whitecombe, Evidence, 2, 413.

اللاحق إلا في القرن السابع عشر^(١)، رغم أن أصله كان واضحاً في القرن السادس عشر الذي نقل فيه ليون الإفريقي أنه «لمعظم عرب نوميديا كثير من الشعراء، ينظمون قصائد مطولة تتحدّث عن غارات حربهم وصيدهم، وتتطرق إلى الغزل بغاية الرقة والظرف. وأبياتهم مقفأة كأبيات الشعر الإيطالي الشعبي»^(٢). كما أن الصنهاجيين كانوا شعراء، يقرضون الشعر ويتناقلوه شفاهياً ويخزنون فيه حكمهم وحكاياتهم، كما أورد المختار بن حامد^(٣)، مما حفّز القابلية البيضانية للشعر بعد امتزاج العربية والصنهاجية.

وبفضل هذه التجربة الصنهاجية حصل تمازج شعري بين الطرفين، حتّى قبل نزول المعقلين إلى الواحات الصحراوية وذلك عندما بدأوا في تغيير البنية التقليدية للقصيدة التقليدية من خلال إدخال القافية المتشّنة وتبني قافيات جديدة على شعرهم الهلالي والسليمي التقليدي. كما استفادوا من الزجل والموشحات التي نضجت في الأندلس وانتقلت إلى المغرب، وكانت أكثر تناسباً مع الارتجال والعامية، وهو النمط الذي سيطوره الحسانيون إلى «الطلع» أو القصائد العامية و«الأشوار» أو الموشحات والزجل العامي^(٤). وفي هذه الفترة بدأ التمازج بين الشعر الفصيح والعامي في الظهور، ومع الوقت بدأ الفصيح يختصّ بالنخبة وبالتواصل الخارجي والمناسبات الرسمية بينما بدأ الشعر العامي يخدم الأغراض الارتجالية وحاجيات الفتوة وأغراض الفخر والهجاء والحكم الدارجة.

إلا أن الشيء الذي ساهم كثيراً في تطوير الشعر الحساني كان التجربة الموسيقية والغنائية التي نقلته إلى مجالس الأمراء والعوام في عموم الصحراء. ولعلّ هذه التجربة تعود إلى تطور الملحون، أو الشعر المغنّي في المجالس الذي عرفه الهلاليون في المغرب. وفي الصحراء سيحدث الارتباط بين الشعر والملحون، بحيث إن الشعر الشعبي سيعرف في الثقافة الحسانية بـ«لُغْن»

(1) Norris, The Conquest.

(2) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج ٢ ص ٥٤.

(3) Norris, The Conquest, 56.

(4) نفسه، ص ٥٣-٥٤.

أو الغناء^(١). ومن الواضح أن الجماعات الغجرية التي كانت تجوب الصحراء من المغنين والفنانين قد وجدت توظيفات في التجربة الثقافية الجديدة، وساهمت في تحويلها إلى فنٍ وغناء. وربما تطوّرت نواة هذه الطبقة الأولى في تخاصب التجربة الصحراوية والمغربية والسودانية؛ ذلك أن التجربة المغربية الغنيّة بالأغاني الشعرية والتواشيح الموسيقية ربّما أثّرت في نمط الصحراء الغنائي، خصوصًا بعد سيطرة السعديين على تمبكتو عندما بدأ الحسانيون في هذه الفترة إنتاج شعر جديد، حسب المختار بن حامد^(٢).

وإذا صدّقنا سرديات التأسيس، فإن تأسيس طبقة الشعراء الغنائيين أو «الإيغاون» يعود في جزء كبير منه إلى القرن السابع عشر، بالتحديد إلى جهود سدوم ولد انجرتو، الذي كان الأب، وإن لم يكن الأول (تمامًا كامرئ القيس)^(٣). وسترفع قيمة الشعراء الغنائيين عندما أعلى أولاد امبارك من شأنهم واحتاجوا إليهم في حماساتهم وافتخاراتهم وجعلوا الشعر الغنائي دليلًا على سمو الإمارة، وخلقوا عناصر من المغنين ملحقه بمجالس الأمراء والرؤساء. وإذا كانت بلاطات أولاد امبارك أساسية في عملية تبلور الإيغاون، فمن الأرجح أنّ ذلك لم يكن مجرد استنساخ لطبقة الغورو الإفريقية. فرغم أن الأثر السوداني كان واضحًا من الناحية التاريخية في تشكل الموسيقى الموريتانية، إلا أن الأثر العربي فيها كان أوضح؛ إذ كانت موسيقى مورّعة على أوتار وأصوات، رغم أن أوتار «لكحال» فيها قد تكون من ضروب قادمة من التأثير السوداني.

على العموم، فقد تميّزت التجربة الموسيقية البيضانية عن تجربتي الشمال المغربي والجنوب السوداني بأنها كانت تتيح دورًا كبيرًا للارتجال، مما كان يسمح للفنان بالتدخل دومًا وبالتعبير عمّا يجول في خاطره أو خاطر الشعراء الحاضرين للمجلس. وبدوره كان هذا يتطلب طبقة متمرسة في القريض واللهجة الحسانية، حيث طوّرت العادات الارتجالية للشعر في بلاطات أولاد امبارك.

(١) نفسه، ص ٥١-٥٣.

(٢) نفسه، ص ٥٦.

(3) Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la société maure précoloniale, 2, 409.

ولفترة بقي الفن، بمؤسسه الظني سدّوم ولد انجرتو، امباركيا غير أنه سرعان ما أثار إعجاب الأمراء فنقلوه شيئاً فشيئاً. فمدح سدّوم أمراء إيدوعيش كالأمير امحمد شين وكأمير البراكنة أحمد ولد الهية^(١) وكزعيم إيدوعلي، سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم^(٢). وسرعان ما صار لكل أمير مغنٍ يلزمه في كل مكان ويتغنّى بأمجاده ويطربه. ففي عام ١٧٥٨ شاهد جون ليندساي من سمّاه بـ «المغني» و«شيخ الموسيقيين» مع الأمير المختار ولد اعمر، وهو جالس على مقعد على يمينه في مجلس موسيقي يعزف فيه على آلة التيدنييت التي تردّد الكاتب الإنجليزي هل هي «عود أم آلة أم قيثارة، [وهي] مُعدّة من قذح وأوتارها من شعر الحصان»^(٣).

ولعلّ أهم من نقل الإيغاون عن أولاد امبارك كان أمير لبراكنة، أحمد ولد الهية، الذي عاد معه بمغنين معه من حصار الحنيكات في عام ١٧٦٠ الذي جمعه بحلف مع أولاد امبارك ضدّ إيدوعيش. وقد غنّى له سدّوم ولد انجرتو ومدحه في قصيدة «الريتام» الملحمية. ولكنه لم يكتفِ بمجرد تشنيف آذانه من أمداح الأخير؛ بل عاد بفنانين معه يمجدونه^(٤). وتدلّ قصته مع اليدالي أن هذه العودة حفّزت على إنتاج شعر غنائي من قبل الزوايا. وسيشتد التنازع بين الأمراء الكبار على الإيغاون، بحيث إن إيدوعيش سيستقطبون سدّوم ولد انجرتو، مغنّي أولاد امبارك الأسطوري، مقابل دفع مخصوص له من الشياه من كل أسرة. وكما تدلّ على ذلك الآثار، فإن هؤلاء المغنّين كانوا موضع تقدير وإنفاق من جملة القبيلة في إيدوعيش وفي لبراكنة. وحسب نوريس، فإن ظاهرة الشعر المغنّي انتقلت بسرعة من الجنوب إلى الشمال إلى آدرار فساقية الذهب.

وسرعان ما ارتبطت الإمارات بطبقة من الشعراء الغنائيين الإيغاون، وأصبح

(1) Paul Marty. *Etudes sur l'I slam et les tribus maures: Les Brakna*. Paris, Leroux, 1921, 27.

(2) Ould Cheikh. *Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la société maure précoloniale*, 2, 409.

(3) John Lindsay. *A Voyage to the Coast of Africa in 1758 containing a succinct account of the Expedition to, and the taking of the Island of Goree by a squadron commanded by the honorable Augustus Keppel*. London: MDCC Lix, 73.

(٤) بول مارتي، البراكنة، ص ٢٧.

لكل أمير طبل كبير يضرب عليه الدقّافون في أوقات المناسبات. وربما استُقدِمت هذه العادة بُعيدَ انتصار أولاد امبارك في موقعة كساري في عام ١٧١٢. وكان زعيم أولاد الناصر، بهدل بن امحمد بن حماد، قائد أولاد عبد الكريم، هو أول من اتخذ من قيادات قبيلته طبلًا في التاريخ نفسه^(١)، ولعلّ الطبل انتقل من آلة موسيقية إلى دليل على الزعامة والسيادة. وفي آدرار والترارزة كان للزعيم القبلي طبل، وهو ما كان مألوفًا في إمارة الترارزة وآدرار، غير أنه كان أيضًا ذائعًا ومتأصلًا في قبائل غير محاربة؛ إذ يذكر سيدي ولد الزين أن الأمين بن زلمط، زعيم ازلامطة من قبيلة إيدو علي في القرن السابع عشر، كان «رئيس العامة في ذلك الزمن»؛ لأنه كان صاحب الطبل، «وهو على العادة لا يكون إلا بيد الرئيس»، حسب قوله^(٢). بل إن الطبل كان علامة السيادة القبلية، فعندما هاجم الكنتيون قرية علوية واستاقوا كلّ مالها بما فيه طبل أهل الأقرع، فإن اطويلب بن الحاج محمد، الذي لم يُقاوم، والذي كان معروفًا بخموله وزهده، لم يعترض إلا على اختطاف الطبل قائلاً: «والله لا يذهب هذا من هنا وفينا حيّ». مما اضطرّ الغزاة إلى ترك الطبل^(٣). وينبّه المختار بن حامد على أن الطبل قُعد بشكل مختلف لدى كلّ من الزوايا وحسّان. فقد كان عمومًا منبرًا مضاربياً للتنبيه على المناسبات. إلا أنه كان يُقرع لدى حسّان وقت الفزع عددًا معيّنًا. وكان يُقرع أربع مراتٍ للرحيل وثلاثًا للهداية (لدى إيجاد الضالّة) ويُقرع عددًا معيّنًا في الزفّة. أما طبل الزوايا فكان يُقرع للزفاف ولقدوم الضيف العظيم^(٤).

على أن الطبل الغنائي حافظ على أصالته ليس بسبب ارتباطاته الزعامية والسيادية بقدر ارتباطاته بالفن والمثاقفة والإمتاع والمؤانسة. لقد نقلت الموسيقى معها الثقافة الحسانية في ربوع البلاد، ولكنها لم تكن غير عامل مساعد من بين عدة عوامل: انتصار المجموعات العربية، واندماج المجتمع في ثقافة واحدة سهّلتها مجالس الشاي والمحاضر وأواصر التجارة والعيش المشترك، وفوق كل

(١) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٦٤.

(٢) ولد الزين، كتاب النسب، مصدر سبق ذكره، ص ٢.

(٣) نفسه، ص ٧.

(٤) المختار بن حامد، الحياة الثقافية، ١٨٦.

هذا ارتبط التعريب بالرقى الثقافى وبصناعة الأنساب وكتابة الشرف. لقد بدأت تلك الوتيرة مع القرن الخامس عشر، ولم يأت القرنان السابع عشر والثامن عشر إلا وكانت الثقافة -وبالأخص اللغة- الصنهاجية القديمة قد تقوّضت إلا من جيوب قبلية معدودة وضئيلة.

حرب شرببة^(١) (١٦٤٥-١٦٧٧)^(٢)

«وسوف نرى أن الأروهون هم شعبٌ طيّبٌ، عانى طويلاً، وكان انقياده سهلاً، وكان مسارعاً إلى التضحية بالعقل على حساب الحس السليم، وذلك كلما ظهر فيهم فيلسوف وقادهم بعيداً بمقامه في العلم اللدني أو بإقناعهم أن مؤسستهم القائمة لا تقوم على المبادئ الأخلاقية القويمة» صمويل بَنَلز، الأروهون

مع بداية القرن السابع عشر بدا أن وحدتين سياسيتين كبيرتين في غرب وسواحل موريتانيا كانتا قادرتين، بطرق متباينة، على استدراك كثير من العوائد من الطبقات الملحقة، في الوقت نفسه الذي كانتا فيه مستقلتين غالباً عن بعضهما.

(١) ثمة خلاف حول أصل كلمة شرببة. وفيما يذهب العوام إلى أن أصل الحرب هو ببة وأن كلمة شر تعني: حرب، فإن الدراسات الحديثة تميل إلى اعتبار الحرب نسبة للشرايب أي الزوايا. أو الشربة هي صيحة قتالية ربما كانت خاصة بهم. انظر مثلاً: محمد المختار ولد السعد، حرب شرببة، ص ٦١-٦٣. ولكن النسبة إلى ببة تبقى مطروحة خصوصاً في ظل آثار تحيل إلى هذا، كقصيدة محمد عبد الله ولد البخاري التي يقول فيها:

ولو شاءوا لعادوا عرب ببا وما خدعوا وما قتلوا اغتيالاً

فوجود اسم بب مستقلاً عن «شر» يحيل إلى وجود «بب» كاسم علم في تلك الحرب على الأقل.

(٢) لطالما تم الاعتقاد أن أمر ناصر استمر ما بين ١٦٤٥ إلى ١٦٧٥، ولكن الدراسات الحديثة أثبتت أن الدعوة بدأت في الستينيات، أما مرحلة الحرب فقد دامت أربع سنوات ما بين ١٦٧٤ و١٦٧٧. انظر: كورتين، ص ١٤ من

كانت هاتان القوتان هما: المغفرة الذين وُطدوا أنفسهم حماةً للتجارة وللأهالي وراكموا خبرة عسكرية مهمة؛ أما الأخرى فكانت المجتمعات الزاوية الصنهاجية، وبالأخصّ تاشمشة، الذين بدأ الكثير منهم يتخصّص في التجارة وذاعت في نُخبهم ميول روحية وتعليمية. كان الوضع في أرض الغبلة يشبه تفعيلاً لاتفاقية أبدوكل الأسطورية مع الشيخ الكنتي، حيث يصبح من حق الزوايا والعرب البقاء قوتين معتبرتين ورأسين للمجتمع. وبالطبع كانت هنالك تحديات لهذه الصورة. كان قانون المجموعات المقاتلة في الساحل والجنوب الغربيين كأولاد رزك ولخابشة ولكتيتبات وأولاد امبارك في القرن السابع عشر ضد إبقاء الاعتبار للزوايا، محبّذين فرض المغارم عليهم بالقوة العسكرية والاضطهاد. ورغم هذا، فإن التطور الحثيث للمجتمع الزاوي جعله يحقق اعتباراً واحتراماً.

كان واضحاً أن الزوايا قد أصبحوا قوة إقطاعية مهمة لها أقنانها وأتباعها وتحقق عوائد من سلطتها الروحية إضافة إلى نفوذها التجاري المهم من خلال تغلغلها في التجارة القوافلية والتجارة الأطلسية^(١). ومع ازدياد نفوذهم تحوّلت المكوس إلى موضوع احتقان قوي خصوصاً أن المحاربين بدأوا في فرضها بالقوة. وكان واضحاً أن هذه المكوس كانت عامل القوة والثراء في المنطقة. ويبدو أن تفاهماً سياسياً نهض بين قوى الزوايا على رفض المغارم الحسانية، تجسّد في ميثاق اكننت الذي دعا ظاهرياً لنصرة الدين والتصدي للمظلوم، ولكنه في عمقه كان حلماً سياسياً موجّهاً ضد سيطرة المغفرة بعد التغلب على أولاد رزك، وهو ما شهد هجوماً وتغريماً من أولاد امبارك لبعض قبائل الزوايا^(٢).

وإضافة إلى صعود الزوايا وتذمرهم من المكوس المفروضة، فقد شهد القرن السابع عشر ظهور مدخل قديم-جديد للاستقطاب تمثّل في التحوّل الجديد في المصادر عندما غدت التجارة الأوروبية، الآتية بمختلف البضائع، مصدراً

(١) يذهب البعض إلى تفصيل الصراع في شربة على أنه صراع التجارة القوافلية والتجارة الأطلسية، إلا أن الباحث السوسيولوجي عبد الودود ولد الشيخ يقترح نفي هذا، بدليل وجود عدم تمايز؛ إذ كان بعض الزوايا متغلغلاً في التجارة الأطلسية.

(٢) محمد المختار ولد السعد، حرب شربة أو أزمة القرن ١٧ في الجنوب الغربي الموريتاني، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، موريتانيا، ١٩٩٣، ص ٧٣-٧٥.

للاستثمار وللحسب. وكان التجار الأوروبيون يجدون مصالح كبيرة في التعامل مع البيضان خصوصًا في شراء الصمغ منهم وبيعهم القماش والفضة والحديد والزجاج وغير ذلك من المواد التي كانت إرهابات الرأسمالية تتغذى من المبادلة بها. ولعلّ تدافعًا قام بين الأطراف السياسية-العشائرية والتجارية البيضاء بخصوص الانتفاع من هذه الرأسمالية المبكرة، ما أعطى دورًا مهمًا للأوروبيين في القدرة على تحفيز هذه الصراعات واستغلالها لصالح تجارتهم. وإضافة إلى هذا، فإن توطد التجارة الأوروبية سحب البساط من تحت التجارة البيضاء التقليدية وأضعف «دور الوسيط التجاري للبيضان»^(١)، فضيّق المصادر وحفّز التصارع عليها، إضافة إلى تهديد النظام الغذائي الذي اعتمد عليه البيضان من ما وراء النهر، متمثلًا في الحبوب.

ولا بدّ أن هذا انعكس على رفاه شرائح واسعة من البيضان في ضفة يمين النهر ويمين شماعة، إذ قلّل من عوائدهم وجعل الكثير منهم يعيش تحت مستوى المعيشة الذي كانوا يعيشونه قبل ذلك. ولعلّه أيضًا فعل الاستياء من المغارم وجعله يبلغ مدها ويصبح محسوسًا أكثر مما كان معتادًا، خصوصًا أنه تلازم مع سنوات قحط شديد في أربعينيات القرن. كانت النتيجة الطبيعية لصعود التجارة الأطلسية، أحيانًا على حساب التجارة القوافلية، هي أن حاول بعض نشطاء التجارة القوافلية التحول إلى التجارة الأطلسية^(٢). ولقد حدث هذا التحول فعليًا بنسبة ما خصوصًا وأن السيطرة المغربية على السونغاوي وتلازمها مع سيطرة الرحامنة والبرابيش على الطرق القوافلية أضعف تجارة القوافل، كما بيّن المؤرخ بوبكر باري^(٣)، وإسماعيل حامد. إلّا أن هذا الإضعاف لم يقم إلا لفترة مؤقتة. وربما كانت المشكلة هي أن باب التجارة الأطلسية لم يُفتح للجميع. فانفتح باب إضافي للاحتقان بين المصالح المختلفة في الساحل الغربي: باب التنافس على

(١) نفسه، ص ٦٧.

(٢) رغم استخدام مصطلحات شيعها بوبكر باري وارتبطت به في أمر شربة، إلا أن أطروحة باري لا تزعم أن تحولًا من التجارة القوافلية إلى الأطلسية حدث، بل تقول إن ما نجم هو صراع بين التجارتين.

(3) Boubacar Barry. Le Royaume du Waalo: Le Sénégal avant la conquête. Paris: Karthala, 1985,

الاكتساب من الرأسمالية الأوروبية القادمة عبر المحيط.

ولم تكن أهمية التجارة الأطلسية فقط في أنها كانت تُمدُّ ببضائع جديدة؛ فعلاوة على أنها كانت مزودًا، كانت كذلك مصبًا، للتجارة القوافلية. وكانت تُغذّي تجارات بدت غير مدرّة، أو مدرّة بشكل أقلّ، في غيابها. فمثلاً لعلّ هذه التجارة عزّزت من الفوائد المالية للنخاسة، التي أصبحت تجارة مهمة للبيضان في القرن السابع عشر والقرن الذي سبقه، كما رأينا^(١)؛ وذلك بالذات لأن الفرنسيين، وأوروبيي السواحل عمومًا، شجّعوها ودفعوا مقابلها. وفي الحقيقة، فإن أوّل المجتمعات البيضانية التي تغلّغت إلى مجال السودان في هذه الفترة والفترة التي لحقتها كانت مجموعات إيدولحاج التي كانت تباع العبيد للفرنسيين. ويبدو أيضًا أن هذه هي الفترة التي شهدت فيها تجارة الملح نشاطًا مهمًا، وبدأت تدخل في التجارة الأطلسية عبر المقيضة.

كان صنهاجيو القرن السابع عشر قد وصلوا إلى الساحل الغربي في إطار هجرات لعلّ أساسها كان الاستفادة من التجارة في أرض الغبلة (التي كانت في حينه تعني التمدد الكبير من الساحل في حوض آرغين جنوبًا، وإلى منطقة النهر ونواحي آدرار والبراكنة شرقًا وشمالًا، وإلى المحيط الأطلسي غربًا). وإذا كانت مصالح مجتمع القبائل الصنهاجية التي لجأت إلى المكان قد تعلّقت بتنمية التجارة وتطويرها، إلّا أن مخاوفها ورغبات الاستقلال والسيادة لديها قد تطوّرت كذلك، خصوصًا مع تنامي الأرستقراطية الحربية الحسانية. كان الإمام ناصر الدين هو التعبير المنطوق عن كل هذه الحاجات.



(١) يرفض ولد السعد أطروحة الحاجة إلى الرق للمصالح البيضانية، بحجة أن الرقيق البيضاني كان رقيقًا منزليًا، وأن «استخدامه بالتالي محدود خاصة في أوقات الأزمات الطبيعية والسياسية كتلك التي تعيشها المنطقة آنذاك». (ص ٧٠). ولكن الحقيقة أن تجارة العبيد كانت أكثر أنواع التجارة ازدهارًا في هذه الفترة، كما أسلفنا؛ إذ كان العبيد جزءًا من المقيضة وكانوا يُباعون بنجاح عبر ميناء آرغين للبرتغال. كما أن الحاجة المغربية للعبيد أيضًا كانت محسوسة في عقود الغزوات الشمالية ومتعلقاتها من المحلات في الصحراء. وفي هذه القرون كان العبيد أساسًا بضاعة عابرة أكثر مما هي بضاعة منزلية.

وُلد أوبك بن أبهم، الذي سيعرّف لاحقًا باسم ناصر الدين، لأسرة متديّنة تنسبُ لرجال الدين التاشمشين الذين بدأوا في تطوير نسخة دينية تعتمد الإيمان بالخوارق وبالمعجزات، ويصل فيها المتعلمون والمُصطفون إلى علم لدني يُحصّلون به القدرة على معالجة المرضى وردع المعتدين. كان آباء ناصر الدين علماء هاجروا إلى الكبلّة واستقروا بها، إذ كان جده أمغار الذي شاهدناه يهاجر في فترة تشكّل المجتمع البيضاني الأول من آدرار إلى الجنوب، مؤسّسًا، حسب السرديات الأنسابيّة، لتجمّع أولاد ديمان. ورغم أن عائلة ناصر الدين ظلّت مشغلة بالعلم الديني، إلا أن وضعية العلماء تحدّرت بعد تغيّر السلطة السياسية في القرن السابع عشر؛ إذ قام أولاد امبارك بتجاوز حرمة الزوايا الذين تمتّعوا بإعفاء من الضرائب ومن الاعتداء، ورفضوا إرسال مبدأ «العتق» الذي أقره عليهم أولاد رزك، أول سادة المكان الحسانيين وأمرائه^(١). وربما تعلّق هذا العتق الذي تحدّث عنه اليدالي بحالة تحرّر لأولاد ديمان من أولاد رزك؛ إذ يذكر والد بن خالنا كيف نجح أحد قياديينهم، وهو حبيب بن سبرلّ، في اغتيال سيد من أسياد أولاد رزك هو أحمد بن أوديك بن أبي يعلي الخلفي^(٢). وإذا كان هذا التأويل صحيحًا، فإن المغفرة قد أعادوا إخضاع تشمشة بإلغاء مبدأ العتق. وكانت القيادة الديمانية من أوائل المتضرّرين من فقدان امتيازات واحترام رجال الدين التمشين من قبل المُحاربين. إلا أن هذا فقدان قد قوّى في داخل المجتمعات المتعلمة من نفوذ العلماء؛ إذ آوت إليهم المجتمعات المضطّهة بحثًا عن قدراتهم وخوارقهم وبركاتهم واحتماءً بهم.

وُلد أوبك بن أبهم في هذا السياق وسرعان ما حقّق اسمًا متألّفًا، وأصبح رائد الإسلام البركي مازجًا ما بين العلم والبصيرة والبركة. ولكن سلطته السياسية ستأتي من الأخيرتين، فهو لم يكن مُدرّسًا وإنما كان قائدًا سياسيًا وعسكريًا. ظاهريًا لم يكن ناصر الدين جذابًا. كان، بحسب ممجّده الأول وأحد ورثة تراثه، رجلًا «قصيرًا، مائل الأنف، أفجح الساقين، جعد الشعر»، ولكن كارزميته كانت

(١) اليدالي، شيم الزوايا، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ٨٢.

(٢) والد بن خالنا، ص ٢.

تعوّض عن أيّ اقتحام محتمل للعين له. واعتقد أتباعه أن النور الساطع يعلو وجهه. وكان هو نفسه ورعاً وتقياً، وفوق كل هذا كان ماهراً وفارساً يشارك في كل المهارات^(١)، مكرّساً نموذج الفتوة عند مجتمع الصحراء حيث يبرعُ الفتى في كلّ المهارات. وكان لديه إحساس وإيمان بكراماته، فكان يعرض بركاته على الزوايا قائلاً: «إن لم تتقبلو بركتي فسأعطيها للبهائم والأشجار». وشاعت الأحاديث بقدراته المافوق-طبيعية وتمّ تداول الروايات عن قدرته على معرفة ضمائر الناس، وتحديد الشقي من السعيد، وقدرته على البرء والشفاء، ورؤية ما تحت الثرى، والإبلاغ عن التراب هل أكل جثّاً بعينها أم لم يأكلها، ما يبدو أنّه دليلٌ على الولاية^(٢). على العموم، لقد كانت سلطته كاريزمية وروحية نسجها من ارتباطه بالمخيال الديني و«شيم الزوايا» وحياسة شخصية أساسها الخصوصية الدينية، إذ كان يوحى بارتفاع مقامه إلى مقام يشبه النبوة عندما كان يقول ما معناه: «آه من الحكم النبوي بأنه «لا نبي بعدي [أي محمد ﷺ]»^(٣). وقد صرح بأنه تلقى مكاشفة وتواصلاً إلهياً وكوشف له عن أهل الجنة والنار^(٤). واعتبر اليدالي، مغذي أسطوره وممجّده الكبير، أن الخضر عليه السلام كان «يلازمه في جماعته ولا يكاد يفارقه»^(٥). وقد قضى ثلاث سنوات في تربية أتباعه على هذا، فحقّق دويّاً بدخول أفواج من المتديّنين في حركته في إطار موجات من «التوبة». وكان هؤلاء التائبون يتحلّقون حوله كلّ الوقت يلازمونه^(٦).

عند تشكّل هؤلاء الأتباع ظهر أن ناصر الدين لم يكن مجرد زعيم ديني، بل كان قائداً تنظيمياً ماهراً. فقد قام، عندما بايعه زعماء القبائل الزاوية وأهل الحل والعقد^(٧) - مثله مثل عبد الله بن ياسين - بإعادة تنظيم العوائد المالية التي كان

(١) اليدالي، أمر الولي ناصر الدين، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ١١٨، ١٦٤.

(٢) نفسه، ص ١١٩-١٢٥.

(٣) «يلال يابوك، أيلالي آل لا نبي بعدي»، (ولد السعد، شربة، ص ٩١).

(٤) اليدالي، أمر الولي ناصر الدين، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ١١٩.

(٥) نفسه، ص ١٣٥.

(٦) نفسه، ص ١٢٦-١٢٧.

(٧) نفسه، ص ١٦٤.

يتلقاها باعتباره زعيمًا روحياً؛ وبدلاً من أن يقوم باستخدامها في بناء هبة أميرية كما كان يفعل الأمراء في المجال، فإنه على العكس من هذا حافظ على تقشّفه وحوّل العوائد إلى مجال الدفاع عن «الكيان الإسلامي الآخذ في النشوء»، كما شرع في تنظيم أتباعه وطبّعهم على التضحية^(١).

كثيراً ما يكون الزعماء تعبيراً عن الديناميكيات الاجتماعية، وغالباً ما تكون كاريزماتهم تجلياً لإرادات اجتماعية وسياسية. كان ناصر الدين تعبيراً عن ثلاث رغبات قوية في مجتمعه: رغبة في تنظيم مجتمع الزوايا وهو أمر بدأه بتحدي سلطة المرأة في المجتمع الزاوي، إذ «ألزم النساء منازلهن فلا يُرى لهن شخصٌ ولا يُسمَع لهن صوتٌ»^(٢). ورغم أن حركته لم تؤثر كثيراً في وضع المرأة، حسب تقدير المؤرّخ نوريس، إذ بقي الانتساب للأم شائعاً^(٣)؛ إلا أنه كان ينطلق من ذكورية أرثوذكسية واضحة. أما الثانية فكانت البحث عن مصادر للدخل في مجتمعات السودان، وربما التجارة الأطلسية، في الجنوب وعلى السواحل. وكانت الثالثة تتعلّق بالتصدي لسطوة المحاربين الذين صاروا يسحبون البساط من تحت تشمشة.

ولا بدّ أن ناصر الدين كان يحتاج لفرض نفسه قائداً متنقداً لكي يقوم بكلّ هذا. وهو أمر تحصّل بالتدريج وبالمراحل، وقد ترجمه أوبك بتطوير ألقابه السلطوية عند كلّ محطة سياسية جديدة. فقد بدأ تعميده قائداً معترفاً به من الجميع عندما بويغ إماماً تحت الشجرة، وعندما راهنت عليه الأصوات المجتمعية القلقة من الزوايا وسلّمت إليه أمرها في إطار حركة إقبال شعبية كبيرة عُرفَ عامها بـ «عام التوبة»^(٤). ورغم قاعدية الحركة الشعبية الزاوية، إلّا أن فعل تنظيمها كان غالباً فوقياً. فقد قام ناصر الدين بوضع نظام بلاط وديوانٍ جديد على الصحراء، فعين ثلاثة مستشارين كان أحدهم يجلس عن يمينه هو الماحي بن الفاضل، وواحد عن يساره هو محمد بن اجفغ الأمين، ووراءه كان يجلس المختار ولد

(١) ولد السعد، شربة، ص ٩٢.

(٢) اليدالي، أمر الولي ناصر الدين، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ١٢٧.

(3) Norris, Zenaga Islam, 510.

(٤) اليدالي، أمر الولي، ص ١٢٧.

أبوبك. كما قام بتعيين قضاة مقرّبين منه هم الفاضل بن محمد بن أبي الفضل الحسني، والفاضل بن المختار باركللة، والحبيب بن الحسين. أما الشخصيتان المركزيتان في بطانته فكانتا الوزير أبهم بن أحمد الذي سمّاه بالقاضي عثمان ومحمد بن حبيب الله الذي عينه قاضيًا وأسبغ عليه صلاحيات أوسع من بقية القضاة عندما سمّاه «قاضي المجلس» وأعطاه امتيازَ الحكم في حضرته؛ كما عين ثلاثة مستشارين آخرين^(١). ورغم أن إنشاء بلاط عشائري كان خطوة مستعارة من تقاليد بلاد السودان، إلا أنها استندت أيضًا على التقاليد المرابطية^(٢). ولم تخلُ فلسفة ناصر الدين من تصوّر للمظاهر والأسماء الرمزية للقائد فابتكر ألقابًا تكرّس سلطته، وقام -في كل مرة أحسّ فيها أن نفوذه قد زاد- بإطلاق لقب جديد لتأكيد ذلك النفوذ. فبدأ أولاً باتّخاذ لقب «سيدنا» في فترة بزوغ قيادته بين قومه، ولكنه سيطّوره مرارًا في السنوات اللاحقة^(٣).

إذا كان ناصر الدين قد ظهر غالبًا، إن لم يكن أساسًا، على أنه زعامة روحية في مجتمع زوايا الغبلة التاشميشيين، إلا أنه ظهر أيضًا شخصًا يتطلّع لطموح سياسي لم يستبعد القوة الحربية. فبعد التأسيس التنظيمي لنواة مشروع مجتمعي جديد بدأ مشروع التحدي والمقاومة الذي كان من أولوياته بناء مجتمع محارب قادرٍ على الدّب عن نفسه، وبدأت جهوده تتركز على تجميع المحاربين وتهيتهم في الوقت نفسه الذي كان يحافظ فيه على خصائصهم الأيديولوجية من حيث هم متدينون وممارسون للتدين العمومي^(٤). وتعبيرًا عن توسّع سلطته إلى مجالات عابرة لدائرته المحيطة، حوّل لقبه من «سيدنا» إلى «إمامنا». وقد تلقى في هذا الإطار مددًا من الزوايا المجاورين من خارج رهطه فانضموا إلى مشروعه، ومدّوه بالخيّل والسلاح، استعدادًا لأي مستجد^(٥). بل إن الزوايا البعيدين في آردار من إيدولحاج في أوجفت- الذين كانت علاقاتهم التجارية متوطّدة مع الغبلة- بدأوا

(١) اليدالي، أمرالولي، في نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ١٢٨-١٢٩؛ ولد السعد، شربة، ص ٩٣.

(2) Norris, Zenaga Islam, 511.

(٣) اليدالي، أمر الولي ناصر الدين، ص ١٢٧.

(٤) ولد السعد، شربة، ص ٩٣-٩٤.

(٥) نفسه، ص ٩٤.

يدعمون مشروعه^(١). ورغم التوسع إلى ما وراء العشيرة، فقد كان البعد الإيماني لهذه القوة أمرًا ملاحظًا: وبدأ تخريج «قيم الزوايا» إلى العلن فيما يشبه ظاهرة «الجهر بالدعوة» في التراث النبوي. وكان حرص ناصر الدين على هذا البعد النبوي أساسيًا؛ إذ حرص على تجسيد المتخيل الاجتماعي لمجتمع الصحابة الأول. وفي هذه الفترة صرح بأن مجتمعه الجديد يشبه مجتمع الصحابة، قائلاً: «نحن من الصحابة يوم القيامة كشبه الغراب بالغراب». كما استند أيضًا على الإرث الصحراوي باتخاذ لقبه الذي اشتهر به، لقب ناصر الدين، الذي أحياه من تقاليد المرابطين في الصحراء^(٢).

رغم انتصارات ناصر الدين الكاريزمية والنفسية والمجتمعية، إلا أن فكرة تأسيس زعامة قومية صنهاجية في أرض الغبلة تنضوي تحت زعامة تشمشية لم تكن دومًا فكرة مقبولة لدى كل مجتمع الغبلة؛ بل بدأت تواجه دفعًا مضادًا. ولم يأت هذا الدفع حصراً من القوى الحسانية المضادة بل ومن داخل بعض مجتمع البربر؛ بل وحتى من داخل الحركة الجديدة التي لم تندر في وسطها قوى غير متسرعة للمواجهة وللتسلط. وكانت تُعبر عن هذا الحذر بلغة دينية صرفًا. ففي وقت مبكر ظهرت أصوات متذمرة تعتقد أن نوايا الجهاد غير مبررة دينيًا باعتبار نوعية الخصوم في الغبلة، الذين هم -بالنهاية- مسلمون. ونعرف حتى بعد «شربة» أن نقاشًا علميًا جال في مجالس الزوايا حول تصنيف بني حسان. وقد سُئل كلٌّ من الفقيه حمي الله التيشيتي والقصري عن المغفرة: هل هم مسلمون. وقد عبّر عن الانقسام الأيديولوجي الزاوي تجاه هذه المسألة، حيث رفض الأول تكفيرهم، بينما عمل بمقتضاه الأخير، الذي كان يُطابق صفة «المسلمين» مع «الزوايا»^(٣). وفي مناطق بعيدة عن الغبلة كان هذا التذمر من داخل علماء الدين يُعبر عن نفسه في القوى المدنية المتعلّمة كابن الأعمش بشنقيط، وهو ما أثار لاحقًا نقاشًا خارج أرض الغبلة عندما ردّ أبو بكر الهاشم الغلاوي على انتقاد ولد

(1) Paul Marty, 1919, L'Emirat des Trarzas, Paris: Editions Ernest Leroux, 1919, p. 43;

(2) ولد السعد، شربة، ص ٩٤؛ اليدالي، أمر الولي، نصوص، ص ١٣٤.

(3) كما سنرى ذلك لاحقًا.

بلعمش لناصر الدين^(١). ومهما يكن من أمرٍ، فقد كان واضحًا أن الكلّ لم يكن موافقًا على مشروع المواجهة الذي يجد أسبابه في تدافع المصالح الاقتصادية والاختلافات الفئوية والثقافية-الأيديولوجية.

من جهته كان ناصر الدين حصيفًا فلم يقل بكفر المغفرة إلا بعد اشتعال الحرب معهم، وإن كان عداؤه السياسي، واستعداؤه العسكري لمواجهتهم، قد بدأ قبل ذلك بفترة. ففي فترة معينة من تطوّر الدعوة وصل عدد مقاتليه إلى الآلاف، وتحديداً ما قدرته المصادر بـ ١٢٠٠٠، وهو رقم يبدو كبيرًا جدًا، إن لم يكن مبالغه. ولنا أن نخمّن أن هذه القوة، بغضّ النظر عن عددها الحقيقي ومعيّار اعتبارها «جيشًا»، قد أعطت ثقة كبيرة للحركة الزاوية وحلفائها، وحفّزت قادتها على العمل؛ فبدأت مباشرة في تصعيد المواجهة ضدّ خصومها المحتملين. وتصادفت هذه الفترة التي تجاوزت فترة تجميع القوة إلى مرحلة الدفع بهذه القوة إلى الأمام، مع اتخاذ ناصر الدين لقبًا أميريًا جديدًا، حيث تسمّى بـ «مشيع الدين». وكرجمة لهذا اللقب الذي يحمل أبعادًا جهادية بدأت حركة ناصر الدين- المليئة بالطامحين للكسب من الجنوب، خصوصًا في ظل تزايد الجفاف وزيادة المداخل من الجنوب- في التوجه إلى الممالك السودانية الصغيرة لتطبيق مبدأ الجهاد ضدها.



لعلّ رغبة المجتمع الصنهاجي في التوسع جنوبًا قد بدأت منذ أواخر القرن السادس عشر على الأقل من خلال أسلمة مجتمع امبول، الأسود المزراع، وإدماجه في السلطة الروحية للشريف بوبزول وإنشاء مجتمع تيكماطين الذي ضمّ قرى عديدة^(٢). وابتداءً من عام ١٦٧١ كانت شروط التوجّه إلى بلاد السودان جاهزة، فالجفاف كان يضرب في أرض الغبلة وأصبحت التجارة والموارد الزراعية أساس الشراء والتمكّن والصعود^(٣)، وهو ما كانت تضمنه الأراضي

(1) Ould Cheikh, *Nomadisme, Islam et Pouvoir politique*, 3, 1002.

(2) James Webb, *Desert Frontier*, 31.

(3) ولد السعد، شربة، ص ١٢٢.

المحاذية للنهر؛ إذ كانت توجد بها محطات تجارة العلك، الثروة الوليدة، التي كان بإمكان المتحكم بها ترجيح كفة السيطرة على التجارة لصالحه. ولعلّ الزوايا، بغضّ النظر عن القيمة الاستراتيجية للسودان، لم يجدوا فضاءً مفتوحاً إلا في الجنوب السوداني. وكان البحث عن مقام في القرى السودانية أسهل كثيراً من مزاحمة البدو المتمرسين في القتال من بني حسان^(١)، وفوق هذا فقد كانوا يجدون مدداً من القبائل البعيدة المتاجرة، ذات العلاقات التجارية مع السودان ومع تجار السواحل، كإيدولحاج في آدرار وفي أوجفت تحديداً، حسب ما ذكره الفرنسي لو مير في رحلاته^(٢). وربما كان الأمر يتعلّق بتحالف تجاري-عسكري.

في شمال أرض الغبلة كان المغافرة سادة التبادل التجاري من خلال حوض أرغين الذي دال لهم بعد تنفّذ الصنهاجيين فيه قبل قرن ازدهر فيه التبادل مع البرتغاليين، وكان على القوى الزاوية الوليدة سياسياً والمُزاحة جغرافياً البحث عن مصادر دخل بديلة. كان تواصل المشايخ الزوايا مع السودان قد أوجد علائق السلطة والسياس الذي يمكن أن تحدث فيه شروط التحكم في الجنوب. وكان دعاة الزوايا قد وجدوا منذ القرن السابع عشر أرضية مشتركة مع المتدّمرين من المزارعين في أرض السودان. وفي السنوات اللاحقة بدأت دعوة ناصر الدين تُركّز على أرض السودان عندما أرسل سبع بعثات دعوية إلى الملوك السودانيّين، يدعوهم فيها إلى التوبة وإلى الدخول في حركته الدينية، وإلى دفع الجزية. ويبدو أن هذه الدعوات قد أزعجت ملك الفوتا الذي استشعر خطرها وأنذرها بعدم العودة للبلاط^(٣). هل كان سبب هذه البعثات أن تشمشة شعروا بتهديد تجارة سان لويس الناشئة في ميدان العبيد؟ ربما.

بعد الفشل في استقطاب النبلاء السودان أدرك التشمشيون أنه من الأفضل لهم

(1) Paul Marty, 1919, L'Emirat des Trarzas, Paris: Editions Ernest Leroux, 1919, p. 41; Nehemia Levtzion. North-West Africa: from thr Maghrib to thr fringes of the forest. in Richard Gray (ed.)The Cambridge history of Africa. Vol4: from c. 1600 to c. 1790. Cambridge: Cambridge University Press, 1975, 200.

(2) Paul Marty, 1919, L'Emirat des Trarzas, p. 43;

(٣) ولد السعد، شربة، ص ١٢٢.

التوجه إلى العوام السودان، وبدأت دعوة ناصر الدين تُركّز على المزارعين والفلاحين الذين كانوا يخضعون لاستغلال الأسياد وملّك الأراضي والمحاربين الذين كانوا يفرضون عليهم المغارم الكثيرة ويثقلون كاهلهم بالعبودية. وبدأت دعوة تشمشة تحمل وعودًا كبيرة بالتغيير. وفي الأوساط الفلاحية فيما وراء النهر كان الإسلام التشمشي المبني على الكرامات والبركات يتحرّك بسهولة في مجتمع مبني على الوثنية المكلفة اقتصاديًا والمثقلة لكواهل البسطاء، حيث سادت ثقافة القرابين وتحكّم الآلهة في المحاصيل وتسييرها للموارد شحًا وخصبًا على ضوء تمايز علاقات الآلهة بالبشر. وربما عانى الفلاحون والمزارعون من النسخة المحلية من الوثنية السياسية التي فرضت عليهم القرابين والتضحية بالمحاصيل. وبالإضافة إلى هذا التذمر المعرفي-السياسي، فإن ثورة ناصر الدين كانت ثورة براغماتية؛ إذ عاندت بيع العبيد الذي كان أساسيًا لدخل الممالك السودانية. ورغم أن الحركة لم تحرّم العبودية مبدئيًا، ولا باعتبارها نظامًا اجتماعيًا، إلا أنها تعادت مع الآليات التي تسمح للأرستقراطية العسكرية باستغلال المزارعين وتعبيدهم^(١).

ويبدو أن هذه الدعوة تنامت بسرعة وفشت فيما يشبه الثورة، خاصّة وأن ناصر الدين ذهب بنفسه إلى القرى السودانية مترعًا حركة الوعظ العام وداعيًا إلى التوبة والدخول في الإسلام ومتحدّثًا عن العدالة والخير الذي سيأتي مع التوبة. ولم تكن زيارته رمزية؛ وإنّما انتقل من قرية إلى قرية محققًا أتباعًا بالمئات. وكان، كما نقل عنه معاصر له، يُشاهد وهو: «يمشي من قرية لقرية ويعظ في الساحات العامة [...] بأن الله لم يسمح للملوك بالنيب والقتل وأسر رعاياهم، وأنه على العكس من ذلك أمرهم بالدفاع عنهم وحمايتهم من أعدائهم، وبأن الرعية ما خلقت للملوك بل إن الملوك خلقوا للرعية»^(٢).

بعد أكثر من سنتين من العمل النشط في السودان، وتحديدًا في عام ١٦٧٣،

(1) Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique, 3. 81-882..

(٢) شامبونو في:

John Kelly Thornton. Africa and Africans in the making of the Atlantic world, 1400-1800.

Cambridge: Cambridge University Press, 1998, 314.

وصلت هذه الدعوة بقيادة النحوي الاديبي، أحد أبرز قواد حركة ناصر الدين، إلى مشارف بلاد ملك الفوتا وفَشَتْ في بلاده بسرعة وغيّرت موازين الولاء، وأضعفت الإمارة السودانية، واستلمت السلطة في المناطق التي هرب منها إقطاعيو الممالك النهرية، وعُصِّمت الدعوة إلى بقية الممالك السودانية، التي رفضت المد التشمشي وأرادت مقاومته. كان نفوذ ناصر الدين قويًا شعبيًا؛ لذا لم يجد صعوبة في طرد ملك الجولوف (الولوف) في العام نفسه. وقد عاد مجدُّ هذا الفتح إلى قائد تاشمشي آخر هو الفاضل بن أبي يعدل الذي وقَفَ في وجه الأمير الولوفي ونجح في طرده. ولكن الأمر لم يحدث بسيناريو ثوري مطلق، بل بانقلاب بلاط تمّ فيه التحالف مع فرد في أسرة الملك الجولوفي الهارب هو سرنك، الذي صار وكيلاً للزوايا. وبفضل تعاونه قام ابن أبي يعدل بتعيينه واليًا محليًا.

وبالسيطرة على المملكتين السودانيتين أصبح ناصر الدين القوة الأساسية في المنطقة بعد إمارة كايور، جنوب النهر، التي عرفها البيضان باسم «انسيغان»، والتي كان يحكمها البراك (تعني الأمير) فارا. ولكنها لم تكن بمأمن. ففي العام نفسه الذي سيطر فيه الزوايا على الفوتا والجولوف، في عام ١٦٧٣، عبرت قوات ناصر الدين إلى انسيغان لمتابعة فتوحاتها. واستطاع البراك القوي صدّ الهجوم مؤقتًا وهزيمة قواتهم التي بلغت ما بين ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ مقاتل. ويبدو أنه حقّق انتصارًا آخر شبيهًا بذلك، وإن بقي الزوايا مصرّين. وفي المواجهة الثالثة قادوا سوادًا من مقاتلي التوبنان، الثائرين على فارا، واستعادوا زمام المبادرة وهزموا كايور. ودخلت جيوش تاشمشة الممالك السودانية فاتحة^(١).

بطبيعة الحال، لم تكن سنوات الحروب هذه بلا أثر اجتماعي في الزوايا. ويبدو أن طبقة محاربة منهم بدأت تتبلور في هذه المرحلة. فصحيح أنهم كانوا يمتلكون السلاح والخيّل لدواعي الدفاع أو التجارة كما تدلّ عليه وضعية المدن التجارية في القرن الرابع عشر، ولكن الفتوحات السودانية صنعت فيهم نواة أولى

(١) اليدالي، أمر الولي ناصر الدين، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ١٣١؛ ولد السعد، شربة،

لأرستقراطية مقاتلة وجهادية، وقد صارت هذه العناصر راغبة في الفتوحات. وكان هذا حال مجموعة مقاتلة من أولاد الحاج بقيادة الفاضل بن محمد الكوري، التي أتت إلى ناصر الدين طالبةً منه ترخيصًا بغزو الوالو (شمامة)، الواقعة على ضفاف النهر. وعندما حصلت على مبعها تمكنت من مباغته حاكم الوالو، بوركر، وقتله بعد فراره، وتملكت أرضه^(١). ومن الواضح أن قواد ناصر الدين الكبار أمثال أبي الفاضل الكوري، وأبنهم أحمد أغد المختار، اللذين دمرا سلالة تانغلة، والنحوي، القادم من البراكنة، والفاضل بن أبي يعدل؛ قد أصبحوا من أسياد الحرب. وإلى هؤلاء انضم حلفاء محليون في السودان أمثال انجاي سيلا من الولوف وقريبه حبيب الله سيلا، اللذين عيّنهما ناصر الدين قوادًا للمناطق المفتوحة^(٢)، إضافة إلى سرنك وانجاس صال، اللذين صاروا حاكمين على الجولوف والكايور^(٣).

كان لدخول التاشمشين في الممالك السودانية آثار بعيدة، فقد قلبوا معادلة سيطرة الزنوج الذين هزمهم قبل عقود وطردوهم إلى آدرار. وكان دخولهم فوتا تورو وبقية الممالك يسمح هزيمة طويلة للبيضان في يمين النهر قاموا بتعويضها عندما دفعوا بالزنوج إلى ما وراء الضفة منتهين توسع بلاد الوالو إلى الضفة النهر اليمنى. كان البيضان يدفعون المغارم للسودان في يمين النهر، ولكن شيئًا ما استيقظ فيهم وجعلهم يقلبون الوضعية، وفيما أرجعه إداري وكاتب فرنسي في القرن الثامن عشر إلى تلاحم البيضان وتعاضدهم وعدم بيعهم لبعضهم، بعكس السودان، فإن عامل الأيديولوجيا والمصالح التي أيقظها اقتصاد المغازي قد غاب عن خاطره تمامًا^(٤). ومن الواضح أن انتصار الزوايا لم يكن انتصارًا عسكريًا صرفًا، بل كان مدعومًا بالسلطة الروحية. فقد بدا تأثيرهم واضحًا من خلال حركة التوبنان التي سيطرت على الأمر في الممالك السودانية، وأصبح قادتها

(١) اليدالي، أمر الولي ناصر الدين، ص ١٣١-١٣٣.

(2) Paul Marty, 1919, L'Emirat des Trarzas, Paris: Editions Ernest Leroux, 1919, p.42-41

(٣) اليدالي، أمر الولي ناصر الدين، ص ١٣١-١٣٢.

(4) Antoine Edme Pruneau de Pommegorge. Description de La Negrite. Amstrdam, 1789., 8.

يقلّدون الأئمة التشمشين حتى في اتخاذ لقب «إمام»^(١)، الذي سيبقى حاضراً في المجال لفترة، حتى بعد انهزام التوبنان. وكان تأثير البيضان الروحي محسوساً في الحياة اليومية فيما وراء النهر. بل إن لأكورب الذي زار المنطقة في عام ١٦٨٥ بعيد الأحداث التشمشية، تحدّث عن أضرار هذه السلطة الروحية. وحسب روايته، فقد غرر دعاة البيضان بالمزارعين السودان عندما نجحوا في إشاعة عقليتهم الدعوية الفاتحة، فكسبوا ودّ المزارعين المضطّهادين، الشاكين دوماً من نير الأسياذ ومن العمل اليومي المُضني، وأقنعوهم -حسب الزائر الفرنسي- أنهم سيستريحون من المجهود اليومي بمجرد اعتناق الإسلام؛ إذ سيرزقهم الله دون حساب وستنهال عليهم البركات ومحاصيل القمح من دون مجهود شاق. وقد صدّقهم هؤلاء المزارعون الذين وصفهم لا كورب بـ «المساكين الأغبياء»^(٢). ورغم أن القصة لا تبدو مقنعة لمؤرخ موريتاني هو محمد المختار ولد السعد، إلا أنها تصبّ في اتجاه قوة الأيديولوجيا التشمشية وتغلغلها في الساكنة الزراعية التي ما كان مقلب الممالك السودانية ممكناً دون تعاونها.



لم تغيّر انتصارات الزوايا في الجنوب السوداني فقط من تركيبتهم ووظيفتهم الاجتماعية، بل وغيّرت من نظرتهم للسياسة في شمال أرض الغبلة، ما انعكس على احتمالات الاحتكاك العسكري مع القوى الحسّانية المُزاحمة على المكاسب وصاحبة الوظيفة العسكرية التغريمية الحمائية. فقد شجّعهم فتوحاتهم على التحوّل إلى أرستقراطية أولية متأثرة وحامية للمخزون الزراعي، وفتّحت فيهم مطامع سلطوية عندما تحوّل بعضهم إلى أسياذ حرب. ونتيجة لهذا، فإن أصوات المواجهة مع المغافرة كانت تعلو من طرف صقور الحركة الدعوية، وخصوصاً المقرّبين من ناصر الدين كإخوته وابنَيْ عميه، إلّ وبوميح. وربما نتيجة لهذا بدأ ناصر الدين سياسة خطيرة عندما حاول ابتعاث قوة أولاد رزك المنهزمين منذ الثلاثينيات من قبل المغافرة، الذين كانوا أكثر رافة بتاشمشة، كما رأينا، والذين

(1) Hamet, 159-160.

(2) De la Courbe, 132-133.

أضحوا الآن مشرّدين ومنزوعي السلاح وهجروا القتال وأصبح أكثرهم «طلبة» أو «تياّباً»، فاتصل بهم وسلّحهم وأمدّهم بالخيّل وعقد معهم اتفاقاً تعهّدوا فيه بالقتال معه^(١). وفي عام ١٦٧٣ تقريباً قطع هذا المشروع خطوة عندما قرّرت حركة ناصر الدّين التّقدّم بخطوة لفرض الزكاة على المغافرة، محاولةً فرض نفوذها. ولعل هذا الخطوة لا تُفصل عن مخاوف الزوايا من دخول بني حسان على خطّ التجارة القوافلية واعتراضهم للقوافل في الشمال. ولكنّها، أكثر من ذلك، توحى بتحليلهم أنّهم تجاوزوا المغافرة في القوة والنفوذ.

وحتى قبل هذه التطورات كان الاحتقان قد بدأ يعتمل وذلك عندما استشعر بنو حسان الخوف من الإحيائية الإسلامية التي قد تترجم إلى سلطة عسكرية-اقتصادية للزوايا. وكانت هذه الإحيائية تحمل في جوهرها حيناً لمشروع المرابطين وإعادة القوة اللّمتونية التي أشار إليها اليدالي في تأويله لبعض كرامات ناصر الدين^(٢). وفي الوقت نفسه الذي كانت تتصاعد فيه الأصوات الداعية للمواجهة في صفوف الزوايا، فإن الأصوات الداعية للوقوف في وجه دولة ناصر الدين كانت أيضاً تعلو في صفوف المغافرة. ورفض المغافرة أية محاولة من الزوايا لتمرير مشروعهم سلمياً. فعندما أرسل ناصر الدين مفاوضيه إليهم للوصول إلى صيغة لا يتعرّض فيها الحسانيون لدعوة ناصر الدين، فإن هؤلاء رفضوا المناورة بقوة من خلال زعيمهم، محمد بن عبد الله المغفري.

ويبدو، بحسب الآثار الشفاهية والأسطورية التي علقت في الذاكرة، أن تورّط المقاتلين الحسانيين نبع أساساً من استصراخ اللّحمة لهم، وذلك حسب المرويات الشعبية عن استنجد مانع زكاة يدعى «بب» بالأمير هديّ لإنقاذه من فريضة الدفع لناصر الدين^(٣). ورغم أن اليدالي، المصدر الأساسي المكتوب للأحداث، لا يحيل إلى هذه الرواية، ما قد يدلّ على أنّها وضع لاجق، إلا أنه يحيل إلى أن موضوع الزكاة أخذ في التحول إلى موضوع احتكاك بين طرفي الأرستقراطية،

(١) اليدالي، أمر الولي، نصوص من التاريخ، ص ١٣٥.

(٢) نفسه، ص ١٣٥-١٣٩.

(3) Levtzion. North-West Africa, 200.

الزوايا وحسان. كان الزعيم الحساني، هَدْي، رأس الحربة في مشروع التصدي للزوايا وتوسُّعهم. أما الزوايا فقد نجحوا في أن يضعوا ملف الزكاة على النقاش باعتباره فرضاً إسلامياً هم المكلَّفون بتنفيذه وجبايته. وبالفعل، بدأوا في إنفاذ بعث جُباة للزكاة في المجال. وأمام «إسلامية» هذا الفرض نشأ سباق تسلح فقهي؛ فقد استطاع هَدْي استصدار فتوى مضادة تُجَوِّزُ محاربة الزوايا وقتالهم في حال محاولتهم التعرُّض لحسان أو فرض أي قانون عليهم. وقد اعتبر مُصَدِّر هذه الفتوى، القاضي الحاج عبد الله ولد بوب مختار الحسني (من قبيلة إيدابلحسن)، أنه ينطبق عليهم حكم الصائل، الذي تجب محاربته وقتله^(١).

ولم يكن غرض هَدْي من استصدار الفتوى دفاعياً فحسب؛ فقد قضت فتوى العالم أن ناصر الدين ليس خليفة للمسلمين وأنه لا يجوز دفع الزكاة له. وأكثر من هذا، حصل المغفرة على فتوى من القاضي الحسني بإباحة أموال الزوايا ودمائهم^(٢). وربما كانت فتوى العالم عائدة إلى خلاف بينه وبين ناصر الدين الذي صرَّح قبل سنوات أنه لن يصلي خلفه. وهو التصريح الذي وجد اليدالي، كالعادة، أسباباً استشرافية له تتعلق بقدرة ناصر الدين على معرفة أن العالم الحسني سيشارك في مذبحه الزوايا. ومهما يكن من أمر، فإن العالم كان كبير الوزن وقد حجَّ إلى مكة في عام ١٦٦٦^(٣). وكون ناصر الدين قد رفض الصلاة خلفه هو مما يوحي بمقامه الإمامي. ومهما يكن من أمر، فقد كان لفتواه أثرٌ وتداعيات مهمة؛ ذلك أنها ساهمت في تحييد بعض القوى الزاوية من الصراع كأدوجان الذين انسحبوا من الحرب الوشيكة^(٤). وتصادف هذا مع نجاح أولاد عبد الله، مغفرة البراكنة الأقوياء، في لجم الزوايا في مجالهم عن الانضمام لناصر الدين^(٥).

وبناءً على الفتوى، أو تزامناً معها، أرسل الأمير هَدْي فرساناً لانتزاع الشياه

(١) ولد السعد، شربة، ص ١٢٥.

(٢) اليدالي، أمر الولي، ص ١٥٣-١٥٤.

(3) Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique, 3, 836-837.

(٤) ولد السعد، شربة، ص ١٢٥.

(5) Levtzion. North-West Africa, 200-201.

التي تمّ دفعها لناصر الدين من قبل قبيلة تاشديت الزاوية التي كانت تقع تحت حماية هديّ. وهكذا هاجمت عناصر من عزّونة (وهم ذراع ضاربة في مغارة الغبلة انتسبت إلى أعلي بن تروّز وتفرّج إلى أولاد أكشار وأولاد بنيوك ولكباعات) جباة ناصر الدين وانتزعوا منهم أموال الزكاة، وقاموا بفقء عين أحد الجباة أمسكوه عند المعسكر، هو همد بن فاج الذي كان أيضًا قائدًا من قواد حركة ناصر الدين^(١). وفي الوقت نفسه بدأت عناصر حسانيّة تقدّم موقفًا راديكاليًا على غرار موقف هديّ، فقبل هذه المعركة رضيت مجموعات من المغفرة بتسليم الزكاة للزوايا وذلك في تفاوض مع قائدين من قواد ناصر الدين، ولكنهم عادوا وتراجعوا عن الأمر بعد تصلّب الموقف الحساني^(٢).

أتاحت آخر فرصة للسلام بوفد أرسله ناصر الدين لاستفهام الموقف من فقء عين الجابي ورفض دفع الزكاة. ولما قوبلت البعثة بالرفض والممانعة نشبت الحرب رسميًا في عام ١٦٧٣. في صفوف الزوايا شاب تردّد وعدم ثقة لدى البعض، ولكن الراديكالي الفاضل بن أبي الفاضل الحسني حسم التردّد وهزم المتلكئين^(٣). وهكذا في عام ١٦٧٣ بعث الزوايا بجيشين للهجوم على المعسكر الحساني. ويبدو أن الحسانيين قد أعادوا تموقعهم توقُّعًا للهجوم، فعندما وصل الجيش الزاوي القادم من جهة الغرب، وكان يقوده القائد التاشمسي القوي، القاضي عثمان، لم يجد أحدًا أمامه. أما الجيش الآخر الذي قدم من جهة الشرق الذي قاده محم ولد جبة البارتيلى والمصطفى ولد اخطيرة، فقد اصطدم بعناصر حسانية هي مقاتلون من أولاد داوود بن عمران وأولاد اخليفة بن مغفر، فدارت بينهم معركة انتيجي (أربعين كيلومترًا من بوتلميت الحالية). ومن الأرجح أن هذه المعركة دارت في إطار صراع على التحكم في بعض المنافذ الاقتصادية قرب إحدى المحطات أو الموانئ التجارية^(٤). ولم ينقش الغبار إلا عن انتصار الزوايا

(١) اليدالي، أمر الولي ناصر الدين، ص ١٦٤.

(٢) اليدالي، أمر الولي، ص ١٦٤-١٦٥.

(٣) نفسه، ص ١٦٦.

(4) Levzion. North-West Africa, 201.

الذين عادوا منها بالغنائم^(١). دارت كل الحرب بالسلاح الأبيض ولم يلعب الطلق الناري دورًا كبيرًا فيها؛ إذ يُحكى أن كل طرف من الطرفين لم يكن يمتلك غير بندقية واحدة^(٢). وربما ساهم هذا في انتصار الزوايا، الذي كان سيكون صعبًا في القرن اللاحق عندما احتكر المغافرة إلى حد كبير البنادق والمسدسات والمهارة فيهما.

كان من نتائج نصر الزوايا أن راهن الطرف الحساني الخاسر في العقود السابقة، أولاد رزك، عليهم ومضوا في حلفهم. ولكن هذا لم يعن أبدًا أن المغافرة كانوا في موقف ضعف سياسي. بل كانت موازين القوى في المجال البعيد تصبُّ في صالحهم. في بلاد السودان، كانت هنالك الأرستقراطية المهزومة التي كانت تتربّص أي فشل لحركة التوبان؛ وأكثر من ذلك فإن التجارة الفرنسية تضررت كثيرًا من سيطرة ناصر الدين على السودان وجعلت المصالح الفرنسية تحبذ الحسانيين الذين كان انتصارهم سيضمن عودة التجارة السلسلة إلى المحطة الفرنسية في سان لويس، بدلًا من حرمانها من بضائع التوبان وتجارتهن.

أدرك ناصر الدين خطورة الموقف الفرنسي وقام ببعث أخيه منير الدين إلى الفرنسيين للتفاوض معهم. وهنالك غابت مثالية الزوايا وبدأوا يفاضون بمنطق تجاري واضح، وعرض منير الدين تقاسمًا تجاريًا واضحًا. ولم يقتنع الفرنسيون واعتقدوا أنهم بصدد مناورة. وأكثر من هذا، فإن الطرف الآخر للمعادلة الإقليمية، المغاربة، قاموا بدعم العرب المغافرة عندما طلبوه من السلطان المغربي فاستجاب^(٣).

في غضون هذا استمرّت المعركة على الأصعدة الأيديولوجية، فقد شرع القاضي عثمان -الذي بدأ نجمه يعلو أيضًا باعتباره قائدًا عسكريًا فعليًا وليس مجرد فقيه من أهل النظر- في تكفير المغافرة^(٤). ومن الناحية العسكرية حقّق

(١) ولد السعد، شربة، ص ١٢٥؛ اليدالي، أمر الولي، ص ١٦٦-١٦٧.

(2) Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique, 3, 370.

(3) Norris, 39.

(٤) ولد السعد، شربة، ص ١٠٠؛ اليدالي، أمر الولي، ص ١٦٩.

الزوايا انتصارًا آخر بعد انتصار «انتيجي»، وذلك عندما تابعت قواتهم عناصر حسانية قامت بنهب شياه للزوايا. كان قائد هذه المتابعة هو ناصر الدين نفسه، الذي استطاع قتل ٣٣ مقاتلاً من عزونة، طليعة المغافرة، في معركة «جيو» وعاد ظافراً بالغنائم^(١).

إلى حدّ الآن كان واضحاً أن كل هذه المعارك معارك اقتصادية أساساً، وأنها تدور على المصادر الأساسية أو المراكز الاقتصادية والاستراتيجية. فلقد جرت المعركة الأولى عند ميناء هدّي الاستراتيجي الذي كان مركزاً تجارياً مهماً مع البرتغاليين، والذي ربما كان هجوم «انتيجي» يرمي إلى السيطرة عليه. أما الهجوم الثاني في جيو (على بعد ٤٢ كيلومتراً جنوب نواكشوط) فقد وقع قريباً من مملحة «أوليك»، التي زادت قيمتها بفعل الطلب على الملح. ورغم انتصار الزوايا في المعركتين، إلا أنهم عجزوا عن متابعة النصر والاستفادة منه من الناحية الاستراتيجية^(٢).

على أن الاحتدام الكبير لم يقم إلا في «ترتلاس» (حوالي ٩٨ كيلومتراً من نواكشوط إلى جهة روصو الجنوبية) في أغسطس عام ١٦٧٤^(٣)، حيث دارت معركة حامية الوطيس، خيضت بالخيالة الضاربة؛ إذ كان كل مقاتل في هذه الحرب يمتلك فرساً^(٤). وانقشع الغبار عن انتصار الزوايا عسكرياً. ولكنه كان انتصاراً غالباً سياسياً، فقد لقي ناصر الدين مصرعه إلى جانب ثلاثة من قواده البارزين (حبيب بن اتشفغ أوبك وماحي ومحنض اتشفغ الأمين والمختار) وأخيه، حمّين، وغيرهم. في «ترتلاس» جسّد مصرع ناصر الدين بداية نهاية المشروع الشيولوجي. ودُفن أنصاره من دون تغسيل كما هو عادة طقس دفن الشهداء^(٥).

(١) اليدالي، أمر الولي، ص ١٦٨.

(2) Levztion. North-West Africa, 201.

(٣) حسب نهيمافيتزون، وعام ١٦٧٣ حسب ولد السعد.

(٤) عن المختار ولد حامدن في مقابلة مع جيمس ويب:

Webb, The Horse Trade, 231.

(٥) اليدالي، أمر الولي، ص ١٦٦-١٦٨.

رغم عودة جيش المقاتلين الحسانيين مهزومًا من سهل «ترتلاس»، حيث فقدوا هم أيضًا قائدهم محمد محمود ولد عبلة، إلا أن تحييدهم لناصر الدين فتح أبوابًا سياسية مهمة؛ فقد بدأت قوات أولاد رزك وقوات التوبنان المقاتلة في الجانب الزاوي تحسّ بعبثية المعركة وقررت الانسحاب، خصوصًا في غياب القائد الرمزي. ومن الواضح أن الهزيمة التي تزعمها الروايات للمغافرة لم تُقنع المراقبين والانتهازيين بأنهم مغلوبون وشيكا. بل إن بعضهم سينضمّ إلى المغافرة. ومن ناحية أخرى، شجّع غياب الرمز الشمشي الفرنسيين المتعاطفين مع حسان على التدخل لفعل شيء لإنقاذ التجارة من ريق الزوايا. وهكذا قرّر الإداري الفرنسي، ديمشييه، ممارسة الضغوط على والي الحركة في شمامة للتخلي عن تاشمشة كما قام باحتجاز منير الدين، أخي ناصر الدين، الذي كانت خلافته له تلوح في الأفق^(١).

مباشرة قام الزوايا بتعيين خليفة لناصر الدين هو فقيه يدعي اجفغ الأمين ولد سيد الفالي. كان هذا ابنًا لأسرة زاوية ظلّت تعمل لعدة عقود في إطار الخدمة الروحية لقبائل حسان^(٢)، وكانت قريبة منهم. وكانت هذه ثغرة سياسية دخلت منها سياسة حسان وبدأ القائد الجديد في التلكؤ، بسبب أن بني حسان قرّروا -كنوع من التكتيك السياسي- القبول به قاضيًا لبثّ الصدع في صفوف الزوايا. وهو تكتيك سرعان ما حقّق نتيجته المرجوة عندما أثار اعتراضات مروّوسيه، فقرّروا حجب الثقة عنه وعزله لميله إلى مصالحة حسان الذين أرادوا كسبه إلى جانبهم. ولم تخلُ الطريقة التي أبعد بها الأمير الجديد من مطامع على السلطة من قبل خصومه الزوايا؛ وكان هذا في حد ذاته خطأ استراتيجيًا؛ إذ أدّى إلى انخزال ولد سيد الفالي ورهطه وانضمامهم إلى المغافرة عندما انتخب أميرًا جديد للتاشمشيين هو القاضي الراديكالي، عثمان، وزير ناصر الدين المخلص وقائده القوي^(٣).

(١) ولد السعد، شريعة، ص ١٢٧.

(2) Levtzion. North-West Africa, 200-201.

(٣) اليدالي، أمر الولي، ص ١٦٩.

سوف يتبيّن لاحقاً أن إثارة عداوة أهلية في صفوف الزوايا لن يكون الخطأ الوحيد للقاضي عثمان. فقد دفعه توثُّبه للحرب، وربما حاجة دولته الجريحة لتمويل، إلى اقتراح فرض مغارم على القبائل التابعة له، وبدأ بالفعل بالمضي قدماً في فرض الزكاة وسنّ المكوس على القبائل الضعيفة. وهكذا أدّى سخط هذه القبائل إلى ميلها لكفة حسان. وبدأت صفوف الحسانيين تتعرّز، خصوصاً أن قوة الزوايا بدأت تنقسم بين الشمال والجنوب^(١).

ولم يكن انضمام الفالي ورهطه مجرد تدمر عبثي بلا عواقب على الزوايا؛ فقد بدأت الموازين تميل فعلاً لكفة حسان الذين حقّقوا نصراً ملموساً في تلماس^(٢)، التي محقّقوا فيها قوة جباية الزكاة بعد معركة الخوارة^(٣)، التي لم تكن حاسمة. ولكن نصرهم الحقيقي جاء على خلفية هجوم قاده زعيم أولاد أحمد بن دامان، هدّي بن اعلي شنظورة، وشاركت فيه عناصر الترازرة وأولاد غيلان إضافة إلى عناصر المحاربين المُلحقين التي كانت تعمل سابقاً في حلف الزوايا من بقايا أولاد رزك والسودان وآزناكة. فقد وطّد هؤلاء حلفهم وأمنوا تراتبيّاتهم وطبّعوا مغارمهم بحيث إنهم كانوا يقومون بالجباية في الوقت نفسه الذي قرّروا فيه الإغارة على الزوايا في منطقة اعليّب الغظية^(٤). وهناك أفتوا مقاتلي الزوايا وقضاتهم. ردّ الزوايا بهجومين في المذرذرة في الصاكّ، التي قتلوا بها عدداً من أولاد خليفة وصلوا إلى أربعين. أما الهجوم الثاني فقد قاده القاضي عثمان في أنجين جنوباً، إلى جهة لكوارب/روصو الحالية، وذلك في محاولة منه لاسترداد الوالو، التي بدأت في تلك الأثناء بتلقّي إمدادات من الفرنسيين. كان هذا الهجوم كارثياً على الزوايا المحاربين الذين اندحروا في الواقعة، وقُتل القاضي عثمان نفسه والعشرات من رجاله وانهزم جيشه^(٥).

(1) Levzion. North-West Africa, 202.

(٢) ٤٠ كلم من نواكشوط، في الجنوب الشرقي.

(٣) ١٣٢ كلم جنوب نواكشوط على طريق روصو.

(٤) ٨ كلم من روصو.

(٥) اليدالي، أمر الولي، ص ١٦٩-١٧٠.

مرة أخرى واصل الزوايا ارتكاب الأخطاء الاستراتيجية نفسها؛ فقد أدى صراعٌ على خلافة القاضي عثمان إلى ظهور الخلافات الهوياتية عندما فرض أولاد سيدي الفالي إرادتهم على بقية مكونات التحالف التشمشي. ففي الأصل بايع الجيشُ العائد من أنجين الفاضل بن الكوري، الذي كان قائدًا حذقًا وكان مهندس الانتصار في موقعة الصاك، وهو أهم انتصارات الزوايا بعد ناصر الدين. ولكن ما إن عاد هذا إلى أرض تاشمشة حتى تفاجأ بأن أولاد سيدي الفالي قد نجحوا في ترشيح زعيم منهم هو المبارك بن حبيب الله، الذي صوّت له الزوايا ولعب أخوه إبراهيم دورًا في نقل الإمارة إليه. ومرةً أخرى قام كثير من المتذمرين الزوايا، وهم أساسًا الفاضل بن الكوري نفسه وأخواله من إيدولحاج وعناصر من أولاد رزك، بالانضمام إلى خندق حسان^(١).

وكانت نتيجة هذا الانشقاق تفكك أمر التشمشين وحلفائهم بشكل درامي في الترازة. ورغم انتصار خارق أخير حقّقه قلة من قوات المبارك بن حبيب الله في العريش^(٢)، إلا أن معالم التفكك كانت بيّنة. وسرعان ما قامت قوات المغفرة بشنّ هجوم في تن جيمارة حاصرت فيه العناصر المقاتلة وقتلوا معظم أهلها، بما فيهم المبارك نفسه. وبهذا النصر تمّ إجلاء المقاتلين التاشمشين من الترازة وتكلّف الأمير الجديد، منير الدين، بقيادة التقهقر إلى البراكنة وغورغول حيث كانت نواة القوة الزاوية الوحيدة التي ما زالت فاعلة بقيادة النحوي ولد اكذ عبد الله، الذي كان ما زال متمنّعًا بعناصر من قبيلة إيجيجبة. أما في الترازة فقد بقيَ اجفغ الأمين وأخوه الكوري يتعهّدون فلول تشمشة المهزومة وعوائلهم الشكلى، التي لم تعد الآن غير مجتمع مهزوم ومتضعضع يقع تحت رحمة حسان^(٣).

للمرة الأخيرة تقاتل الزوايا على السلطة عندما استطاع القائد القادم من الترازة، منير الدين، انتزاع الإمارة لنفسه من النحوي. كانت بقية قوة الزوايا هي

(١) اليدالي، ص ١٧٢-١٧٣.

(٢) على بعد ٣٨ كلم شمال روصو.

(٣) اليدالي، ص ١٧٣-١٧٤؛ ولد السعد، شربة، ص ١٣٠-١٣١.

امتدادهم الجنوبي في شمامة وتبعية مملكتي الجولوف والفوتا لهم. ولكن هذا في حد ذاته كان سبباً لاستثارة عداء الفرنسيين الراغبين في تحرير الممالك السودانية من ربق الزوايا. كما كان سبباً لإثارة عداء أولاد امبارك بقيادة الأمير بوسيف (بن ازناكي أو بن أوديكة)^(١). ويبدو أن مشاعر المزارعين فيما وراء النهر قد تغيرت بعد فشل الحصاد الزراعي وتحولت إلى عداء مستديم للزوايا، بل وإلى ثورة عليهم. كل هذه الشرور اتحدت دفعة واحدة ضد الزوايا.

ويبدو أن الفرنسيين لم يقبلوا أي تسوية مع حركة ناصر الدين؛ لأنها قلبت التوازن الاقتصادي الذي كان قائماً في بلاد السودان من خلال إدخال عنصر ديني معاد للمسيحية وللوثنية وللأوروبيين، وأعطت السلطة لحركة شعبية سفلى من المزارعين والملاك الفرديين. وبدوره، كان هذا يهدد التجارة الفرنسية التي كانت تستفيد من احتكارات الأمراء الإقطاعيين الكبار، الذين كانوا أضمن لسلسلة المعاملات التجارية مع الفرنسيين؛ ذلك أنهم لم يكونوا حماة للتجارة وحسب، بل كانوا أنفسهم تجاراً كباراً مالكين لبضائع وفيرة. كما أنها كانت ترتاح أكثر لوثنتهم التي لا تحمل بعداً جهادياً. ورغم أن الفرنسيين والزوايا ارتاحوا لجهاد ناصر الدين في السودان؛ لأنه زاد من حظوظ تجارة العبيد، إلا أن سير الحرب كان سلبياً؛ لأنه أثر بسوء في الموارد بحيث إن الفرنسيين الذين أصبح بمقدورهم تحصيل ٦٠٠ عبد في عام ١٦٧٦، فقدوا السبيل إلى إطعامهم بسبب غلاء المعيشة التي نجمت عن سوء المحاصيل في ظل نظام ناصر الدين^(٢).

وهكذا عمل الفرنسيون مع النظام القديم الذي بقي قوياً من خلال تحالفات قوية في الممالك السودانية الأربع، كان لها أثر في إنجاح الثورة المضادة وإعادة الأسر الأرستقراطية السودانية المهزومة: ففي الكايور نجح ملك سالوم، ماخورديا كومبا ديوديو، في التحالف مع أقرباء الملك الذي قتله أنصار ناصر الدين بقيادة انجاي سال ونجحوا في طرد انجاي سالم وانتخاب ملك سالوم داملأ (أي ملكاً على الكايور)^(٣). وبهذا وضع المغفرة (الأمراء الثلاثة: بكار الغول (أولاد

(١) ولد السعد، شريعة، ص ١٣١.

(2) De la Courbe, 132-133.

(3) Paul Marty, 1919, L'Emirat des Trarzas, Paris: Editions Ernest Leroux, 1919, p. 42

عبد الله) وهدي (أولاد أحمد بن دمان) وبوسيف (أولاد امبارك)، المتحالفون مع ملك الفلان، سيراتيك، والفرنسيون، الممالك التوبانية بين كماشتين؛ إذ كانت قوات المغفرة تغزوا بلاد التوبان وتستولي على غنائم فيها في الوقت نفسه الذي كان فيه الفرنسيون يهاجمون هذه القرى وقوافلها المتعاملة مع الزوايا^(١). ولعل هذه المناوشات كانت السياق الذي ارتسمت فيه معالم الهجوم النهائي للقضاء على الزوايا. ومع بداية عام ١٦٧٦ بدأت في الفتوا الحملة للتخلص من نفوذ التوبان. ومع بداية عام ١٦٧٧ كان الملك، سيراتيك، قد استعاد الفتوا نهائياً^(٢)، تساعده عوامل شعبية؛ لأن وعود التوبان بالإصلاح لم تتحقق^(٣).

رغم هذا، لم تأتِ الضربة القاصمة لحركة ناصر الدين من الجنوب بل من الشمال وتحديدًا من مقطع لحجار عندما نظّم أولاد امبارك والأيتام هجومًا كبيرًا ضد آخر الأئمة، المختار، وألحقوا هزيمة كبيرة به في سهل أمدر عام ١٦٧٧. ويبدو أن إصرارهم على التخلص إلى الأبد من سطوة الزوايا جعلهم يتابعون الهجوم في اليوم اللاحق في تنيفظاظ على بعد كيلومترات قليلة من معركة الليلة السابقة. هنالك تم نهائيًا سحق الزوايا بهزيمة مدوية قُتل فيها منهم خلق كثير واستُبعد الكثيرون أو حُوّلوا إلى أزناكة، أما البقية فقد هربت إلى بلاد السودان حيث لاقت مصيرًا مساويًا في الهزيمة^(٤).



سمح الانتصار المدوي في تنيفظاظ للقوى الحسانية بأن تُرسَم سيطرة ملحوظة في الترازو والبراكنة والساحل. وإذا كان من الواضح أنه قد بولغ في نتائج هذه الحرب وفي تفاصيلها وجعلها حدثًا مفرقيًا وتأسيسياً^(٥)، إلا أنه لا يمكن نكران

(١) ولد السعد، شربة، ص ١٣٢، ١٣١.

(٢) نفسه، ص ١٣٣، ١٣١.

(3) Oumar Kane. La première hégémonie peule: le Fuuta Tooro de Koli Ten?ella à Almaami Abdul. Dakar: Karthala, 2004, 394.

(٤) اليدالي، أمر الولي، ص ١٧٥-١٧٧.

(5) Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique, 832-937.

أنها كانت إحدى حقائق الصحراء المستديمة وخصوصاً في أرض الغبلة^(١). وبغض النظر عن الأصول التاريخية لشربة، ذلك أن كثيراً ما اعتبرت «نتائجها» جزءاً من تاريخ أقدم وأدوم، فإن العهد اللاحق لها أسفر عن تغييرات عميقة الأثر. لقد خرج منتصران من المعركة: المغفرة وحلفاؤهم من زوايا الغبلة. وسرعان ما حوّل المغفرة انتصارهم إلى ما يشبه النظام السياسي والعقد الاجتماعي. حيث فرضوا شروطاً قاسية على المهزومين الذين ترك لهم حفر الآبار، ولكن ثلث مائها سيصبح من حق المحاربين الحسانيين. وأُجبر الزوايا على استضافة كل عابر سبيل من حسان مدة ثلاثة أيام يُنقل بنهايتها على حساب الزوايا إلى أقرب حي من الزوايا، حيث يتمتع بحق الضيافة ثلاثة أيام أخرى. سوف ينتج هذا طبقة كسولة من الطفيليين المحاربين الذين سيثقلون كاهل الزوايا حتى القرن العشرين. في بداية القرن التاسع عشر عرفهم رينيه كايي باسم «اللواتة». ولكن نبلاء حسان لن يصبحوا مجرد طفيليين، بل سيجعلهم احتكارهم للسلاح وتمرسهم على الغزو وركوب الخيل وقيم الفروسية محاربين غير كسولين. وسيستفيدون من تجربة النفوذ التاشمشي في الجنوب ليبسطوا سلطتهم إلى عمق الأراضي السودانية. وسيبقون سادة المكان حتى القرن العشرين.

وكان من نتائج الحرب أن المنتصرين منعوا خصومهم من أي محاولة للنهوض، فحرّموهم حقّ التسلح نهائياً. وفي المقابل فرضوا عليهم الحماية مع ما يلحقها من خدمات وتعويضات للحماية. وقد تمّ بهذا تقوية الاقتصاد الحمائي مؤقتاً وجعله رأس المال الأكثر سهولة والأكثر وفرة. وفي سبيل الصراع على حقوق الحماية ستنشأ صراعات داخلية بين أطراف الأرستقراطية العسكرية، خصوصاً بين البراكنة والترارزة، القوتين المنتصرتين الأساسيتين من صراع شربة. كانت أيضاً لحرب شربة آثار في بقية المجال في الصحراء، حيث وصلت إلى مجال إيدوعيش ومجال لبرابيش^(٢)، وفي ولاتة حدث تاريخ شبيه بنتائج شربة.

(١) نفسه، ص ٨٤٩-٨٥٠.

(2) Charles C. Stewart, "Southern Saharan Scholarship and the 'Bilad al-Sudan'." JAH, 17 (1976), 77.

إلا أن تاريخ الزوايا لم يكن كونيًا، ولم يعيش معظمهم في الصحراء نتائج شربيّة في الغبلة. بل تم تجاوز الانقسام بين العرب والزوايا نحو تأسيس ثنائية سلطوية تتداخل فيها الوظائف العسكرية بالدينية، وإن ظلت العسكرية فيها ممثلةً بصورة عامّة من قبل القبائل المحاربة والروحية فيها، والقضائية ممثلة من قبل الزوايا، وخصوصًا الشق المنتصر منهم في الحرب. وقد نجى كثير من الزوايا من مأساة الإذلال، فقد استطاع إيدولحاج تغيير ولائهم في لحظة مهمة من سير الحرب؛ ذلك أنّهم كانوا في البداية من أنصار ناصر الدين ومن مستشاريه كمحمد الأمين ابن النجيب الذي هاجر من ودان إلى أرض الغبلة، فقد شارك في الحرب على الوالو والكايور والفوتا، ولكنهم تركوا قتال حسان في منتصف الحرب فنجوا من الشروط المذلّة التي ألحقت ببعض الزوايا. وحصل الشيء نفسه بالنسبة إلى تاشدبيت الذين كانوا في حلف مع الأمير هدي. وقد قوّى هذا من مركز إيدولحاج، بحيث ساهموا في جهود «مارشالية» لبناء القبائل المهزومة ودعمها، خصوصًا أولاد سيدي حيبلة من أولاد ديمان، حيث دعموهم بالإمء والقطعان وأعطوهم حدادًا^(١). أما بعض العناصر من إيدابحلسن وأولاد بركللة ومدلش وحتى عناصر من أولاد ديمان، فقد تراجعت تاركة تاشمشة تواجه التنكيل.

(١) رواية أحمد باب ولد الشيخ لجيمس ويب:

الحياة البيضانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر

«فكل شيء صلب يذوي ويتبخر في الهواء»

كارل ماركس

يمكن القول بأمان إن الحياة التي ستعرف لاحقًا بالموريتانية، والبيضانية خاصة، بدأت تأخذ شكلها الأساسي في القرنين السابع عشر والثامن عشر. فمن ناحية زادت كثافة البيضان بآخر موجات الهجرات القبلية وخصوصًا القادمة من الجنوب المغربي كمجموعات الرقيبات وأولاد بوسباع، ومن ناحية انزاح البيضان في الجنوب حتى ملؤوا المساحات الحالية للدولة الموريتانية، بل بسطوا نفوذهم فيما وراء نهر السنغال غربًا وفيما وراء باغنة شمال مالي شرقًا. وفي داخل الصحراء استقرّ النظام الأرستقراطي على طبقة المحاربين والزوايا المتاجرين والمتعلّمين في الأعلى، وتحت هؤلاء كانت طبقات عريضة من فقراء الزوايا وحسان وطبقة مُستَغلة من الملحقيين ومن العبيد، الذين سيبدأ إدخالهم في القرن الثامن عشر بكثرة. وفي الوقت نفسه ستبدأ مضارب المحاربين والكصور التجارية بممارسة تفوّقها العسكري أو الاقتصادي على المجتمعات المزارعة والآزناكية المنتشرة في السافانا وداخل الصحراء. وكانت الأنماط التجارية الجديدة التي ازدهرت على هامش المركنتالية العالمية تنتج ثقافة مشتركة من خلال ربط مجتمعات الصحراء في استهلاكية ونشاط تجاري واحد. كانت تجارة الملح والصمغ والقوافل الآية شمالًا وجنوبًا تجمع المجتمعات في ثقافة ونمط تواصل

موحد. ومن الواضح أن اللهجة الحسانية بدأت تأخذ سيادتها النهائية في هذه المرحلة. صحيح أن مجتمعات صنهاجية قديمة كانت ما تزال في هذه الفترة تتكلم لغتها الأزنائية، وكان ثمة الناطقون بالأزناوية، ولكن الحسانية كانت لغة التواصل العام ولغة الجميع فيما سيعرف بمجال البيضان واللغة الوحيدة للتواصل بين القبائل. ولا شك أن التجارة المشتركة والحياة المحظرة والأنساب العربية والقريشية المختلفة الجديدة للصنهاجيين وانتشار الفن الحساني والأشعار، كثفت من اللغة العربية وزادت من قيمتها الثقافية العالية.

رغم أن الأنثروبولوجيا الاستعمارية بالغت كثيراً في حبك الفروق بين الزوايا وحسان^(١)، إلا أن الفروق كانت موجودة ومحسوسة بشكل ما، وخصوصاً على المستوى القيمي وتركيبية السكان ووظائفهم. ويُمكننا بناء صورة بنيوية، قد لا تخلو من تعميم، بناءً على المعطيات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ففي المنحى العام كانت القيم الزاوية قيماً دينية معتمدة على الفتوة العلمية حيث الفتى الحقيقي هو عالم كل فن، الذي يحفظ كل الأشعار والأسانيد والعلوم ويقرض الشعر الجيد، وكان العار الأكبر على الزاوي اللحن أو الجهل. وقد أنتجت هذه القيم المرابطية، المجلسية والعلوية والكنتية والتاشمشمية والحاجية وغيرها، مجتمعات نابغة في العلم والتعلم. في المدن انتقلت الأسر العلمية من تمبكتو وأروان إلى ودان وبدأت في إعطاء بعد معرفي جديد للزوايا. وفي شنقيطي وتينكي وودان كانت سلسلة الأسانيد التي تفرّعت من المجالس في الكصور العلمية ومن ولد بلعمش (ت ١٦٩٦) وأحمد بابا التمبكتي (ت ١٦٢٧) والشيخ سيدي محمد الكنتي وعلماء المغرب والجزائر كالمغيلي والتادلسي تنتشر في بقية الصحراء، منتجة طبقة علمية نامية. وفي أرض الكبلة في هذه الفترة كانت الريادة في هذه القيم العلمية للمجتمعات الثلاثة: شمشة (أولاد ديمان وأهل باركللة)

(١) لاحظ أن الأوروبيين قبل التصوّر الاستعماري لم ينظروا إلى مجتمع البيضان من خلال ثنائية العرب والزوايا، فمثلاً لم يتعرّف لأكورب إلى تقسم المجتمع باعتباره بين زوايا وعرب، وإنما تحدّث عن ثلاثة تنظيمات اجتماعية كبيرة: العرب وإيدولحاج والساراغان، الذين كانوا قبيلة في الترازو من الصعب علينا تحديد أي قبيلة بفعل تحريف الاسم بهذا الشكل (Cultru, 146). ومن الأرجح أن المصطلح كان يعني الرعاة البيضان في القرن السابع عشر، وبه عرفهم الولوف والبولار فيما وراء النهر.

وإيدوعلي وتجكانت^(١). ولكنها سرعان ما ستتوسع إلى بقية القبائل العالمة لاحقًا كأولاد أبييري وإيديقب وغيرها.

في المقابل كانت القيم الحسانية قيمًا فروسية، ورغم أن قيم الضراوة والشجاعة وعدم الانهزام كانت قيمًا مرابطية أصيلة، إلا أن الحسانيين المقاتلين كانوا خير من يمثلها في هذه الفترة. وربما تأسست هنا جينياولوجيا مفهوم «استعريب» ونقيضه، أو على الأقل نظيره، مفهوم «اتمرير». وفيما كان الأول يشير إلى قيم الشجاعة وعدم التردد، فإن الأخير كان يشير إلى الحذر والمداهنة التي نسبتها النمطيات إلى مجتمع الزوايا. كان الحسانيون متمرسين في الغزوات وفي الحرب الخاطفة؛ إذ كانوا خيالة مهرة. وقد ضمن لهم الحصان والجمال المقاتل التفوق على سكان السافانا والصحراء، خصوصًا أنهم تصدّروا تجارة السلاح وصنعه منذ القرن السابع عشر وتمكّنوا به من التفوق على غيرهم.

على العموم، فقد اعتقد الدترسون، وبالأخص تشارلس ستوارت، أن نمط الحياة الاقتصادية كان النمط نفسه من الأطلسي إلى برونو، حيث لعبت اتحاديات أهير في شرق هذا المجال نفس دور حسان في غربه، وحيث كان إنسلمين في شرقه يلعبون نفس دور الزوايا في غربه؛ إذ قامت مجموعات كلّ آوي، التي وحدت المنطقة في منتصف القرن السابع عشر، بإزاحة مجموعات كلّ غرس وكلّ فروان في منطقة أهير^(٢).

بالطبع لا تنهض هذا التمايزات إلا بالتعميم. فقد كان ثمة حسانيون متعلّمون أو مُضطّهّدون. وكان ثمة زوايا مُحاربون. كما أن تشكّل الزوايا باعتبارهم طبقة دينية كان عملية تاريخية دخلت فيها الأنماط المعرفية الوافدة والمُستجدة باطراد. كما أن تسيّد الحسانيين كان تطوّرًا تاريخيًا، ولم يكن أفقيًا أو بلا مقاومة. وبالتعميمية نفسها أعلاه كان يمكن أيضًا تمييز المجتمع الحساني عن المجتمع

(1) C.C. Stewart with E. K. Stewart. *Islam and Social Order in Mauritania: a cases study from the nineteenth century*. Oxford: Claredndon Press, 1973, 26.

(2) Stewart, Charles C. "Southern Saharan Scholarship and the 'Bilad al-Sudan'." *JAH* 17 (1976), 74-77

الزواي بشكل المضارب ونوعية التنظيم الاجتماعي. كان الحسانيون، باستثناء الأمراء، ملأً لقليل من الأمتعة والعبيد وكانت رعويتهم معتمدة أساساً على تربية الخيل^(١) والإبل. أما الإبقار والحمير وكثرة الأمتعة والعبيد فكانت غالباً من شأن الزوايا؛ لأنها لم تكن تتماشى مع الغزو والترحال السريع، وبسبب أن هؤلاء الحسانيين كانوا يعتمدون، في نبلائهم على الأقل، على تغريم المجتمعات الأزنائية إما من خلال ضريبة الحرمة أو المغرم أو المدارة على بعض قبائل الزوايا. وفي أرض الغبلة ساهمت حرب شريفة في تفعيل هذه البنيوية، رغم أنها لم تأت بها من فراغ. أما في بقية المجال فربما لم تتكرس الصورة نفسها ربما باستثناء ولاتة، التي بقي مجتمعها التجاري والمتعلم رهين استئساد المجموعات المسلحة. وشبيهة هي هذه التفرقة بين المحاربين -العرب غالباً- والمسالين، الصنهاجيين غالباً، بالتعميم الذي أقامه بوفيل عند الحديث عن المجتمعين العربي والبربري في الشمال، معيداً ثنائية العربي المقاتل مقابل البربري المسالم. كان العربي بالنسبة إليه راعياً يسكن في الخيمة في نظام إقطاعي، وكان غالباً «متعصباً دينياً». أما البربري فكان دوماً حرّاً يسكن في الجبال أو في الواحات. وكان -بلسانه- «ساكن مدينة أو قرية، ديمقراطياً، وغير متحمس دينياً رغم أنه قد يكون متعصباً»^(٢). وفي المجال الموريتاني كان أول من لاحظ هذه الفروق هو الزائر فرناندس الذي تحدّث عن الصنهاجيين باعتبارهم ملاك ماشية وتجاراً مسالين، في مقابل العرب الغزاة والجباة والجمالين^(٣). وعلى العموم، فقد كان يمكن القول إن مضارب الزوايا كانت تمتلئ بكثير من العبيد والمعلمين، بينما يتبع لبني حسان الأزنائة والإيغاون^(٤).

ولكن هذا التمييز السطحي والانطباعي لم يكن يعني دوماً وجود فوارق قاطعة بين مجتمعات الصحراء؛ فقد كان الانتماء لهذا المجتمع المتنّجع أو ذاك المتنقل

(١) رغم أن تربية الخيول بدأت أولاً نشاطاً مدنيّاً كصوريّاً في شنقيطي وفي ودان:

(2) Bovill, 60.

(3) Fernandes, 71.

(4) Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique, 2, 446.

والظاعن مفتوحًا بشكل كبير. وكانت خلخلة الوظائف القبلية مستديمة؛ فلم يكن يندُرُ جنوح المحاربين إلى التوبة كلما انهزموا وفقدوا قدرتهم على الكسب بالسلاح أو وقعوا تحت تأثير الورع والدعاية والأيدولوجيا الزاوية؛ وفي المقابل تحوّل محاربون إلى أولياء وزعماء قبائل. كما أن بعض القبائل المتعلّمة بدأت تمزج السحنة الدينية والتجارية بالطبعة القتالية، وذلك كجزء من الحاجة المتنامية للحفاظ على ممتلكاتهم ودفع الأعداء وحماية الأتباع. وفي هذا المجال كان كتنة رغم سيادتهم الدينية مقاتلين ضارين^(١). وسرعان ما تحوّلت مجتمعات الركييات^(٢) وأولاد بوسباع^(٣) من مجتمعات «زاوية» إلى مجتمعات محاربة ومسيطرة على مساح كبيرة ومصالح تجارية متشعبة. أما أهل باركللة، التشمشيون، فقد أصبحوا يسيطرون على مساح كبيرة في تيرس^(٤). بل ولعلّ أكبر المعارك أثرًا في التركيبة السكانية في هذه الفترة كانت الحروب بين الزاويا، خصوصًا تلك التي كان لها طابع تجاري؛ إذ أدّت إلى هجرات وبناء كصور جديدة غيرت من بنية القبائل ومن ديناميكيات التجارة.

وإذا كان هنالك فرق عام آخر - وإن لم يكن مطلقًا هو الآخر - فقد كان حتمًا استقرار القبائل الزاوية الكبيرة في المدن الصغيرة أو الكصور، كما كان حال إيدو علي وإيدولحاج والأغالل وكننة والسماسيد وماسنة والمحاجيب والشرفاء وإيدوييسات وغيرهم. ورغم أن أكثرية القبائل المحاربة كانت تعيش خارج الكصور بفعل نمط حياتها العسكري الأرستقراطي، إلا أن هذا لم يكن ثابتًا دومًا؛ لأن الكثيرين منها لجأوا إلى الكصور حيث حقّقوا بها حياة جديدة في نمط إنتاج جديد. بل إن المجموعات الحسانية والمعقلية التي تدفّقت إلى الصحراء فرضت أمرها على الكصور وخصوصًا في ودان وتيشيت وولاتة التي هي مدن وقعت تحت سيادة الرحامنة والبرابيش والودايا وغيرهم. وستشهد الحياة المستقرّة

(1) Stewart, Charles C. "Southern Saharan Scholarship and the 'Bilad al-Sudan'." JAH 17 (1976), 81.

(2) نفسه، ص ٢٩٦-٢٩٧.

(3) Hodges, Historical, 265-267.

(4) Webb. Desert Frontier, 18.

وافدين جدًّا في هذه الفترة من «التياب» والمهاجرين ومن المجموعات التي فضّلت تغيير نمط حياتها ليتناسب مع الحياة المستقرة العالمة والمتاجرة. كان «التياب» يشكّلون مجتمعًا مختلفًا في الصحراء عن حسان والزويا، وقد لاحظ فينسان أنهم أصبحوا في وضعية وسطى بين المجتمعين، حيث احتفظوا أحيانًا ببعض عدوانية المحاربين في الوقت نفسه الذي تخلّوا فيه عن الحراة. كما لاحظ أيضًا أنهم كانوا يسكنون في مضارب وحدهم وذلك عندما مرّ بمخيم منهم في الترازة في عام ١٨٦٠^(١). ويتعلّق الأمر في هذه المرحلة بمجموعات نهجت نهج الزوايا كأولاد داوود في تيشيت ومجموعات من أولاد الناصر استقرّت في ولالة والمجموعات العديدة التي آوت مثلًا إلى قبائل إيدو علي وأهل سيد محمود والاعلال، وغيرها مما أشرنا إليه في الفصل السابق. وفي المضارب الحسانية كان الاستقرار موسميًّا؛ إذ لم يكن الترحال في العائلات النبيلة دائمًا. وفي الغالب كانت المضارب، المتألّفة أحيانًا من مئات الخيام، تتحلّق حول خيمة الأمير^(٢).

على أنّه كان استقرارا نسبيًّا للزوايا وللعرب المستقرّين في الإمارات؛ إذ كانت الانتجاعية وأنماط الظعن تطبع الحياة^(٣). وكانت الانتجاعية تعني الترحّل الدوري خلف الكلاً والمرعى، كما هو الغالب على شعب يعيش على الثروة الحيوانية. في عام ١٧٨٩ نشر مستشار فرنسي بالسنغال، هو أنتوان برينود بومغروج، كتابًا عن وصف السنغال يتضمن تصويرًا دقيقًا للظعن عند البيضان. كتب عنهم:

إن ذوقهم السائد هو تربية كميات من الماشية كالبقر والخراف والإبل والحمير والأحصنة الجميلة جدًّا... إن ثروتهم الأساسية هي هذه الحيوانات التي يرثونها في الحقول، وتماّمًا كالعرب القدماء فإنهم بلا مسكن ثابت. فما إن يفنون المراعي التي كانوا يقيمون بها حتى يشرعوا

(1) Ancelle. Les explorations, 119, 123.

(2) حسب مشاهدات رينيه كاييه، انظر الفصل عن البراكنة.

(3) Mungo Park. *Travels in the Interior Districts of Africa*. London, 1799, 159.

في الكصور كانت هذه الانتجاعية تتحدّد بالكيطنة أو بالخروج عن المدن في فترة الموسم الزراعي، وفي خارج الكصور كانت تتحدّد بالموسم الزراعي.

في البحث عن مساحاتٍ توفّر لهم مراعي أخصب. وهنالك يَنْصِبون خيامهم التي يسكنون تحتها؛ وهي خيام معدّة من جلود الإبل المدبوغة والمحاكاة جيّدًا. وعندما يحتاجون للترحّل من مكان لآخر، فإنهم يحملون أمتعتهم على أنعامهم ويحملون عليها نساءهم وأطفالهم في هودج مغطاة، ويرتحلون^(١).



اللافت للنظر كان صحة الأجواء في مجال البيضان، ربما بعكس الأوضاع في السودان؛ فقد كانت الأمراض الوحيدة التي سمع بها مونغو بارك، وهو أسير لدى أولاد امبارك في أواخر القرن الثامن عشر هي الزحار والحمى؛ وكانت ثمة أحاديث عن الجدري ولكن بارك لم يرَ مُصابًا به^(٢). وربما تعلّقت هذه الأمراض بالخصوص بالبداءة البقرية في الحوضين وجنوب لعصابة، وكانت معروفة أكثر للبيضان المتوغّلين في الساحل كأولاد امبارك الذين مكث بينهم مونغو بارك. أما في قلب الصحراء قبل حوالي نصف قرن من مونغو بارك، فإن فرناندس نقل أنه لا يوجد بالمنطقة لا حمى ولا أمراض ولا طاعون^(٣). وربما ساهمت وفرة مجتمع البيضان واستفادته من الموارد في هذه الفترة التي تمكّن فيها من تأمين تغذية جيّدة في أجزاء واسعة منه في التحصن من الأمراض التي انتشرت في القرن السابق في المنطقة نفسها التي اعتقل فيها مونغو بارك بسبب الأزمات والمجاعات المرتبطة بالغزو السعودي والمحلات المغربية.

وعلاوة على هذا، كان سكان المضارب يبذلون جهودًا جسدية شاقة يوميًا مما جعلهم غالبًا في وضع صحي جيّد. فلم تكن الحياة داخل المضارب حياة رعوية هادئة كما تصوّرها بعض الصور الرومانسية. بل كانت المضارب خلية نحل وهو ما يتسرّب من إحباط أسير أولاد امبارك في القرن الثامن عشر:

رغم أن البيضان كانوا أنفسهم حاملين، إلا أنهم كانوا سادة الأعمال

(1) De Pommegorge, 9-10.

(2) Park, 154.

(3) Fernandes, 97.

الشاقة، وكانوا يُبْقون كلّ شخص في عمل دائم، فقد قاموا ببعث غلامي، دَمْبًا، إلى الأكمة لجمع العشب الذابل لحصان اعْلِي [ولد اعْمَر ولد أعلي، أمير من أمراء أولاد امبارك]، وبعد عدّة مشاريع تتعلّق بي استطاعوا أخيرًا إيجاد عملٍ لي: ولم يكن هذا شيئًا عدا وظيفة حلاق^(١).



ورغم أن زعيم أولاد امبارك، السلطان اعلي، خاف من البوصلة واعتبرها آلة سحرية وردّها إلى مونغو بارك؛ إلا أن مجتمع البيضان كان يستفيد من طبقة حرفية تستخدم الآلة كثيرًا، وإن كانت أقلّ تعقيدًا. كانت طبقة الحدادين أو لِمُعْلَمِينَ توجد ملحقة بالمضارب المعيارية، وكانت نوعًا من الطبقة العاملة في الصحراء؛ ولكنها كانت تختلف غالبًا عن العبيد في أنها كانت حرّة وتتوّع تعويضًا من نوع ما، وكانت متخصصة في الأعمال الحرفية والأداتية بدلًا من الأشغال المنزلية أو الرعوية. وكانت تعدّ آلات مهمّة لأعمال البيضان اليومية وأخرى مهمة لرفاهيتهم كغلايين التدخين للأعيان والزينة للنساء. وكانت تعدّ موادّ أخرى مهمة لتفوقهم العسكري. فمن المعدن المستورد من عند الفرنسيين، في مقابل الصمغ^(٢)، كان «العُمَال» يُعدّون الأسرجة والأجرة، ويستوردون المعادن من السودان ويصنعون منها السلاح الأبيض من المديات والخناجر والسيوف والرماح كما كانوا يعدّون منها قدور الطبخ^(٣). ويبدو أنهم كانوا يُصنّعون ويُعالجون البارود ويستصلحون البنادق. ولا ريب أن هذا حقّق تفوقًا كبيرًا في المنطقة؛ ذلك أن أسلحة القرون السابقة اقتصرَت على الرماح والخناجر والسيوف^(٤). ولكننا سنشهد مع القرن السابع عشر تعايش السلاح الناري مع السلاح الأبيض، فكان أفراد وفد إمارة التراززة إلى سان لويس يتقلّدون السيوف والرماح والحرا

(1) Mungo Park, 126.

(2) Pierre Pommet. Histoire générale des drogues simples et composées. Paris: Etienne Ganneau et Louise Etienne Ganneau fils, 1735, Tome, 2, 12.

(3) Park, 128, 150.

(4) Fernandes, 95, 97.

والبنادق معاً^(١)؛ وهو المنظر نفسه الذي شاهده سوغنير في عام ١٧٨٤ في مضرب بيضاني كانت فيه الأسلحة البيضاء والمسدسات أدوات لزينة رجالات البيضان^(٢). ولم يكن يندر تسويق هذه الصنائع الحرفية وإدخالها لي الدورة التجارية؛ فكانت أسلحة لمعلمين وذخيرتهم تُباع من قبلهم أو من قبل المُشترين منهم، في السودان. وكانت مجموعات بيضانية مثلاً تستفيد من بيع الكبريت المستجلب من البحر الأبيض المتوسط إلى سامباكا، في الجنوب السوداني، حيث كانت تعدُّ منه الذخيرة^(٣).



ومن المهم أن نفهم أن حياة سكان المضارب كانت في تغيّر ولم تكن أمراً ثابتاً، فالمجتمع الصحراوي البدوي كان يستجيب للحاجيات التي أتت بها التجارة العالمية، وكان يجد بسلاسة أدواراً محلية للحاجيات المُستقدمة إلى ثقافته المحلية، البيضاء غالباً. ولعل أبرز تجليات هذا كانت في الحلبي والثياب والمأكولات، التي استُدخلت منها أنماطٌ جديدة وعُصمت بسرعة في عموم المجال. فيما يتعلّق بالملابس، التي كانت تُعدُّ غالباً من القماش الغيني سواء بالنسبة إلى الرجل أو المرأة، فإنها كانت غالية وخصوصاً في القرنين السابع عشر والثامن عشر، غير أنها نزعت إلى الانخفاض النسبي مع ازدهار التجارة مع الفرنسيين. فقد وصل سعر الكسوة إلى جارية في القرن السابع عشر. وفي ولالة كانت كسوة المرأة تصل إلى ثلاث بقرات^(٤). وبفعل هذا الغلاء نزعت تجارة الأجانب مع الصحراء إلى إدخال الملابس الجديدة المتنوعة للرجال والنساء. وقد

(1) John Lindsay. A Voyage to the Coast of Africa in 1758 containing a succinct account of the Expedition to, and the taking of the Island of Goree by a squadron commanded by the honorable Augustus Keppel. London: MDCC Lix, 73.

(2) 63 Saugnier and Brisson, *Voyage to the Coast of Africa*, London: G.G.J. and J. Robinson, 1792, p. 34.

(3) Park, p. 117.

(٤) محمد المختار ولد السعد، الفتاوى والتاريخ: دراسة لمظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية في موريتانيا من خلال فقه النوازل، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠، ص ٦٧-٦٨.

بدأت الدراعة، التي ستصبح الزي التقليدي للرجل البيضاني، تصبح الزي العام بدلاً من البرنس والصوفيات التي كانت تنتشر في القرن السادس عشر. ولعل الدراعة قد طُوِّرت من نوعية الأزياء التي رآها ليون الإفريقي في المجال. وربما يجب أن نفهم الأمر على أنه تركيز على التجارة الجنوبية بدلاً من الشمالية (فالشيزل والحائك والبرنص كانت يُستورد من المغرب). أما الدراعة، المحبوبة غالباً من القماش الغيني، فكانت منتجات قادمة من السواحل أو من الجنوب عبر التجارة الأوروبية المتوطدة في سان لويس.

بدأت الدراعة والقصديرة القصيرة (ما سيُعرف بالغندورة أو القشابة) تنتشر تدريجياً وتتوسّع مع أواخر القرن السابع عشر. ولعل اعلي شنظورة (١٧٠٣-١٧٢٧)، أمير الترازة، كان أول من لبس الدراعة، التي عُرفت حينئذ بالشنظورة^(١) وتمت تسميته بها. ولكنها سرعان ما أصبحت زياً شعبياً في السنوات اللاحقة، وأخذت في التوفّر بشكل ملحوظ في عام ١٧٤٢ الذي عُرف بعام الدرايع في منطقة ودان وولاتة^(٢)، وربما على كلّ الطريق القوافلي. وفي عام ١٧٥٨ شوهد أمير الترازة في سان لويس يرتدي دراعة بهيّة شبّهها الشاهد الإنجليزي بلباس الكهان المسيحيين، وكان يضع تحتها سروالاً قصيراً يصل إلى نصف الفخذ ويحتذي تحتها نعلًا^(٣). وسرعان ما أصبحت الدراعة زي رجال الصحراء، وأضحت القافلة التجارية القادمة من ولاتة تؤوب بالكثير منها، من بين أشياء أخرى، في مقابل الملح الذي كانت تصدره إلى إفريقيا^(٤). وفي عام ١٧٩٥ كان أمير أولاد امبارك الشهير، السلطان اعلي ولد اعمر، يتميّز بلباسه لدراعة مميزة كانت تعدُّ له في تمبكتو وتأتيه في باغنة^(٥). في مجال أولاد امبارك كانت هذه الدراعة رمزاً

(1) Webb, Desert Frontier, 98.

(٢) الطالب أحمد بن طوير الجنة الحاجي الوداني، تاريخ ابن طوير الجنة، تحقيق سيد أحمد بن سالم، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ١٩٩٥، ص ٦٣.

(3) Lindsay. A Voyage to the Coast, 74.

(4) Abitbol Michel. Le Maroc et le commerce transsaharien du XVIIe au début du XIXe siècle.

In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N030, 1980. P 10.

(5) Park, 155.

للزي الأنيق والنبيل، بحيث إن البيضان اعتبروا الملابس الأوروبية غير أنيقة وغير محتشمة، وقاموا باللباس الأسير الأسكتلندي لديهم دراعة بدلاً من لباسه المتكوّن من بنطلون وقميص^(١).

ومع هذه الدراعة كان يوضع لثام غالباً، وخصوصاً في لحظات الغبار حيث كان البيضان ما زالوا يَلْتَمُونَ عموم الوجه^(٢) باستثناء الحدقتين، كما كان يفعل الصنهاجيون الملتَمُونَ في القرون السالفة. وبالطبع لم ينقرض التلثم الصنهاجي كلية في هذه الفترة، إلّا أنه ربما تنوّع وتشعب. فقد شبّه شاهدٌ إنجليزي لثام أمير الترازة، المختار ولد اعمر (١٧٥٧-١٧٧١)، بالتيجان القديمة؛ ذلك أنّه كان مُعدّاً من القماش الشاشي الصوفي وكان قرمزي اللون وتدلّى منه قطعة منسبلة إلى الوركاء^(٣). وفي غياب اللثام كانت تقوم الضفائر، ففي الجنوب الغربي إلى جهة السنغال العليا حيثُ شاهد لأكورب في عام ١٦٨٥ رجلاً من أعيان البيضان حاسر الرأس طويل الشعر وكان يصفه من الوركاء (ويبدو أن هذه كانت حال كثير من العرب الحسانين، كما تُظهِرُ لنا الصوّر) ويلبس الثياب الإفريقية: قصدير سوداء بدلاً من الدراعة^(٤).

أمّا المرافق الآخر للدراعة فكان الأحذية، وتحديدًا النعال. وفي الجنوب الشرقي كان لبس النعال يعتبر ضرورة «حتى بالنسبة إلى الزنوج»، بحسب التعبير التمييزي للرحالة الأسكتلندي، الذي ربّما قصد التشديد على فقرهم؛ وذلك «بسبب حرارة المكان»^(٥). رغم أن النعال لم تكن ضرورية في عموم الصحراء كما لاحظ رينيه كايي في بداية القرن التاسع عشر^(٦)، وكما قد تدلّ على ذلك صور في القرنين التاسع عشر والعشرين. وبطبيعة الحال، لا يُمكننا تعميم ما

(١) نفسه، ص ١٣٣.

(٢) نفسه، ص ١٣١.

(3) Lindsay. A Voyage to the Coast of, 74.

(4) De la Courbe, 97.

(5) Park, 135.

(6) René Caillié. Journal d'un voyage a Temboctou et a Jenné dans l'Afrique centrale. Tome 1.

Paris: L'imprimerie Royale, 1830, 160.

تقولهُ الصور، خصوصًا أن معانيها الثقافية ليست حاضرة مباشرة دومًا. فمثلًا كان من عادات كثيرٍ من البيضان خلع الأحذية لدى استقبال الضيوف، وتلك هي غالبًا لحظات الصور؛ وذلك إجلالًا لهم.

على أن الدرايع والقصديريات كانت امتيازًا حصريًا للميسورين من أهل الصحراء وتجارها؛ ففي عمق البلاد لم تكن الشرائح الواسعة تلبس غير جلود الماشية، التي أخبر عنها فرناندس وكاداموستو في القرنين السادس عشر والسابع عشر؛ والتي نُشاهدُها في تصاوير الرحالة والأثنولوجيين الأوروبيين في القرن التاسع عشر. وكانت الأغلبية ما تزال تعيش دون تغيير كبير في عاداتها ونمط لبسها وعُريها. وفي وقت مبكر من القرن السابع عشر عرف يير وميه أن أكثرية البيضان القاطنين في الصحراء يسرون عراة، وأن الأغلبية منهم يرتدون معاطف من الجلد الغليظ التي شَبَّهها بملابس فتيان القُداس في الكنائس الأوروبية. وحتى هذه المعاطف كانت ترفًا؛ لأن كثيرين آخرين لم يكونوا يلبسون غير جلود ضئيلة يخصفون بها عوراتهم^(١). وبعد أكثر من أربعين عامًا على عام الدرايع (١٧٨٤) وقع سوغنيير على قبيلة بيضانية بأكملها من العراة على الساحل، ثم مرّ لاحقًا بمضرب يوجد فيه لابسو الجلود ولابسو القماش^(٢). وظلّت الدرايع ترفًا صحراويًا لنخبة وقبائل معينة. وكانت هذه النخبة تستفيد من ترفيات كثيرة لا تقتصر فقط على الثياب، بل وطالت أدوات التجميل والحلاقة. فمع الدخول الوفير للمقصات والمرايا، التي راهنت عليها التجارة الأطلسية، أمكن لكثير من البيضان التوفر على آليات تساعد في تهذيب وتشذيب اللحية وحلق الرأس. وتعود أولى الإحالات إلى آلات الحلاقة إلى عهد التجارة البرتغالية، ولكن من المحتمل ألا يكون الأمر قد ذاع قبل الفترة التي تحققت فيها وفرة في المرايا والمقصات التي كانت تأتي بها تجارة سان لويس وتأتي بها إكراميات الفرنسيين المنصوص عليها في اتفاقات مع الأمراء، وخصوصًا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

(1) Pierre Pomet. Histoire générale des drogues simples et composées. Paris: Etienne Ganeau et Louise Etienne Ganneau fils, 1735, Tome, 2,

(2) 64 Saignier and Brisson. Voyage to the Coast of Africa, 29, 34.

وبطبيعة الحال، فقد كان للنساء نصيب الأسد من استقدام الأنماط اللبسية. وكان ثمة بالأخص اهتمام كبير بأزيائهن وأشكالهن كما يتجلى من الصور التي تمّ نقلها عن النسوة الأرستقراطيات في مضارب أولاد مبارك، حيث كانت الحناء زينة لأغلبية النساء، ومن دون مناسبة^(١). وفي الجنوب الغربي في نواحي الترازة كانت هؤلاء النسوة يتجملنّ بخضب الوجنتين والأظافر باللون الأحمر^(٢). وهي عادة شاهدها ليون الإفريقي عند نساء العرب في جنوب الصحراء الجزائرية^(٣). وكنّ يضعن تاجًا على الرأس (وربما هو تاج الشعر المضفور الذي ميّز نسوة الصحراء منذ العهد المرابطي حتى القرن العشرين، وقد أثار نقمة الموحّدين)؛ وكنّ غالبًا ما يصفرن من الأعلى شعورهن الطويلة التي كانت تصل إلى الخصر^(٤). أما في سان لويس في عام ١٧٥٨، فقد شاهد جون ليندساي امرأة في وفد أمير الترازة تلبس ملابس فضفاضة وتتلثم أمام الرجال وتضع خلخالين من القصدير في كعبيها، مما أثار استغرابه (كما هو شأنه مع جميع البيضان الذين لقيهم)^(٥).

ومع تطوّر التجارة الفرنسية في منطقة النهر في القرن الثامن عشر أصبح الأمراء والزعماء المحليون يحصلون من الفرنسيين على كثير من الإكراميات التي كانت تشمل حلي النساء وألبستهن من الأقمشة إلى المرايا والخرز، الذي كان أمير الترازة يتلقّى منه ألف حبة سنويًا، كما تنصّ اتفاقيته مع شركة السنغال الفرنسية. أما أمير البراكنة فكان يتلقّى الفضة والنحاس، وهي أدوات لزينة المرأة أيضًا. وكانت اتفاقيات الإكراميات مع الفرنسيين تنصّ على ذكر أسماء زوجات الأمراء وبناتهن ونصيبيهن من الأموال؛ إذ كنّ - هكذا - أطرافًا في اتفاقيات حماية التجارة هذه^(٦). وبطبيعة الحال، لم تكن الزينة فقط شأن الأميرات؛ فعندما قدم

(1) Park, 132.

(2) De la Courbe, 151.

(٣) الحسن الوزان، ج ١ ص ٦٤.

(4) Da Courbe, 151.

(5) Lindsay. A Voyage to the Coast of, 72.

(٦) انظر فصلي إمارة الترازة والبراكنة، حيث أتحّدث عن تفاصيل إكراميات الأمراء..

سوغنيير إلى مضرب من مضارب البيضان في الساحل وجد أن كثيراً من النساء البيضانيات الاعتياديات كن يتزيّن بقلائد من العاج والخرز والمرجان ويضعن أقراط الفضة أو الذهب^(١). وقد ظلّت كل هذه العناصر تستخدم في زينة النساء حتى القرن العشرين.

إلا أن النظرة الرجالية لم تطلب من المرأة زينتها الخارجية فحسب، وإنما شكلها الجنسي، خاصة امتلاءها وسمنتها؛ لما كان في ذلك من قيمة شبقية وجمالية مميزة لديهم. وكانت هذه البدانة تُفرض على أجساد البنات الصغيرات بممارسة «لبلوح» أو التسمين القسري الذي كان مزدهراً في المجال، كما شاهدنا. وفي مضارب أولاد امبارك كان لبُلُوح يتم بالكسكس وبلبن الإبل، وكانت تتولاه الأمهات قسراً، مستخدِمات العصي لضرب البنات وإجبارهن على الأكل المضاعف، ومُستخدِمات «الزّيّار» وهو كماشة خشبية معدّة للقرص لم يشاهدها مونغو بارك وإن لم يفت عليه الضرب بالعصي. وعدا البدانة كانت البثور والثآليل على الوجه علامة للجمال^(٢). وكانت جماليات التسمين تطبع نهج المرأة في المضارب، إذ كان يتوقّع منها المشي المتباطئ المتثاقل، وهو أمر لاحظته مونغو بارك في مضارب أولاد امبارك ووصف البيضانيات بأنهن يمشين «بشكل سيئ»^(٣). والذي غاب عن الأسكتلدي هو البعد «الجمالي» لهذا النوع من السير أو «التورك»، الذي تحدث عنه شاعر إيديقب، امحمد بن الطلبة (١٧٧٤-١٨٥٦):

تَكْنَسْنَ أَحْدَاغًا عَلَى كُلِّ نَاعِجٍ	عَبْنُ بَأَنْوَاعِ التَّهَاوِيلِ مُحَدِّجٍ
مِنَ الْقُمْعِ أَوْ مِنْ نَحْرِ نَكْجِيرٍ يَمَّمَتْ	مَعَاظِنَ جَلَوَى يَتَرِيعُ لِمَنْ وَجِي
جَوَاعِلَ ذَاتِ الرَّمْثِ فَالْوَادِي ذِي الصِّفَا	يَمِينًا وَعَنْ أَيْسَارِهِنَّ رَأْمَ هُودِجٍ
وَتَزَوُّرَ عَنْ ذِي الْمَرْسِيطِ فَوَرَّكَتْ	لِمَسَى ثَلَاثَ جَبَةٍ لَمْ تَعْرِجْ ^(٤)

قد يتوقّع المرء، والحال هذه، اهتماماً شبيهاً بتعليم المرأة يوازي الاهتمام بشكلها. لا يبدو الأمر دوماً كذلك بحسب ملاحظات مونغو بارك للنسوة في

(1) 64 Saugnier and Brisson. Voyage to the Coast of Africa, 34.

(2) نفسه، ص ١٥١-١٥٢.

(3) Mungo Park, 143.

(4) الشنقيطي، الوسيط، ص ٩٥-٩٦.

مضارب أولاد امبارك، رغم أن المرأة المتعلّمة كانت حاضرة في نخب المضارب الزاوية وصفوتها، فمثلاً كان لزوجة الشيخ سيدي المختار الكنتي (١٧٢٩-١٨١١)، لالة عيشة، وابنته لالة خديجة، باع في العلم والتعلّم. وقد ضاع الجزء المُخصّص لمناقِب الأولى من كتاب التلائد من كرامات الشيخين والوالدة والوالد، لابنها، سيدي محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار (ت ١٨٢٦)؛ ولكن من المفترض أنه ينقل علماً نسائياً صحراويّاً^(١). ومن الواضح أن أتباع المشايخ الكنتيين لم يحتاجوا للتلمذ عليهم لتعميم هذا النموذج، فمثلاً قامت والدّة الشيخ سيدي الكبير (١٧٧٠-١٨٦٨)، المُتلمذ لاحقاً على المشايخ الكنتيين، بتعليمه مبادئ القراءة والكتابة قبل أن ينطلق إلى الحمى الكنتي^(٢). في المقابل، لا يبدو هذا النوع من النساء العالمات في مجال رؤية مونغو بارك. وبالطبع كان مفهوم التعليم في الصحراء، وخصوصاً في أوساطها غير العالمّة، يختلف عن ذلك الذي استقدمه مونغو بارك من التنوير الأسكتلندي، زعمًا. فمن الأرجح أن نسوة الصّحراء كنّ يحفظن ما يُقمن به شعائرهنّ الدّينية. أما ثقافة المجالس والإمتاع والمؤانسة فلعلّها كانت مستقلّة عن التعليم التقليدي، وكانت خبرة تُكتسب في المجالس نفسها. وبطبيعة الحال، فلم يكن الشعر الشعبي ولا سرعة البديهة وحسن الجواب و«معرفة الحياة» خبرةً تدرسيّة، وإنّما كان قريحة تجود بها النفس في خبرات غير تلقينيّة بقدر ما كانت مُستدخلة ومُماحكة ومتناقفة. ولعلّ الاهتمام في مجال تعليم المرأة كان ينصبّ على الاهتمام بما سيُعرف بـ «اتنسوي» أو الثقافة الحوارية للمرأة وخبرتها في أهواء البيضان (ما سيسمّى بـ «تبّيظين») أو آداب الحوار. ولم تغب عن مونغو بارك خصوصية المجالس البيضانية، وخصوصاً تلك التي تحضرها النساء، بل إنّه أطرى عليها كما سيأتي لاحقاً. على العموم، قد تبدو هذه صورة عابدة للمرأة، وإن بطريقة لا تخلو من

(١) انظر مثلاً دراسة عزيز بطران للشيخ سيدي المختار الكنتي وتشكّل الطريقة القادرية في منطقة موريتانيا ومالي وحوض النيجر:

Aziz Batran, The Qadiriyya Brotherhood in West Africa and the Western Sahara: The life and Times of Shaykh al-Mukhtar al-Kunti (1729-1811), Rabat: Institut des Etudes Africaines, 2001.

(2) C.C. Stewart with E. K. Stewart. Islam and Social Order in Mauritania, 29.

أولويات الاشتهاء الذكوري؛ إلا أن هذا لم يعنِ إعفاء المرأة من المهام الكسبية والعملية. ولم يكن عملها نادرًا، حتّى خارج المضارب. فقد أشار تاجر فرنسي في أواخر القرن السابع عشر إلى حضور نسوة بيضانيات رفقة رجال في إحدى المحطات التجارية وهن يأتين بأبقار يحاولن بيعها بأسعار مُرضية ويتفاوضن مع التجار على أثمانها^(١).



كان الطّعام مجالًا آخر استفاد من الطفرة في العلاقات التجارية ومن توسّع مجال البيضان وتداخله مع بقية المجالات. ولا ريب أن التداخل مع الجنوب قد أثر في العادات الغذائية للبيضان؛ إذ نلاحظ حضورًا كبيرًا للذرة والقمح في الحياة البدوية، وخصوصًا عند الإمارات المحاذية للسافانا حيث دأب أهل الصحراء على شراء الذرة من السنغاليين في الغرب^(٢)، الذين كانت لهم منه وفرة زراعية رغم الآفات الناجمة من نظام الزراعة الجماعية الأسرية الفعال^(٣). وفي الشرق كانوا يحصلون عليها في إطار الإتاوات والتجارة، وكانوا يعدّون منها الكسكس. وكان الكسكس وجبة شائعة لدى بيضان الحوض وجنوبه، وربما كان وجبة صنهاجية الأصل، أو بربرية عمومًا؛ حيث رآه ابن بطوطة في القرن الرابع عشر في ولاته، كما أبلغنا عنه فرناندس في آدرار في بداية القرن السادس عشر^(٤). وبعد خمسة قرون كان مايزال شائعًا، وكان يُعدّ في المضارب البيضانية بشكل يختلف تمامًا عن طريقته في السافانا، كما يدلّ على ذلك تمايز الوجبتين في الثقافتين حاليًا. وهو تمايز كان قائمًا منذ قرون، ففي الجنوب في السنغال في القرن السابع عشر كان الكسكس الإفريقي يُطبخ مع السمك وإن كان يُتناوَل أحيانًا مع اللبن^(٥). أما في مجال البيضان فقد كانوا يجفّفونه في العراء حتّى يجهز

(1) De la Courbe, 148-149-151-152

(2) Kane, Les Maures et le Fouta, 242.

(3) Boubacar Barry. Le Royaume du Waalo: Le Sénégal avant la conquête. Paris: Karthala, 1985, p. 55-57.

(4) Fernandes, 81, 83.

(5) De la Courbe, 133.

للطبخ في القدور، التي صنعها حدادو الصحراء، ثم يطبخونه في الماء الساخن. وبعد ذلك يتناولونه إما مع لحم الغزلان أو بالماء والملح ثم يشربون عليه اللبن^(١).

كان القديد أيضًا وجبة مهمة، وقد عرفه سكان الصحراء بـ «التَّشْطَار»؛ وقد مدح ولد رازكة، المتوفى سنة ١٧٤٢، أحد أسياد أولاد ديمان، وهو الكوري بن سيدي فاضل، بأنه يكرم ضيوفه بالعسل والتمر و«قدر القديد»^(٢). وكان القديد أساسيًا كذلك للمسافرين، كما أنه كان وسيلة الصحراء في المحافظة على اللحوم بعد ذبح الطرائد أو الماشية أو الجزور. ولكنه كان يُعدُّ غالبًا من لحم البقر: فكانوا يحافظون عليه بتجفيفه وإيداعه في الدهن والشحم لاستخدامه وقت الحاجة. ولم يكن القديد دومًا وجبة المتقشّفين، ولكن أغنياء الصحراء كانوا يأكلون دومًا لحمًا طريًا بفعل توفّرهم على القطعان الكثيفة. وقد أورد دي بومغروج، الذي عبر النهر ذات مرة، طريقة في شَيِّ اللحم عند البيضان اعتبرها غريبة، وهي أنهم كانوا يذبحون خروفاً ويسلخونه ثم يحفرون له حفرة في الأرض ويطمرون عليه التراب ثم يضعون اللهب فوق التراب ويتركونه يتلظى إلى أن يمضي عليه وقت، فيخرجون الخروف فإذا به قد أصبح ناضجًا للأكل. وما زالت هذه العادة معروفة لدى بعض الموريتانيين. وقد أكل دي بومغروج نفسه سمكة طبخها له اثنان من البيضان على هذه الطريقة، واعتبرها طريقة رائعة^(٣). ومن الواضح من هذه القصة أن الصيادين البحريين أو النهرين، الذين عرفتهم الأجيال السابقة بالشرمية، كانوا ما زالوا يزودون الصحراء بالسّمك ويتداخلون مع أهلها يوميًا.

وبطبيعة الحال، لم يكن كلّ سكان الصحراء يتوفّرون على ترف أكل اللحم الطري أو المقدّد. بل كان الفقر المدقع ينتشر بينهم، وقد اعتبر معاصرهم في منتصف القرن السابع عشر أنهم كانوا «بؤساء»^(٤). وكانت وجباتهم في أوقات

(1) Park, 131, 133, 138, 150.

(٢) محمد المختار ولد أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، الرباط: دار الأمان، ٢٠٠٣، ص ٢٣٦.

(3) de Pommegorge, 19-23.

(٤) نفسه، ص ٢٣.

الندرة تختلف. وكان فقراؤهم، كما آخرون غيرهم، يعتمدون في معيشتهم على «النشاء»، وهو وجبة حساء قمحي وأحيانا طحين الذرة الممزوجة بالصمغ والزبدة والمطبوخة مع اللبن المغلي. وربما كان هذا هو وجبة الصمغ واللبن التي أخبر بها رينيه كاييه في القرن التاسع عشر وقبله المستشار الفرنسي بيير يوميه بقرابة قرن. بل إن الأخير تحدّث عن مجموعات تأكل الجراد بالزبدة. وهي وجبة كانت تقابل وجبة التمر بالزبدة، المزدهرة في مناطق الواحات في وسط المجال؛ إلا أن الأغنياء وحدهم -خلافا لما قد يتراءى- هم من كانوا يقدرّون عليها^(١). وربما كانت ثقافة أكل الجراد خاصّةً بحيز واحد. ففي المنطقة الكبيرة من «تيشيت وولاتة وبواديهما وسودانها»، يبدو أن أكل الجراد في أواخر تسعينيات القرن الثامن عشر، التي عُرفت بـ «سنوات الجراد»، كان ينبع من ممارسات فرضها القحط والجفاف وليس من أذواق ترفية أو ثقافية^(٢).

وعلى العموم، كان أهل الامتيازات يتذوّقون ما لم يكن متوفراَ لغيرهم من فقراء الصحراء أن يتذوقوه، سواء كان جرادا أو لحما أو حتى خمرا. فعندما كان أمير التارازة، اعلي الكوري والأمير سيد المختار وحليفهما بابكر سيري، يقصدون سان لويس لتوقيع التفاهات مع الفرنسيين، كان الفرنسيون يقدّمون لهم يوميا ستة غالونات من الخمر الأبيض والأسود^(٣). وكان شمس إيدولحاج التجاري يحصل على قنينتين من الخمر من عند الفرنسيين كإكراميات. ويبدو أن

(١) نفسه، ص ٢٣.

وأیضا:

Pierre Pomet. Histoire générale des drogues simples et composees. Paris: Etienne Ganeau et Louise Etienne Gannea fils, 1735, Tome, 2, 12.

(٢) أبو بكر محمد بن أحمد المصطفى الولاتي، منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور، تحقيق وتعليق محمد الأمين بن حمادي، نواكشوط: مكتبة القرنين ١٥/٢١ للنشر والتوزيع، ٢٠١٤، ص ٦٨.

(3) Meinrad Xavier Golberry. Fragment d'un voyage en afrique, fait pendant les anness 1785, 1786,et 1787, dans les contrees occidentales de ce continent comprise entre le Cap Blanc de Barbarie, par 20 degres, 47 minutes, et le Cap de Palme, par 4 degres, 30 minutes, latitude boreale. Paris:Treuttel et Wurtz, 1802. Tom 1, 277.

هؤلاء البيضان عرفوا هذا الخمر باسم «يجن» أو «شراب [الانصراني]»، كما تدلُّ على ذلك وثائق الاتفاقيات مع الفرنسيين^(١).

ورغم أن الخمر سيغدو من تابوهات الصحراء في القرون اللاحقة، إلا أن الأمر لم يكن كذلك مع التبغ الذي دخل في الحياة الترفية للبيضان بسرعة. في أواخر القرن السابع عشر كان يُزرع في مجال الدويرة في جزيرة مورفيل في الضفة اليمنى للنهر، حسب مشاهدات أندريه بري^(٢). وقد أصبح إحدى رفاهيات أعيان الصحراء النادرة. وبدأت وضعيته تظهر في نوازل الصّحراء منذ القرن السابع عشر، حيث تعرض له أو سئل عنه الشيخ أحمد باب التمبكتي (ت ١٦٠٧) وابن الأعمش الشنقيطي وحمي الله التيشيتي وغيرهم، وقد ذهب أغلبهم إلى أنه محرّم، بينما جوّزه بعضهم^(٣). إلا أن هذا الموقف الفقهي لم يعكس النمو الطردي لتدخينه. ولم ينتهِ القرن الثامن عشر إلا وصارَ تدخين التبغ علامة امتياز للأعيان والأمراء. ففي عام ١٧٥٨ في زيارته للإنجليز في السنغال كان لأمير الترارزة، المختار ولد امعر، مرافق خاصّ لتقديم غليون بالتبغ له فينفث منه ويقدمه بدوره لـ «كبير مستشاريه»^(٤). من الواضح أن تقاليدَ قد تطوّرت حتّى في ذلك الوقت حول طقوس التدخين وآدابه.



على أن الملمح الأساسي لحياة الصّحراء في القرنين السابع عشر والثامن عشر لم يكن استهلاكياً وثقافياً، وإنّما كان بيئياً؛ وكانت له انعكاسات سياسية كبيرة. على العموم، لقد شهدت هذه الفترة تراجعاً كبيراً في المساحة الخضراء بحيث توسّعت الصحراء ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ كيلومتر جنوباً في الفترة ما بين عامي

(1) Jean Baptiste Léonard Durand, *Atlas Pour Servir du voyage au Senegal*. Paris: Dentu imprimeur, 1807, 9.

(2) Ancelle. Les Explorations, 28.

(٣) حمي الله التيشيتي، النوازل، مخطوط، ص ٨٥.

(4) Lindsay. A Voyage to the Coast of, 72-73.

١٦٠٠ و ١٨٥٠^(١). وهو ما حفّز حركة التوسع السكاني جنوبًا بحثًا عن المسارح والماء. قدّم كلٌّ من شارون نيكولسون، وهو عالم في الطقس، والمؤرخ جورج بروكس، نموذجين مختلفين لتاريخ الأجواء والطقس في الصحراء. ولكنهما يتفقان في أن الجفاف المتزايد بدأ مع مطلع ثلاثينيات القرن السابع عشر (بروكس) أو في نهايته (نيكولسون) واستمرّ حتى نهاية القرن التاسع عشر أو ستينياته^(٢). ولم يكن الجفاف مجرد أمر بيئي خارج عن فعل المجتمعات، بل ساهمت المجتمعات البدوية والرعوية من العرب والبربر والزنوج في تراجع المساحة الخضراء من خلال كثافة المواشي عند السونينكي، وتفضيل الأمكنة الرملية للاستقرار من قبل العرب والبربر مما ساهم في توسّع الرمال، إضافة إلى عمليات إنتاج الفحم بحرق الأشجار، وإلى حوادث حرائق الغابات^(٣).

كان لتوسّع الصحراء نتائج اجتماعية وسياسية إقليمية في غاية الأهمية، فقد دفع إلى انتشار القوى الحسانية القوية المعتمدة على الخيالة الإبلية والتي نجحت شيئًا فشيئًا في احتكار التسلّح والفن العسكري، وخصوصًا في المناطق المحاذية للساڤانا حيث تسيّدت على المجتمعات التجارية والزراعية. فمثلاً في الجنوب الغربي تقلّصت مساحة دولة الفوتا تورو إلى بحيرة اركيز وكايور حسب مشاهدة لالابا^(٤). وتقدّم البيضان والتكرور مع انتفاء المساحة الخضراء وبدأوا يقهرون اللابوي Lawbé أو الحطابين والصيادين البريين وقناصة الأفيال من السود، إلى كازامانص فيما وراء النهر^(٥). وربما لم يعد الزنوج في بدايات القرن السابع عشر يتواجدون بشكل كثيف في الحومة الغربية خارج مجال ماريغو القريب من

(1) Webb, Desert Frontier, XV.

(٢) نفسه، ص ٤-٥.

(3) Jeffrey A. Gritzner, "Environmental degradation in Mauritania: staff report." National Research Council (U.S.). Board on Science and Technology for International Development, p, 69.

(4) Oumar Kane. Les maures et le Futa-Toro au XVIIIe siecle. Cahiers d'Études Africaines, Vol. 14, Cahier 54(1974), pp. 237- 252(237-238).

(٥) نفسه، ص ٢٤٣.

كيهدي، حيث شاهد أندريه بري في أواخر القرن السابع عشر مجتمعًا من البولار سرعان ما تقهقر إلى ما وراء النهر^(١).

وفي الجنوب الشرقي سيتزايد على شكل ملحوظ تراجع المزارعين السود من تگانت والحوض وكيديماغا ولعصابة وتراجع المزارعين السود إلى ما وراء السافانا. وفي منطقة النهر امتزج البيضان مع السودان وتعايشوا في قرى صغيرة حسب ما شاهده زائر للسنغال في عام ١٦٨٥^(٢). وبعكس توسع المجتمعات العلمية والزراعية كتاشمشة ومجتمع تيگماتين وغنار في القرون السالفة، فإن الوافدين الجدد إلى مجال السافانا كانوا في أحيان كثيرة -وإن ليس دائمًا أو حتى أساسًا كما سنرى- محاربين باحثين عن الموارد الغذائية. فتوسع المحاربون البيضان جنوبًا بحثًا عن الزراعة والمراعي ولكنهم -خلافًا للكثيرين من غيرهم- كانوا يضطرون للعودة في الموسم الممطر، الذي يحل في فصل الخريف، بسبب أمراض الماشية المضرة بخيولهم وقطعانهم كمرض داء المثقبيات^(٣)، الذي كان يحدّ الماشية ويصيبها بالخمول، ومن هنا ورد اسمه الإنجليزي «داء النوم» (trypanosomiasis). كما كان البعوض يكثر في منطقة النهر في تلك الفترة، وكان عامل طرد للبدو في القرن السابع عشر عندما بدأ البيضان يعبرون النهر لأول مرة^(٤).

ولوهلة تأجّلت عملية التدفق إلى الجنوب حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر، حيث تمتّعت البراكنة والترارزة باكتفاء ذاتي من الحبوب والغذاء^(٥)، حين ظلّت الضفة اليسرى خصبة وكانت مسرحًا لزراعة الأرز والتبغ^(٦). ولكن الأمر لم يعد كذلك مع الجفاف الكبير، الذي ولّد رغبات قاهرة ومتوالدة لاستئجار المحاصيل والأغذية. وعبر رعاة الإبل البيضان الذين عرفوا في الوالو

(1) Ancelle. Les Explorations, 28.

(2) De la Courbe, 96.

(3) Webb, Desert Frontier, 68, xv-xvi

(4) Cultru, 147.

(5) Webb, Desert Frontier, 37.

(6) Ancelle. Les Explorations, . 28

بالسارغانت Sargantes إلى ما وراء النهر، حيث اضطروا إلى شراء حقّ ورد الماء من الأسياد الإقطاعيين في منطقة الوالو؛ وهو أمر لاحظته لاكورب في مارس عام ١٦٨٦ عندما قدّم البيضان بقطعانهم الكثيفة ودفَعوا للأسياد الزنوج مقابل الرعي في أراضيهم. ومع أن لاكورب مايز بين السارغانت وإيدولحاج، إلا أن لوكورتو رجّح أن يكون هؤلاء الرعاة السارغانت عناصر من إيدولحاج، وأن كلمة السارغانت كانت تحريفًا سودانيًا لـ «الشركيين» أو القادمين من الشرق^(١).

لم يكن كل المتدقّقين في هذا الوقت المبكر إلى المناطق الخضراء من كادحي البدو ورعاتهم فحسب، بل كانوا أحيانًا أسيادًا إقطاعيين يمارسون حق الجباية على المساحات الزراعية التي يسكنها السود. وربما كان الأولون طليعة للأخيرين. ومهما يكن من أمر، فإن محاربي البراكنة في لعصابة وحوض نهر السنغال بدأوا في النصف الأول من القرن الثامن عشر في فرض ضريبة العشر على المزارعين السود. وقد عرفت هذه الضريبة في بلاد السودان باسم «باخ». وكانت عبارة عن إتاوة زراعية على كل مزارع، وليس على الأرض^(٢). وسنلاحظ مع رينيه كاييه أن كل أسرة بيضانية محاربة كانت تتولّى عددًا من المزارعين السود وتفرض عليهم الضرائب موسميًا، وهو ما كان يذهب لغذاء المحارب وأهله^(٣)، وبالطبع كان يستخدمه ربيعًا يستفيد منه مناصروه للحفاظ على قوته القتالية. وفي الوقت نفسه في الجنوب الغربي كان محاربو التراززة يضاعفون من فرض الإتاوات الزراعية في النصف الثاني من القرن السابع عشر^(٤). ولم تكن هذه الإتاوات إلا تمظهرًا لنوع من الإقطاعية والقنانة الزراعية التي فرضها البيضان في المساحات القابلة للزراعة على عبيدهم، المزارعين بعكسهم هم، المتأقّفين دومًا منها، حسب تشخيص إداري فرنسي في القرن السابع عشر^(٥).

منذ القرن السابع عشر أصبح حضور القبائل البيضانية المحاربة أمرًا دائمًا في

(1) Cultru, 131.

(2) Webb, Desert Frontier, 22.

(٣) نفسه، ص ٢٢-٢٣.

(٤) نفسه، ص ٢٣.

(5) de Pommegorge, 8-9.

سياسات الساحل في السودان. وأحياناً كان ينجم عن حملات كبيرة وغزوات متوَعِّلة. ويبدو أن البيضان بدأوا غزواتهم للجنوب باستهداف المحطات التجارية في عمق السنغال. وكان إنشاء «شركة الرأس الأخضر» بالسنغال في عام ١٦٣٣ في منطقة مائية، إجراءً أمنياً للاحتراز من هجمات البيضان^(١)، الذين تُخبرنا الوثائق البرتغالية، كما رأينا سابقاً، أنهم هاجموا المنطقة منذ القرن السادس عشر. إلا أن هجمات القرن السابع عشر كانت غنائمية ومستديمة، لا تنافسية في التجارة ومؤقتة كسابقاتها، وكانت ضراوتها وتفوق البيضان فيها على السكان المحليين تتعلق بتغير مفاجئ في الموازين بدا مدهشاً للفرنسيين، الذين اعتبروا -وليس ذلك من دون أسطورة- أنها عائدة إلى تماسك مجتمع البيضان الملتحم فيما بينه، وناجمة عن عصبيتهم التي تجعلهم لا يبيعون أولادهم عبيداً كما يفعل السودان^(٢). وربما كمن سبب الدهشة في السرعة والتتابع التي فرض بها البيضان أمرهم على ما وراء النهر. ولا يتعلق الأمر فقط بحملات انيرزي الخاطفة ولا بهجمات ناصر الدين الدعوية ظاهرياً التي سيطرت على ممالك السودان الجنوبية في عام واحد في عام ١٦٧٣؛ وإنما بهجمات المسلّحين من بني حسان للكسب، التي لم تنقطع في القرون اللاحقة إلا قليلاً. وفي الوقت نفسه الذي كان فيه التبادل التجاري بين البيضان والسودان نشطاً في محطة terrier rouge التي كان يقدم إليها البراكينيون، فإن هجمات مسلّحة للكسب واكبت التعايش والتبادل مع سكان الجنوب السود. فيذكر لاكورب هجمة قام بها مائة مسلّح من البيضان العرب على المحطة التجارية ربما في ثمانينيات القرن السابع عشر^(٣). ورغم أن الهجمة فشلت بسبب تصدي رجال الفرنسيين لها، إلا أن الحراية ظلت مزدهرة من خلال من عُرفوا في المناطق السودانية بالعرب، الذين أثارت هجماتهم الدائمة الرعب في المنطقة^(٤). فهاجموا الفُلال في بداية مارس عام ١٦٨٥ في

(1) Alain Sinou, Copmtoirs et villes coloniales du sénégal: Saint-Louis, Gorée, Dakar, Paris: Karthala, 1993, p. 30.

(٢) نفسه، ص ٨.

(3) De la Courbe. 86-87.

(٤) نفسه، ص ٩٦.

أرض الوالو^(١). وستزايد هجماتهم مع القرن القادم بشكل ملحوظ. ورغم كونهم أقلية إلا أنهم كانوا قادرين على هزيمة التجمعات السودانية الكبرى.

وقد اعتقد دي بوموغروج أنه كان بإمكان ملك الفلان أن يهزم البيضان لو جمع رجاله، ولكن قومه كانوا جبناً فلم يقدروا على التصدي للبيضان الذين كادوا يفتنونهم بالقتل والتعبيد. ونلاحظُ نفس هشاشة الممالك المجاورة تجاه البيضان في ضعف الساتيغي كونغو أمامهم ضعفاً بيّناً^(٢). وغالباً ما كانت هذه الهشاشة تترجم إلى تعاون من الأرستقراطيات الإقليمية مع البيضان، الذين كان من أسباب قوتهم أيضاً استثمارات المقاتلين المغاربة فيها. ففي يوليو من عام ١٧١٨ هاجم البيضان غلام ونهبوها بموافقة الساتيغي بوبكر سيري، وكان نهبها هدية للمغاربة الذين ساعدوا بالمحلة^(٣). ويبدو أن هذه الهيمنة فرضت على الأرستقراطيات الزنجية الاستثمار في حضور المقاتلين البيضان المهرة، فتحالفت مع بعضهم ضد الممالك المنافسة. وفي عام ١٧٦٠، بدأ البيضان يوطّدون ملكوت حلفائهم في دامل؛ وفي المقابل كانوا يحصلون منهم على رخصة الهجوم مدة شهر كل عام على الضفة اليسرى من أجل التعبيد^(٤). بل إن الملوك السنغاليين في الوالو وكايور كانوا يستفيدون من حضور البيضان في جنوب النهر ويستفيدون من قدرتهم القتالية، وربما يكترونهم كمرتزقة. وقد تحدّث لا كورب عن ١٠٠٠٠ مقاتل يجهّزهم ملك الوالو «عندما يتعلّق الأمر بخطب عظيم»، فيهم القوات المُساعدة من البيضان المحاربين القاطنين في جنوب النهر^(٥).

لم يحل عام ١٧٦٥ إلا وكانت صراعات البيضان وتورّطهم في السودان -بل وحتى حروبهم مع الإنجليز- قد أسفرت عن تدمير كامل لبودور التي كان الأخيرون يفكّرون في جعلها مستوطنة. وقد كتب كاتب سيرة أهم حاكم إنجليزي للسنغال، اللواء ريتشارد وورج، وهو جورج ديوك، متحدثاً عن هذه الوضعية:

(1) Cultru, 126-127

(2) Pommegorge, 51-52.

(3) Kane, Les Maures, 241.

(٤) نفسه، ص ٢٤١-٢٤١.

(5) Cultru, p 127

«لقد قُتل الكثير من رجالنا في الحروب مع البيضان ودُمّرت مستوطنة بودور وهُجرت»^(١). وفي عام ١٧٧٥ هاجم مقاتلو البيضان الوالو ثم بعد ذلك بدأوا في الهجوم على المناطق الولفية، حيث كانوا يبيعون العبيد في الشمال حسب غولبري^(٢). وسيواصل البيضان تدخلهم في الشؤون السودانية وسيساهموا في الغالب في إسقاط أسرة دنيا نكوبي Denyankobé^(٣). وكانت هذه الأسرة الحاكمة سلالة من البولار الوثنيين المحاربين الحاكمين فيما وراء النهر منذ منتصف القرن السادس عشر، وقد وصل نفوذها من خلال أمرائها الأوائل، وخصوصًا كولي تنغلة، إلى الضفة اليمنى حيث فرضوا المكوس على البيضان وهاجموا التاشميشين مرارًا. في القرن السابع عشر قلب المقاتلون البيضان، التابعون لحركة ناصر الدين أو للمقاتلين الحسانيين، المعادلة ولم يكتفوا بأخذ العبيد من الفوتا، بل أسقطوا نظامها.

وفيما بعد، وعلى العموم، كانت هذه التدخلات تتعلق في غالبها بغزوات الترازة والبراكنة وأولاد امبارك الذين تورطوا -وبالأخص أمراء الترازة- في مواجهات مع السود فيما وراء النهر. وفي الشرق البعيد كان اعلي ولد اعمر، أمير أولاد امبارك، يفعل الشيء نفسه عندما أصبح حكمًا وسيّدًا على القرى الزنجية من باغنة ونواحيها. وفي الوسط ما بين الغرب والشرق الجنوبي في لعصابة وظد أولاد السيّد من أولاد عبد الله في البراكنة أنفسهم أسيادًا حامين للمزارعين. ولاحقًا سيجد إيدوعيش وأولاد الناصر منافذ مهمة على شرق النهر والمناطق السوداء في كيديماغا وغربها. ولم يكن المحاربون وحدهم هم مكمّن الخطر، ففي وقت مبكر تحدّث لا كورب عن لصوص البيضان الذين يسرقون البضائع في المحطات أو يغشون في البيوع ويُطْفَفون في الموازين^(٤).

لم يتوقّف خطر البيضان إلا في الثلاثينيات من القرن الثامن عشر ولفترة وجيزة

(1) George Duke, p. 127.

(2) Oumar Kane, Les Maures, 242.

(٣) نفسه، ٢٣٧.

(4) Cultru, 147-148.

في الأربعينيات؛ بسبب مشاكلهم الداخلية. ولكنهم عادوا بقوة في الخمسينيات. وفي السبعينيات رجعت جيوشهم ومغازيهم وقتلت وسبت المئات حسب وثيقة حصن لويس في ١٨ أغسطس عام ١٧٧٥، وهو أمر استحرّ في أواخر السبعينيات عندما استطاع بيضان التراززة، بقيادة الأمير اعلي الكوري، أسر الآلاف من الفوتا والوالو، بتشجيع من الإنجليز، وقاموا ببيعهم. وسيُعرف الأمير اعلي بـ«الكوري»، التي أصبحت جزءًا من اسمه، لتورطه في شؤون «لِكُورُ»، وهي التسمية البيضانية للزوج أو سكان الأكوار السوداء. ولن يتأتّى تحرر الفوتا إلا في عام ١٧٨٦ من خلال تحالف البراكنة والألماميين، القوة الفتوية الصاعدة، الذي نجح في تحييد اعلي الكوري وقتله. ولن تعود هجمات البيضان إلا بعد عبد القادر الذي أراد فرض غرامات على التراززة والبراكنة^(١). وكانت الدولة الألمامية نفسها نتاجًا للطبقة الجديدة من المحاربين الذين زادوا الهجمات في حوض النهر. ولم تكن هذه الهجمات، وخصوصًا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، هجمات بيضانية كلية بل كان المحاربون التكرور، البولار والفلان، عنصرًا مهمًا فيها وكانت هجماتهم وقطعهم للطريق من غلام إلى سان لويس تهدّد التجارة وتساهم في تدمير بودور، الواقعة على بعد ١٣٠ فرسخًا من غلام، التي أرادها الفرنسيون للتجارة^(٢).

كان من بين العوامل التي جعلت البيضان، وخصوصًا المغافرة، يخترقون السودان احتكارهم للسلاح الناري الذي كان أمراءهم يوفّرونه من خلال الاتفاقيات مع الأوروبيين^(٣). وبدءًا من القرن السابع عشر أصبح البيضان يوقّعون اتفاقيات مع الفرنسيين تضمن حصولهم على البنادق المختلفة ذات الفوهتين وذات الفوهة الواحدة، إضافةً إلى الرصاص والبارود. وبفضل هذا صار كلّ أمير في التراززة والبراكنة يحصل على قطع من السلاح ومئات الرصاصات والبارود، كما

(1) Oumar Kane, Les Maure, 249-251.

(٢) انظر نصوص الاتفاقيات في:

Golberry. Fragment, 1, 273.

(3) Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique, 2, 370.

تدلّ الاتفاقيات الموقعة مع الفرنسيين في عام ١٧٧٥^(١).

إلا أن تورّط محاربي الصحراء في السودان لم يكن دوماً عسكرياً مباشراً، بل كان يأخذ غالباً شكلاً تجارياً أمنياً وحمائياً؛ فكان المحاربون يبيعون الخدمات القتالية أو يأخذون عوائد نتيجة حمايتهم للشعوب في نفوذهم. ولكن هذا النوع من التجارة الأمنية كان يحتاج إثبات القوة أولاً وبسط النفوذ ثانياً. ولعلّه انتظر حتى سبعينيات القرن الثامن عشر عندما قام جفاف (١٧٧١-١٧٧٢) الذي أدّى إلى تزايد ضغط الترابزة على الوالو إضافة إلى حروب داخلية في الترابزة^(٢). ولم تنعدم نصرة أوروبية لهذا النوع من النفوذ، ففي عام ١٧٧٥، العام الذي شهد هجمات درامية من البيضان، تعاون الحاكم الإنجليزي العام للسنغال، أوهارا، مع الترابزة في هجمتها على الوالو، التي شهدت تدمير القرى في ما وراء النهر^(٣). وقتلت القوات الحسانية واستعبدت الكثيرين مؤدية إلى تناقص ملحوظ في شعب الضفة من الفوتانكة^(٤). وكانت هذه السيطرة شرطاً لبسط النفوذ الذي كان يُترجم إلى عوائد يعطيها الفرنسيون والمجموعات المحلية إما لقاء حماية التجارة أو حماية المناطق الزراعية أو لقاء الأمان أو المداراة. وقد استفادت من هذا الاقتصاد الحمائي مجموعات عدة من خارج إمارة الترابزة عندما كانت تحصل على عوائد من الشركات الفرنسية كزعيمي أولاد رزك، أعمر ولد اعلي وناس وأحمد بن اعمر، زعيم أولاد اخليفة الذين قتلهم أمير اترابزة، اعلي الكوري، في سبعينيات أو ثمانينيات القرن الثامن عشر بفعل منافستهما له^(٥). وقد خلف الأخير أولاده الذين كانوا يستفيدون من الاتفاقيات مع فرنسا حتى أواخر القرن التاسع عشر^(٦).

(١) انظر مثلاً الاتفاقيات كما في:

Durand. *Atlas Pour Servir du voyage au Senegal*. Paris: Dentu imprimeur, 9.

وانظر أيضاً الفصلين عن البراكنة والترابزة من هذا الكتاب.

(2) Webb, "Desert Frontier", 42.

(٣) نفسه، ص ٤٢-٤٣.

(٤) نفسه، ص ٤٣.

(٥) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٠٤؛ صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب، ص ٤٥.

(٦) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٠٥.

وبطبيعة الحال، فلم تكن العوائد الفرنسية هي كلّ مكاسب بسط النفوذ وإعلان الحماية، بل لعلّ السكان المحليين كانوا يدفعون أكثر من المراكز الفرنسية. فمع النصف الأول من القرن الثامن عشر بدأ المحاربون العرب يفرضون إتاوات المحاصيل على السكان الولوف والبولار والسونينكي، لما بدأ المنتج الزراعي في مناطق نفوذهم في النضوب ولم يعد كافياً^(١). وقد اضطرّ البيضان، لكي يفرضوا هذه السيطرة، إلى مجاورة السودان لبسط السيطرة والحماية عليهم. وهو ما نجم عن حالات من امتزاج السكان. في ولاتة كان هذا متحصلاً أصلاً؛ فتواصل اختلاط السكان السود الساراكولي بالبيضان وكانت اللغة السونينكية تُنطق بشكل واسع. وفي المناطق الأمامية من توسّع البيضان تعايش البيضان والسودان بشكل ملحوظ في مدينة ترومغومبة Troomgoomba المحصنة. وفي كومب Compe امتلك البيضان جدولاً مائياً عاش المزارعون السود في منبعه وكانت زراعتهم هبةً له. أما في ديما Deema فقد كان البيضان أكثر من السودان^(٢).



لم يكن التدفق البيضاني جنوباً مجرد، أو حتى أساس، تدفق المجتمعات المحاربة فهذه كانت مجتمعات غازية وانتجاعية غالباً سرعان ما تعود إلى ما وراء النهر. أما الآثار المستديمة فكانت آثار المجتمعات المستقرّة إما من المتاجرين الزوايا الذين توغّلوا حتى الرأس الأخضر وغامبيا، أو من المزارعين والرعاة ورجال الدين الذين وجدوا مرتعاً خصباً لرأسمالهم الروحي الذي جعلهم يكسبون أتباعاً ضمن شعوب الممالك السودانية. وربما بدأت الهجرة المعتمدة على رأس المال الديني في منتصف القرن السابع عشر، حيث تشير كتابة شامبونو إلى حضور مهم للصنهاجيين والمرابطين المتعلّمين، الذين بدأوا ينشرون الإسلام على حساب الوثنية التي كانت قائمة وخصوصاً في مجال الوالو. وقد بدأ دور رجال الدين هؤلاء يأخذ «بعداً عظيماً»، بحسب المؤرخ بوبكر باري؛ حيث أصبحوا «هم من

(1) Webb, Desert Frontier, 22.

(2) Park, 114.

يقوم بالإشراف على أكثر مناسبات الولادات والزواج والجنائزات»^(١). وتشير وثيقة لومير Le Maire في عام ١٦٨٢ إلى السود في الوالو بأنهم «أخذوا دين المحمديين من الصنهاجيين والعرب»^(٢). وهو أمر رجع في جزء منه إلى الأسلمة التي قامت بها حركة ناصر الدين. ولكنها استمرت بعد انكسار حركته، خصوصاً أن الأيديولوجيا الوثنية لنظام ديانوكوبي قد فقدت ألقها مع ظهور حركة «التوبنان» المسلمة والتميّزة بصعود المزارعين الأحرار السود، الذين استمدّوا قناعاتهم وإيمانهم بالدعوة الإسلامية القادمة من أعالي النهر.

ولعل أهمّ مثال على السيادة الروحية للبيض كان هجرة إيدولحاج إلى النواحي السنغالية. فبعد شربة بدأ كثير من فروع هذه القبيلة ذات الأصول الإدارية والترارزية يهاجرون، وخصوصاً في القرن السابع عشر، إلى الوالو وكايور، باستثناء أولاد اتشفاغة أوبك وأولاد المختار، أما البقية فقد وجدوا أرضاً خصبة في نجامبور على حدود الكايور والوالو التي استوطنوا بها القرى الولفية: نغاليل ونغومبل، ونتربتياخادي، وموسلاج، ونداخومبة، ونكليمان وغايدل. بل وكان لهم حضور قوي في قرية اسمها ودان كانت تقع بين اللوغة وكيسمبر، ربما سمّوها على ودان الموريتانية، قريتهم الأصلية في آدار. في هذه القرى عمل إيدولحاج أيضاً كتجار ماشية، خصوصاً أن جفافاً قوياً ضرب مناطقهم الأصلية في هذه الفترة. كما استطاعوا تحقيق علاقات سياسية مهمة مع الحريم السياسي في بلاد الوالو عندما وُطدوا علاقات مع اللنجريير أو زوجة البراك، (لقب أمير الوالو). ولكنهم سيظهرون في وقت لاحق خصوصاً في الكايور والوالو كزعماء دينيين يدين لهم أتباع كثر بالولاء في قرى بارال واندر وأمباكول وواراك وصاكة وأصبحوا آباء روجيين ومستشارين دينيين لدى زوجات ملك الكايور المتنفضات وكونوا تجمعاً كبيراً في انجامبور على الحدود مع الكايور. هنالك أصبحوا معروفين بـ «درمانكو». وربما كان لقب درمانكو أولاً لقباً خاصاً بنخبة معيّنة من إيدولحاج؛ لأن برينو دو بوموغروج أشار في القرن الثامن

(1) Barry, Le Royaume du Waalo, 70.

(2) نفسه، ص ٧١.

عشر إلى أن علماء البيضان في السنغال يعرفون بالمرابطين أو «مارابو» باستثناء أربعة أو خمسة من العلماء يعرفون بدرمانكو. أما أسرهم التي اختلطت بالزنج فقد عرفت في السنغال بعدة أسماء: سوغوفارة، ونداخومية وتورى^(١). وكان مصطلح «دارمانكو» نفسه يعني الممتزجين أو الشاملين، وربما الخلاسين. أما بول مارتي فيشير إليه بمعنى قريب وهو الاتحاد. ويبدو أن زعماء إيدولحاج أقرّوا هذا الاسم عندما وقّعوا به في الاتفاقية الموقعة بينهم وبين الفرنسيين في عام ١٧٨٥^(٢). ومن المرجح أنه كانت لدرمانكو، التي أضحت ماركة تجارية ودينية، جذور نسبية تُشير إلى أسلاف القبيلة البيضانية التي نُسبت في المصادر السنغالية إلى أغني بن درمانكو^(٣).

في أواخر القرنين السابع عشر والثامن عشر بدأ إيدولحاج يلعبون أدواراً دينية باعتبارهم زعماء أساسيين ليس فحسب للولوف، بل لأجزاء مهمة من الترازة، وكانت لهم مدرسة دينية كبيرة مكوّنة من عدة مبانٍ. أما جنوب الترازة فقد أدّت سيادتهم الروحية إلى امتزاج ومصاهرة مع أتباعهم بحيث اندمجت مجتمعاتهم هنالك كلية في ثقافة شعوب السودان وأعراقهم^(٤). وبصورة عامّة كان الدين والسلطة الروحية للبيضان وسيلة لتغلغل آمن وناجح في الجنوب الأسود. ولم يكن نموذج إيدولحاج فريداً؛ ذلك أن المناطق الشرقية شهدت السيناريو نفسه من قبل أهل سيدي محمود، وإن كان أغلبهم قد انحدرَ من أصول حاجية، الذين تكتّلوا في قبيلة متعلّمة ومنيعة تأمن شر الغزوات بفعل اتحادها وتألّفها من عدة أصول، واستطاعت الهبوط في القرن السابع عشر إلى الرقيبة وإلى كيدماغا، وتمكّنت من اكتساب كثير من الأتباع بين القبائل العربية وفي أوساط السود^(٥).

(1) de Pommegorge, 8-9; Webb, The Evolution, 456, 461-463; Webb, Desert Frontier, 35-36; Durand. Atlas Pour Servir du voyage au Senegal. Paris: Dentu imprimeur, 3-17.

(2) Oumar Kane. La première hégémonie peule: le Fuuta Tooro de Koli Ten?ella à Almaami Abdul. Dakar: Karthala, 2004, 458.

(3) Webb, The Evolution, 461- 463; Webb, ((Desert Frontier,)) 35-36.

(4) Oumar Kane. La première hégémonie peule: le Fuuta Tooro de Koli Ten?ella à Almaami Abdul. Dakar: Karthala, 2004, 460.

وفي الجنوب الشرقي شهدت هذه الفترة صعود كتنة في أزواد؛ فكُونوا أتباعًا كُثْرًا في السودان الشرقي وفي حوض نهر النيجر خصوصًا. وبفضل نهضة الشيخ سيد المختار صاروا أسيادًا روحيين لمن عرفوهم بالزوايا الأزوايين، وهم مجموعات كل السوك، وإن أوقعهم ذلك في مواجهاتٍ مع مجموعات كل انتصار^(١).
لقد فتحت كل هذه المجالات الدينية والقتالية والتجارية علاقات كبيرة ومختلفة سلمًا وحربًا مع المجتمعات السود، ففي أرض الرقبة والحوض وتكانت الجنوبية شهدت الحومة تحرر صنهاجة إيدوعيش وإيديشلي من النفوذ الامباركي وهو ما انعكس على القبائل الجنوبية من أولاد امبارك وأولاد الناصر الذين زاد تدفقهم جنوبًا في مجال السودان، باحثين عن أتباع وأقنان ومحميين وأصبحوا بهذا جسمًا حاضرًا في الثقافة السودانية بحيث شكّل أولاد الناصر مجتمعًا حاضرًا أبدًا في السودان وأصبحوا يعرفون باسم زنجي هو «حرمان»^(٢)، وسيُعرف أيضًا إيدوعيش باسم سنغالي هو «ديوناغي». وفيما عُرف إيدولحاج بدمانكو، فإن قبائل أخرى دخلت في السواد وامتزجت به كأوساط معينة في أولاد رزك والأيتام وتجانست وأولاد يونس.



وإذا كانت أسباب الاحتكاك مع الجنوب قد تعددت بين الحرب والتزاوج والمساكنة والدعوة والتجارة، فإن الأخيرة كانت أوسع وأشمل، وكانت موضع تنظيم وازدهار مهم على الأقل بدءًا من ثلاثينيات القرن السابع عشر حيث وردت أقدم إشارة إلى محطة «التربة الحمراء» Terrier-rouge باعتبارها محطة لتبادل الصمغ وبيعه بين البيضان والسودان في عام ١٦٣٧^(٣). وفي عام ١٦٦٧ لاحظ أندريه بري أن البولار كانوا يتاجرون مع البيضان ويأتون إليهم بالبضائع الغالية كالذهب والعاج والقطن^(٤). وفي السبعينيات اللاحقة تطوّر التبادل بتدشين محطة

(1) 67 Stewart, Scholarship and the Bilas Sudan, 77; Bartan, 114-136.

(2) نفسه، ص ٢٤١-٢٤٠.

(3) Ancelle. Les Explorations, 26.

(4) نفسه، ص ٢٩.

siratique السودانية ومحطة البراكنة البيضانية ومحطة الصحراء، Desert، أو تكشكمة، اسمها لدى البيضان، الواقعة يمين الضفة في مجال التراززة. ولم تكن هذه المحطات تقع بعيداً عن القرى الواقعة جنوب النهر وشماله، فكانت بذلك مقصد التجار الصغار والأهالي القادمين من عموم المجال وبالأخص في المواسم التجارية والتبادلية^(١). ورغم أن هجمات بيضانية كانت تستعر من حين لآخر، إلا أن أساس مداخل العامة من البيضان كان يقوم بالتبادل التجاري، وكان بعض تجارهم يمتلكون قوارب صغيرة ينقلون فيها موادهم التجارية من الصمغ لمقايضتها مع البواخر التجارية الفرنسية إما في آرغين أو في النهر في المحطات السودانية^(٢).

وربما عمل البيضان في هذه الفترة، وخصوصاً في مبادراتهم الفردية ثم المهاجرة والعشائرية، في مجال نقل البضائع في عمق السودان وخصوصاً في نقل الأملح بين الوالو، شمال السنغال، حتى المنطقة الواصلة إلى الرأس الأخضر غرباً وجنوباً. وستتطور تجارتهم للحبوب وخصوصاً بعد المجاعة في السنغامبيا (١٧٢٣-١٧٢٥) وما بعدها عندما بدأوا يتحكمون في أسعارها، وخاصةً في كايور التي تنفذوا فيها في كواليس تجارة الحبوب واحتكروا بيعها للأوروبيين في سان لويس «بأسعار قاتلة»، حسب تعبير بعض المؤرخين. وفي عام ١٧٥٣ استخدموا تحكمهم في الحبوب في تخفيض العملة التي كانت في حينه عبارة عن قطع القماش الغيني (النيلة)^(٣)، وظلّوا يأتون للسودان «بكل ما يحتاجونه [أي السودانيون] للحياة»، حسب تعبير شاهد عيان. وهو يقصد بهذا: «البقر والخراف والذرة والجلود والملح... إلخ»^(٤). إلا أن «مواد» أربعا ظهرت أساسية في التبادل بين الجنوب والشمال هذه المرحلة: العبيد والخيول والصمغ والملح.



(1) Cultru, 86, 140

(٢) نفسه، ص ١٢٢-١٢٤.

(3) Webb, Desert Frontier, 37.

(4) de Pommegorge, 14.

يمكن القول إن القرن الثامن عشر شهد بداية ظهور العبودية النظامية في الصحراء. صحيح أن تجارة الرقيق واكبت تجارة القوافل على مرّ عصورها، ولكن إذا استثنينا لحظات معيّنة فإن العبودية لن تتحوّل إلى حالة اجتماعية وتجارية سائدة في داخل الصحراء إلّا في هذا القرن. ورغم أن بعض الباحثين لا يسلم بتحوّل هذه الحالة إلى حالة نظامية قبل القرن التاسع عشر، إلا أنه يمكن القول إنها بدأت في التشكل على الأقل في النصف الأخير من القرن الثامن عشر^(١)، حيث أدخل البيضان مثلاً ٣٠٠٠ عبد في عام ١٧٧٨ من التجارة مع المالينكي والسونينكي^(٢). بل إن تقريراً فرنسياً في أواخر القرن السابع عشر في منطقة الوالو استشرّف ازدهار تجارة العبيد في المنطقة ما بين البيضان والولوف^(٣)، وهو استشراف لم يخب؛ إذ تحيل المعطيات إلى تصدير حوالي ٢٠٠٠ عبد عبر الصحراء إلى المغرب سنوياً بدءاً من القرن الثامن عشر حتّى العشرية الأولى من القرن التاسع عشر^(٤).

تضاعف استجلاب العبيد بتلاحق في إطار تورّط البيضان في السودان، وجزء من الأهمية المحلية، وحتّى المغربية، المتسارعة للعبيد. وسرعان ما صار المُستعبدون أهمّ «مادة» للتجارة في المجال. فمثلاً عندما وقع البيضان على ناجين فرنسيين في السواحل في عام ١٧٨٤ كانت أهمية استعبادهم على درجة كبيرة، بحيث إنهم اقتتلوا عليهم بالسلاح الأبيض^(٥). ورغم أن العبيد كانوا غالباً

(١) انظر هذه الأبحاث:

McDougall, E. Ann. Salt, Saharans, and the Trans-Saharan Slave Trade: Nineteenth-Century Developments," in Savage, ed., "Human Commodity," pp. 61-88.

James Webb. Desert Frontier: Ecological and Economic Change along the Western Sahel 1600-1850. Wisconsin: The University of Wisconsin Press, 1995.

Philip D. Curtin, *The Atlantic Slave Trade: A Census*. Madison: University of Wisconsin Press, 1969.

(2) Kane, Les Maures, 242.

(3) Barry. Le Royaume du Waalo, 100.

(4) Webb, Desert Frontier, 65-67.

(5) 68 Saignier and Brisson. Voyage to the Coast of Africa, 25-26.

مهمّين للأغراض التجارية، إلا أن القرن الثامن عشر كان يشهد أهمية منزلية ومضاربة مستجدّة لهم؛ لذا كان الأسياد الروحيون والعسكريون يعودون بكثير منهم للمساعدة في أعباء المضارب. وهكذا استُدخل الجيل الأول من العبيد المنزليين في الصحراء وألحقت مجتمعات جديدة بمضارب البدو ومنازل المتمدّنين، الذين كانوا يستخدمون أفرادها في الأغراض الخدمية اليومية والزراعية. ونلاحظ من نوازل القرنين السابع عشر والثامن عشر بروز وضعيّة العبيد في استفتاءات الفقهاء ومساءلاتهم؛ إذ تبزغ أسئلة تؤرّق مُلّاك العبيد: هل تجوز ذكّائهم للأضاحي والقطعان (ذبحهم لها) إذا لم يكونوا مسلمين؟ وهل يجب -وإذا كان يجب فكيف يجب- ضربهم؟ وهل يمكن استعباد السكان السود، غير العبيد أصلاً؟ إلخ^(١).

وفي أرض الحوض، المُحتكّة بالسودان، في هذه المرحلة أصبح العبيد عنصراً ضرورياً للمساعدة في أعباء الحياة البدوية كالترحال وورد الماء والرعي. وكانت تجربة هذا الجيل مضنية؛ إذ كان يتعرّض دوماً لتجويع وتعذيب كبير^(٢) بسبب شحّ الموارد وصعوبة تطبيع حياته في مجتمعات الأساد الغريبة عليه. في جنوب الحوض بدأ أولاد امبارك يعتمدون على العبيد والجواري للتكفّل عن نسائهم بأعباء ورد الماء وطحن القمح وإعداد الشعير وبناء الخيام وغيرها من أعباء الحياة الرعوية. وقد لاحظ مونغو بارك أن نسوة أولاد امبارك كن يحكمن الإماء بـ «سلطة طاغية»، وأنهن كن يصبن نقيتهن عليهن كلما أغضبهن شيء. فكان:

يُفرَضُ عليهن في الفجر ورد الماء من الآبار في جلود كبيرة يقال لها القربة. وكن ما إن يأتين بالكافي من الماء لحاجيات الأسرة والأحصنة اليومية (نادراً ما يُتعب البيضان أحصنتهم بأخذها إلى الآبار)، حتى يبدأن في طحن القمح وإعداد القوت. وبما أن هذا يُعدّ دوماً في الهواء المفتوح، فقد كانت هؤلاء الخادמות عرضة لكلّ من الشمس والغبار والنار. وفي غضون ذلك كان من أعمالهن بسط الخيام وتجفيف اللبن والقيام بأعباء

(١) انظر مثلاً: حمي الله التيشيتي، النوازل، مخطوط من جملة فتاوى من القرن الثامن عشر.

(2) Webb, Desert Frontier, 25-26.

منزلية أخرى. ومع هذا، كن يُطعمن دوّمًا بشكل سيئ وكن يعاقبن دوّمًا بقسوة^(١).

أما العبيد فبالإضافة إلى استخدامهم في الزراعة، فقد كان من مهامهم الأساسية التحطيب؛ وإلاّ فإنهم كانوا يؤدّون الأعمال نفسها التي كانت تؤدّيها الإماء. عندما أُسرَ الفرنسي سونغنيير في عام ١٧٨٤ استخدمه سيده البيضاني في جمع الحطب وخضّ الزبدة من اللبن. ولم يندر تداول هؤلاء العبيد تجارةً بين الأسياد وتنقلهم من عند مالكٍ لآخر. فقبل سنوات من تعبيد سونغنيير في عام ١٧٧٨ لاحظ لو براسير Le Brasseur تداول العبيد بين قبائل البيضان حتى السنغال^(٢). وسونغنيير نفسه مثالٌ جيّد على هذا، فقد انتقلت ملكيته إلى أسياد بيضان متتالين في فترة وجيزة قبل أن يصل إلى المغرب ويتمّ إنقاذه^(٣).

وبطبيعة الحال، لم يكن كلّ العبيد حشماً وخدمًا منزليين؛ بل كانت تنتظرهم استخدامات أخرى غير منزلية، وإن ظلتّ خدمية، فكانوا يُبعثون إلى الواحات لزراعة النخيل في آدرار وتگانت وزراعة الحبوب في الجنوب (الحوض وشمامة). ولم يكن من النادر أن يتركوا مستقلّين يمارسون الزراعة مقابل ضرائب زراعية يدفعونها لأسيادهم موسميًا^(٤)، وهو ما أتاح إمكانية تحرّر نسبي لبعض العبيد أو تحويلهم إلى وضع شبيه بـ «اللّحمة» و«الآزناكة»^(٥).

ورغم أن الخيالة الضاربة كانت دوّمًا من قبائل حسان، على الأقل بدءًا من القرن السابع عشر، إلا أن امتلاك العبيد كان أكثر في مضارب الزوايا من

(1) Park, 153.

(2) J. A. Le Brasseur. Détails historiques et politiques sur la religion, les moeurs et le commerce des peuples qui habitent la côte occidentale d'Afrique depuis l'Empire de Maroc jusqu'aux rivières de Casamance et de Gambie mémoire inédit (1778) de J. A. Le Brasseur. Présenté et publié par Charles Becker et Victor Martin Publié dans le Bulletin de l'Institut Fondamental d'Afrique Noire. Tome 39, Série B, n1 0, octobre 1977, 90.

(3) 68 Saugnier and Brisson. Voyage to the Coast of Africa, 36-37.

(4) de Pommegorge, 9.

(5) عن الآزناكة أو الملحقين انظر الفصل عن الحياة البيضانية في القرن التاسع عشر.

غيرهم. وربما عاد هذا للطبيعة التنظيمية للمجتمعات، فقد كان معظم «العرب»، المقصود بهم بنو حسان، دؤوبي الحركة، ملاكًا لقليل من المتاع، على عكس الزوايا المثقلين بالاستقرار الطويل في مضاربهم. ويجب ألا ننسى أن الزوايا كانوا يتوفرون على الغطاء الأيديولوجي لشراء العبيد، وخصوصًا من اعتبروه منهم كافرًا، كقبائل البامبارا، الذين أجاز الفقيه حمي الله التيشيتي أن امتلاكهم جائز لكفرهم، ناصحًا بضربهم لأسلمتهم، وأقر امتلاك العبيد المسلمين بملك متقدم على إسلامهم فيبقون عبيدًا بعد إسلامهم^(١). وربما ازدهرت المعالجة الزاوية لوضعية العبيد في إطار تورطهم في تجارة العبيد، وليس باعتبارها فتاوى ترفية تجريدية، ما يُحيل -إن صح- إلى تقدّم الزوايا في تجارة العبيد. ولعلّ هذا يعود إلى أن تجارة العبيد بدأت أولاً نشاطًا زاويًا، وذلك عندما كانت المجتمعات التجارية وخصوصًا إيدولحاج في الغرب تستفيد من علاقاتها الإقليمية في النخاسة. وغالبًا ما كان هؤلاء يمتازون عن بقية التجار بوظيفتهم الدينية في السودان؛ ذلك أنهم كانوا أسيادًا روحيين للنجرير، وتمتعوا باحترام الدامل أو ملك الكايور الذي كان يضايق بقية التجار، ما سمح لهم بكثير من الأرباح. وبفعل تمركز إيدولحاج في عمق البلدان السنغالية استطاعوا المتاجرة بالعبيد وتسليمهم للأوروبيين في إطار التجارة الأطلسية للعبيد. ويبدو أن منافسة العرب الحسانيين لإيدولحاج لم تحدث إلا بعد عام ١٧٦٠ عندما سُمح للمحاربين بالقيام بغزوات التعبيد لمدة شهر من كل عام^(٢).

وربما فتح هذا الباب لفوارس بني حسان، الذين امتلكوا عوامل التفوق في الأسلحة، في تحويل هجماتهم إلى عوائد وأرباح. فقد أتاح لهم خيلهم العربية الأصيلة تفوقًا بيّنًا؛ ذلك أنها كانت أحسن للكرّ والفرّ والدفع والطلب من الخيول الزنجية الأقصر منها في القامة ودونها في المناورة. وكانت سروجهم الثابتة تضمن التفوق على السرج النيجيري المتقلقل، الذي لم يكن يُمكن فارسه من مرتكز ثابت للمبارزة والرمي. وفي منتصف القرن السابع عشر أثارت قدرة

(١) حمي الله التيشيتي، النوازل، مخطوط.

(2) Webb, The Evolution, 464.

البيضان على امتطاء الخيل إعجاب دي بومغروج^(١). وغني عن القول أن هذه المهارة وتلك المواصفات للخيل مفيدة في اختطاف العبيد فكان:

... طولها إلى أعلى الكاهل يتترجم إلى سرعة هائلة. وكان وزنها الكبير يعني قدرتها على حمل الأشياء الثقيلة لمسافات كبيرة. وكان مقياس أجسامها يعني قوة مخيفة. وكان كل هذا مهمًا للإمارات المعتمدة على الخيالة في القرون: السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. ومن أجل حملات التعبيد على قرية بأكملها كان الفرسان يقومون عادةً بمحاصرة مستوطنة ثم يقومون بحرقها، وفي أثناء الهجوم يسارعون، وهم من على أظهر الخيل، إلى الذين يحاولون الهرب. وبعد ذلك كانوا يوثقون الأسرى في قائمة بشرية ويربطونها بذيل فرس المحارب. وبالنسبة إلى الهجمات الصغيرة على الحقول الزراعية، فإن المقاتلين كانوا يضطرون إلى أن يهاجموا سريعًا، وأن يأخذوا الأطفال ويضعونهم في كيس ويربطونهم على أظهر الخيل، وإذا دعت الحاجة فإنهم كانوا يختطفون الأطفال الأكبر والبالغين أيضًا ثم يفرّون سريعًا من غضب الأهالي المهاجمين^(٢).

ورغم استفادة البيضان من عبيد المضارب، إلا أن قيمة هؤلاء كانت تجارية أساسية، وخصوصًا عند المحاربين الذين كانوا يستخدمونهم أحيانًا رهائن في مقابل الذهب. ولفترة ظلّ الأسرى السود لدى هؤلاء موضوعًا للمفاداة أكثر ما هم للتعبيد. ففي عام ١٧٢٤ طلب المحاربون البيضان ١٣٠٠٠ مثقال من الذهب، أي ما قيمته ٧٨ كلغ من الذهب، فديةً لـ ١٣٠٠ أسير من الساراكولي قاموا بأسرهم في المواجهات في حوض النهر. ويبدو أن هذا النوع من المقايضة والمفاداة كان نشاطًا للبيضان الذين كانوا يغزون في منطقة غلام التي كانت بها مناجم بامبوك الغنية بالذهب^(٣). وفي نواح أخرى، وخصوصًا في فترة العشرينيات من القرن الثامن عشر، كان تورط البيضان في الاستعباد يتعلق أيضًا بمتاجرتهم

(1) de Pommegorge. Description de La Negritie, 18-19.

(2) Webb. The Horse and slave Trade, 222.

(3) Kane, Les Maures, 242-243.

مع المغرب الذي اشتدّت حاجته للعبيد بحيث إن المحلات المغربية كانت رأس الحربة في قهر السكان السود في الفوتا واستعبادهم^(١). ولعلّ البيضان كانوا يُمدّونهم بالعبيد تجارَةً. ربما بفعل هذا تطوّرت استخدامات المأسورين وأصبحت للعبيد قيمة منفصلة عن المفاداة؛ فأصبح البيضان في الجنوب الغربي يبيعونهم للفرنسيين في آرغين، ودخلت بذلك النخاسة في اقتصاد الصحراء. ويمكن التخمين أن ميلاد أو ازدهار العبودية الخدمية في مضارب الصحراء نجم من وجود مخزون عبيد للتجارة لدى البيضان؛ فتمّ استبقاؤهم في الخدمة المحلية في لحظات كساد النخاسة أو لحظات انتظارها. إلّا أن هذا سرعان ما ولّد نمط حياةً أرسقراطية بدءاً من النصف الثاني من القرن الثامن عشر، عندما أصبح وجود العبيد في المضارب وفي الواحات والمزارع حاجة أساسية لاقتصاد البيضان اليومي، وتحوّل استجلاب العبيد إلى نمط إنتاج ممأسس وليس فقط مجرد موضوع للغزو والسلب والنخاسة والمفاداة.

ومن نافل القول أن مصير العبيد في الصحراء بقي مرعباً لسكان السودان، الذين كان شبّحهم اليومي هو الاختطاف من أحد المقاتلين البيضان أو السودان. ويمكننا أن نتصوّر تراثاً غنياً من حكايات إذلال المستعبدين لدى هؤلاء. وفي قرية جارا لاحظ مونغو بارك أن السكان كانوا يتورّعون عن العبور شرقاً خوفاً من أن يختطفهم أولاد امبارك ويبيعونهم عبيداً. وقد رفض كلهم مرافقة مونغو بارك رغم أنه كان يدفع لهم للعبور معه شرقاً، حيث يصل البيضان^(٢). أما أحد البحارة الفرنسيين الذين غرقت سفنهم على الشاطئ وشاهد وحشية استعباد البيضان للأوروبيين في الشواطي في عام ١٧٨٤، فقد أخذ منه الرعب بحيث إنه أراد الانتحار بإطلاق الرصاص في فمه، ولكن محاولته قد فشلت وأصيب بجرح وأنقذه رفاقه^(٣). رغم هذا يجب الحذر من سحب هذه الممارسات على كلّ عبيد الصحراء، فقد عُقلن التعبيد وثوَقَ ورُشِّدَ أحياناً في النظم الأخلاقية

(1) Le Brasseur, 90.

(2) Park, 113.

(3) Saugnier and Brisson. Voyage to the Coast of Africa, 21-22.

المحليّة، ويبدو أن بعض الأسياد كانت تتملّكهم «الرحمة» وهم يتعاملون مع العبيد، ولم يقتصر الأمر على بعض الرحماء الذين اطلّع بعضهم على الحضّر على الرحمة بالعبيد بل أيضًا بمجتمعات القبائل السواحلية؛ فقد كتّب مستعبد فرنسي أن قبيلة بيضانية على السواحل عرفها باسم «المونجرات» عاملت الأسرى بـ «منتهى الإنسانية» وكستهم ورفقت بهم. أما أولئك الذين وقعوا في أيدي إحدى القبائل المحاربة مثله هو، فقد كان مصيرهم أتعس وأبأس^(١).



ومن الحائن هنا أن نتوقّف قليلاً للانتباه أن المجموعات المحاربة لم تكن توجّه بأسها إلى المجتمعات السودانية دون غيرها، فلعل أكبر عمليات الغزو المعروفة في الحسانية بالغزي أو «الطيحة» كانت تقوم بها عصابات حسانية ضدّ المجتمعات غير المسلحة داخل الصحراء وتسلبهم ممتلكاتهم أو تفرض عليهم المداراة. وبقدّر ما كانت شعوب السودان المحاذية لهم تشكو منهم كان للمجتمعات الصحراوية المسالمة تدمرٌ شبيه. وفي الأدبيات الزاوية انتقل الموقف إزاء المُهاجمين الحسانيين، وإزاء المغافرة عموماً، على الأقل في المجال التيشيتي-الولاتي من موقف يرفضُ تكفير المغافرة، كما ذهب إلى ذلك الفقيه حمي الله التيشيتي (١٦٩٣-١٧٥٥)، الذي قال في فتوى إن «المغافرة ومن في معناهم من عوام المسلمين، محكومٌ لهم بالإسلام؛ لأن الغالب منهم على ما عُرف من حالهم بالاستقراء معرفة الله تعالى ورسوله»^(٢)، إلى موقف القصري، الفقيه الولاتي الذي عاش في الحوض وتوفي في عام ١٨٢٠، الذي اعتبرهم ضمنياً كُفاراً وذلك في دأبه على تلقيب الزوايا، دون بني حسان، بالمسلمين. وكانت مجموعات حسان الصائلة، تُعرف في أدبيات القصري بـ «الصوص» وباسم فقهي قانوني هو «مستغرقو الذمة». وتعطي «نوازل القصري» فكرة عن ديمومة الغزوات التي كان يقوم بها هؤلاء ضد القبائل المستقرة. فقد اعتبر الزوايا أسارى لدى «الصوص». ولم يخف هذا الاستقطاب على زائرٍ للمجال هو

(١) نفسه، ص ٢٨ - ٢٩.

(٢) حمي الله التيشيتي، نوازل، مخطوط.

لاكورب الذي تحدّث عن الحرب المستعرة بين المجموعات البيضانية التي يهاجم أقوياءها ضعفاءها على حين غفلة من أجل السلب والنهب وينتقم المُهاجمون أحياناً عندما يجدون فرصة موازية، مما يتحوّل إلى حروب (هذه بتلك)^(١). وكان الانطباع السائد، وخصوصاً لدى العابرين والمستكشفين، هو أن عصابات اللصوص كانت بلاء الصحراء ومن يعبرها؛ فأنشطتها العدوانية لم تتعلّق فقط بحالة حرب وغزوات، بل بمنهج تصعلك يتعلّق بالخداع والغدر والاحتيال والسلب الفردي والجماعي.

ومن الواضح أن الجماعات والأفراد التي لا تتمتع بحماية كانت من أكثر ضحايا الصائليين الحسانيين. ولعلّ الأمر صدق على عابري الصحراء الاعتباريين أكثر من غيرهم. فقد كانوا، وخصوصاً في غياب إذن عبور أو حماية، نوعاً من **الدّم الحلال** أو المهدور homo sacer وغنيمة لمن يقدّر عليهم. وقد ذهب مغامرون واستكشافيون أوروبيون ضحية هؤلاء. فيذكر سوغنير أنه عندما تعطلت سفينته وأصدقائه في عام ١٧٨٤ فإن البيضان أخذوا العنصرين اللذين وصلا إلى الشاطئ وعذبوهما وسلبوهما قمصانهما^(٢). وقد راح الملاحم هوغتون ضحية هذه العملية. كان قنصلاً في المغرب وقد درس عادات البيضان ورغب في استكشاف حياتهم وأرضهم. وفي نوفمبر عام ١٧٩٠ بدأ رحلته من مالي الحالية صاعداً إلى بلاد البيضان، حيث مرّ ببلاد أولاد امبارك ولقي رفقة من البيضان سائرة إلى تيشيت فترافق معهم، غير أنهم اعتدوا عليه بعد يومين وسلبوا منه كلّ ما يملك. وهنالك اضطر إلى السير على قدميه إلى فارا في آدرار، حيث مات عطشاً عند وصوله إليها أو ربما اغتيل^(٣). وكانت مخاطر موت العابرين الغرباء إلى الصحراء تزداد عندما لا يتوفرون على حماية القبائل في المساحات التي تتحكّم فيها؛ لذا جزم تقرير المستكشف الفرنسي ليوبولد باني في منتصف القرن التاسع عشر بأمان العبور في الصحراء شريطة أن يحصل المارون على تصريح قبلي بالمرور^(٤).

(1) Cultru, 147.

(2) Saugnier and Brisson. Voyage to the Coast of Africa, 13, 20.

(3) Ancelle. Les explorations, 45-47.

(٤) نفسه، ص ١٠٢.

ولم يكن لسكان الصحراء من القبائل والأفراد غير المحميين من هجمات مستغربي الذمة غير المفاوضة والمساومة. ويبدو أن قانوناً عرفياً تكرر لاستنقاذ وافتداء الممتلكات التي نهبها اللصوص، وهو دفع ضريبة عرفية عُرفت بالمدارة. على العموم، لقد كانت المدارة تحيل إلى ممارسات عدّة تتراوح بين المداينة إلى شراء الأمان من المجموعات الغازية إلى دفع جزء من المال المسروق للناهبين بعد، أو لقاء، استنقاذه. وربما كانت ظروف المدارة أشدّ في المنطقة التي عاش فيها القصري التي لم توجد بها إمارة مركزية تحتكر الغرامات؛ وإنما عاش في منطقة تعددت بها مراكز القوى. فبالإضافة إلى تشرذم سلطة أولاد مبارك وأولاد الناصر وأولاد داوود في الرئاسيات المتشعبة، فإن المجموعات الزاوية في الكصور، وخصوصاً في ولاتة، كانت تعاني من مخاطر عدة مجموعات لا تخضع لسلطة واحدة، وهو ما جعل المدارة قانوناً اجتماعياً وواجباً حمائياً ووقائياً كان الفقهاء ينصحون به^(١). ورغم أن الفقيه والقاضي، الطالب محمد بن خليفة، أثار نقاشاً في عام ١٨٩٥ عندما قال بتحريم المدارة؛ إلا أنه كان نقاشاً متأخراً، وبدلاً من أن يأتي بتوحيد موقف ضد المدارة فإنه أثار شقاً أهلياً بين قومه، أبناء اندموكي^(٢).

ومن الواضح أن المدارة، وإن كانت غرامة، إلا أنها كانت تتشرّع ببعد أيديولوجي يتمثل في أساسها السياسي والديني. ووصل تقنينها إلى أن صارت عقداً مكتوباً. وغالباً ما كانت كتابة العقد تأميناً لحقوق دافع الغرامة، فتشير وثيقة كتبها آل بريك في القرن التاسع عشر إلى أنه «ليس لأحد من العرب مغرم عليهم إلا آل اعمر أقداش»^(٣). ولا شك أن توضيح المغارم في عقود مكتوبة كان يُسهّل جبايتها. وكان من المعتاد أن يقدم أفراد القبائل المحاربة إلى قبائل الزوايا المغرمة طالبين منهم هبة المدارة. ويشير أحمد بن الأمين الشنقيطي، مؤلف الوسيط، إلى حادثة كهذه عندما قدم وفد من أولاد دليم إلى مسجد لقبيلة إيديقب

(1) Boubrik RahalX, Hommes de Dieu, hommes d'épée: stratification sociale dans la société bid'ān. In: Journal des africanistes. 1998, tome 68 fascicule 1-2. pp. 261-272.

(2) حوليات تجكجة، تحقيق عائشة بنت ديدي، نواكشوط: جامعة نواكشوط، ص ٤٧.

(3) وثيقة عندي صورة منها مأخوذة من بعض الوثائق الودانية.

وطلبوا منهم جمل المداراة، وقد تطوَّع بافتخار الشاعر امحمد اليعقوبي بدفع ذلك الجمل عندما تلكأ أقرانه في دفعه^(١). ويبدو من هذه الحالة بعينها أن دفع المداراة لم يكن دومًا فعلًا إذلاليًا في المجتمعات التي تدفع المداراة، بل كان يمكن لمن يتحمَّل دفع المداراة عن رهطه، أن يحقق قيمةً نُبليةً بدفعها.



وبالعودة إلى تجارة الصحراء، فقد نمت تجارة الخيل تزامنًا مع الانزياح إلى الجنوب خاصَّةً أن الحاجة لخيل البيضان قد تصاعدت في أوساط الأرستقراطية في منطقة الساحل ووسط ممالكها الباحثة عما يضمن تفوقها العسكري، الأساس لقوة محاربيها وحمايتها. وكما أسلفنا، فلم يكن ثمة سلاح حربي أكثر تفوقًا من الخيل العربية الطويلة الصبورة على القتال. ولعلَّه ما كان للأرستقراطية المحاربة أن تكون متحكِّمة من دون قدرتها على امتلاك هذا السلاح وتوظيفه. وبطبيعة الحال، وكما رأينا، فقط كان استدخال الخيل الصحراوية عادة في علاقات السودان بالصحراء، على الأقل منذ نشأة المدن التجارية وبيعائها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ولكنَّ القرنين السابع عشر والثامن عشر كشفًا عن أوجهٍ جديدة لازدهار تجارة الخيل الصحراوية، وهو ارتباطها بنشأة الممالك السودانية وتمكُّنها.

بفعل عوامل بيئية وتاريخية، وبفعل ثقافة الحفاظ على نسب الخيل، كان البيضان يتفوّقون في امتلاك الخيل الجيدة، التي كتب دي بومغروج أنها أحسن خيلٍ رآها في حياته، وتحدّث عن اعتناء البيضان بتربيتها وبأصولها وبعدم مزاجتها مع خيلٍ غير أصيلة لئلا تفقد نقاء نسلها. ولا ريب أن هذا الحرص كان مُنتجًا؛ ذلك أن هذه الخيل كانت تُباعُ بأثمان غالية جدًّا في الجنوب. وقد نقل هذا المستكشف والمستشار حالة شاهدها في هذا الشأن في عام ١٧٥٢ قائلاً: «لقد شاهدتُ أحد هذه الخيول يُباع لملك زنجي. وقد دفع مقابله مائة عبد ومائة بقرة وعشرين جملًا»^(٢). ومن الواضح أن هذا الثمن لم يكن اعتياديًّا؛ إذ يتعلّق

(١) الشنقيطي، الوسيط، ص ٩٢.

(2) de Pommegorge. Description de La Negritie, 17.

الأمر بشراء مَلَكِي وبحصان فريد قال عنه الكاتب: «ذلك الحصان كان سيثير إعجاب حتى أولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن الخيل»^(١). وبالطبع لم يكن هذا الثمن الباهظ مردود كل حصان صحراوي يُباع في السودان، ولكنه يعطينا مثلاً عن غلاء الخيل وعن الطلب عليها في ما وراء النهر.

ولعل ما ضمن مواظبة الأرستقراطية السودانية على شراء الخيل الصحراوية لأكثر من قرنين، كان مشكلة بنوية وصحية تتعلق بحياة هذه الخيل في السافانا. فلم يكن متوسط عمرها فيها يتجاوز ثماني سنوات، وكانت -بانتقالها إلى أجواء أجنبية عن تكيفها الأصلي- تتعرض لأمراض المثقبيات والרגام والكزاز والسقاوة وداء الخيل^(٢). وهو ما جعل سكان السافانا يضطرون إلى أحد الأمرين: إما مزاججة الخيل العربية مع البربرية لضمان نسل متكيف أو الاستمرار في شراء الخيل العربية للتعويض عن موتها السريع وعدم قدرتها على التوالد والتناسل في جو غير موئم لها صحياً^(٣).

على مدى قرون حققت تجارة الخيل نمواً متسارعاً وأرباحاً متنامية باطراد. كانت في بدايتها نشاطاً حكرًا على المدن التجارية وخصوصاً مركزي ودان وشنقيطي. ولكنها سرعان ما تطوّرت إلى استثمار أكبر عندما بلغ سعر الحصان ما بين عشرة إلى خمسة عشر عبداً^(٤)، وذلك في فترة القلاقل الكبيرة شمالاً وجنوباً أيام معارك ناصر الدين بدءاً من عام ١٦٥٧. ومن العجيب أن سعر الخيل ازداد بعد هذه الحرب عندما وصل إلى خمسة وعشرين عبداً في عام ١٦٨٥^(٥)، ربما في إطار حالة توقع الحرب وتمددها إلى السودان. ومن الجلي أنه كان لهذه التجارة انعكاسات اجتماعية مهمة؛ ذلك أن قبائل متاجرة في العلك بدأت في الدخول فيها، وكوّنت خطاً تجارياً ساحلياً لنقل العبيد إلى المغرب بعد مقايضتهم بالخيال في المجال السوداني. من هذه القبائل ظهر اسم أيّدولحاج (المعروفين

(١) نفسه.

(2) Webb, The Horse and slave, 221.

(٣) نفسه، ص ٢٢١-٢٢٢.

(4) Barry, Le Royaume du Waalo, 61.

(5) Webb, "The Horse and Slave Trade," 236.

حينها فيما وراء النهر بدرمنكو). وفي عام ١٦٨٥ كان الزعيم التجاري لإيدولحاج يقرّر في حديث مع لأكورب أن سعر الحصان يساوي خمسة وعشرين عبداً^(١). وتُظهر وثيقة في عام ١٦٨٣ كيف كان إيدولحاج يحشدون قوافل يسيرونها من الساحل إلى واد نون وإلى مراكش عندما هجروا الطريق الأشهر من آدرار، وذلك بعد الصراع الدامي مع كنتة^(٢). وقد زاد هذا من الأرباح مع المغرب شمالاً، ولا شك أنه زاد من قيمة الخيل جنوباً. وبعد عقود أخرى وتحديداً في منتصف القرن الثامن عشر، ارتفع سعر الفرس إلى ٣٠ عبداً أحياناً^(٣).

على أن تجارة الخيل كانت -شأنها شأن كل تجارة الصحراء- عرضة للخبو والكساد، كما لم تكن أسعارها موحدة في كل الأمكنة. فقد لاحظ مونغو بارك أن الزوج كانوا يدفعون ١٤ عبداً مقابل حصان واحد من أحصنة أولاد امبارك. ويبدو هذا سعراً خيالياً مقارنة بسنوات لاحقة في ثمانينيات القرن الثامن عشر، عندما كان الحصان العربي يُقايز بخمسين قطعة من القماش الغني أي ما قيمته ثلاثة عبيد. ورغم أن أحد أهم الباحثين في تاريخ تجارة الخيل، وهو كورتين، يعتقد أن تجارة الخيل أفضت إلى الأفول في ثمانينيات القرن الثامن عشر؛ إلا أن أبحاث جيمس ويب تظهر أن التجارة ازدهرت حتى منتصف القرن التاسع عشر بسبب الحاجة المستديمة للحصان العربي، الذي -كما رأينا- لم يكن ممكناً الحفاظ على أمن الأرستقراطية السودانية إلا بالاستمرار في شرائه^(٤). إلا أن من الواضح في الوقت نفسه -وجرياً مع كورتين- أن تجارات صحراوية جديدة معتمدة على إدخال بضائع استهلاكية منزلية ازدهرت وأفسحت لها تجارة الخيل المجال. كما أن التطورات الحربية، وخاصة دخول السلاح الناري السريع، قد يكون قد خفّف قليلاً من هيمنة الحصان. ولكنها تجارة لم تنته دون أثر، فكان الإقبال على خيل الصحراء ينعكس سياسياً واقتصادياً على الجنوب. ولم تتدهور تجارة الخيل إلا بعد أن خلقت أرستقراطية عسكرية قوية في مجالي السنغال

(1) Cultru, 125-126.

(2) Webb, "The Evolution," 468.

(3) Webb. "The Horse and slave," 236.

(4) Webb, Desert Frontier, 69-96.

ومالي وعمّمت من الحرب فيهما. ومنذ عام ١٦٨١ كان البراك (الأمير في الضفة السودانية) في غوري^١ يمتلك جيشًا يتألف من ٦٠٠٠ حصان كسبها من مقايضة العبيد مع البيضان^(١). واستمرت عملية مراكمة الخيل في السودان حتى أنتجت خيالة سودانية صاعدة في منتصف القرن التاسع عشر تمكّن بعضها من ردّ خطر البيضان، وخصوصًا في مجال الدولة الفتوية شمال مالي.



أما الملح، فرغم أنه كان تجارةً قديمة ولم يعد أبرز بضائع الصحراء، خاصة بعد اكتشاف الصمغ؛ إلاّ أنّه كان ما يزال مهمًّا جدًّا. بل يبدو أن تجارته ازدهرت طوال هذه الفترة، حيث في عام ١٦٧٠ أشار إليها جون أوجيلبي Ogilby في كتابه عن إفريقيا قائلًا:

بين بيهوت والحصن الفرنسي، في حوض نهر صنهاجة ينمو هنالك الملح الذي يأخذونه ويكسرونه إلى قطع كبيرة بالحديد ويجفّفونه على الأرض، وهكذا عندما يجفّ ينمو ناصع البياض. وعلاوة على هذا، فإنه يشحن في يوم واحد فيتراكم بكمية معتبرة؛ وهكذا يُصبح مستودعًا كبضاعة دائمة، وليست كميته ضئيلة بل هي كافية لحاجيات بلد بأكمله؛ فيحملونه على الإبل. وهكذا يجنون منه أرباحًا يعطيها ملك الكايور لرجال الدين^(٢).

وإذا كان المقصود برجال الدين في الجنوب الغربي السنغالي إيدولحاج، فإنهم في الجنوب الشرق المالي كانوا كتنة. وفي القرن الثامن عشر كان كتنة يسيطرون على جلّ، إن لم يكن كلّ، السباح الكبيرة في آدرار. وربما تكرّست هذه السيطرة تحديدًا في عام ١٧٦٦/١٧٦٧ عندما بسطوا سيطرتهم على الممالح من خلال أتباعهم، أغزازير، ومن خلال النفوذ الواسع لزعيمهم الشيخ سيدي محمد الكنتي (ت ١٨٢٦)^(٣). وكانت الممالح بالترارزة مدرةً أيضًا للدخل بسبب قربها من السودان. وقد اعتقد بومغروج أن تجارة الملح أسهل تجارة عند البيضان إطلاقًا؛

(1) Barry. Le Royaume, 61.

(2) Webb, The Evolution, 464.

(3) Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique, 1, 77.

ذلك أنّ الملح كان موجودًا بوفرة في السباح والممالح التي كانت تقع على بعد ٢٠٠ فرسخ شمال النهر. ولم يكن على البيضان سوى نقل الأملاح إلى سكان الجنوب فيما وراء غالام في السنغال. ولكي يفعلوا هذا، فإنهم لم يكونوا يحتاجون لأكثر من حيوانات ناقلة كالإبل أو كالأبقار. ولا شك أن هذا يُحيل إلى تورط البداوة أو الانتجاعية البقرية (آسكران)، لا الإبلية وحدها، في تجارة الملح. وبالطبع كانت هذه الانتجاعية على استئناس بالمجتمعات السودانية. وتماّمًا كما في روايات القرن الحادي العاشر، فإن المستشار الفرنسي تحدّث عن حالة تبادلية بين البيضان والسودان. كان البيضان أغنياء بالملح، وكان الولوف أغنياء بالذهب ولكنهم كانوا في حاجة ماسة للملح؛ وكان البيضان يقومون باستغلال هذه الحاجة فيبيعون الملح غالبًا جدًّا، بحيث إنهم كانوا يحصلون على ثلاث أو أربع أونصات من الذهب مقابل عديلة (صفيحة بمُدّ ووزن مُعيّن) من الملح. وسرعان ما أغرت أرباح الملح الفرنسيين بالتجارة فيه، فدخلوا على هذا الخط المربح ولكنهم بقوا دون مستوى منافسة البيضان^(١).



منذ بداية القرن السابع عشر بدأت تجارة الصمغ (العلك) في البروز كأهم تجارات البيضان مع الأوروبيين. كانت أهمية الصمغ العربي تكاد تكون ثورية في صنع الثياب؛ ذلك أنه أصبح مكوّنًا أساسيًا في صناعة القماش القطني الخام (كاليكو)، وهو نسيج المبرد القطني الأقل ثخانة وكثافة من قماش الدينيم، شبه الوبري. وهكذا وُفّر استخدامه فرصًا في تحسين جودة الأقمشة والقطن والحريز والمناديل، متيحًا قطيعة مع الألبسة العتيقة. وكان يُستقدم أساسًا من المناطق الصحراوية، إما من الجزيرة العربية أو الصحراء الإفريقية. وقبل الثورة البخارية كانت التجارة البرتغالية والأسبانية والفرنسية تضطر لاستيراده من الجزيرة العربية، وهو مجهودٌ كان مضيئًا ومكلفًا ساهم اكتشاف الصمغ الموريتاني بحلّه، فكان بمثابة فتح تجاري لأوروبا؛ لأنه قلّل كلفة الصمغ واختصر المسافة إليه. ومنذ القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، سيزداد الطلب الأوروبي على الصمغ

(1) de Pommegeorge, 14-15.

الصحراوي من ثلاثمائة طن في عام ١٧٣٤ إلى ألف طن في عام ١٨٠٣^(١). وبطبيعة الحال، فإن هذه الحاجة الغربية تُرجمت إلى تحولات اجتماعية صحراوية، ولم تحل نهاية القرن السابع عشر حتى كان الكثير من البيضان في الترازة يعملون في جمع العلك، بحيث إن شاهداً فرنسياً عمّم أن «كل البيضان يجمعون الصمغ ويأتون به من مائة فرسخ على ظهور الإبل والأبقار الكبيرة»^(٢). وعندما فُتِحَ مزادٌ للصمغ في أبريل عام ١٦٨٥ قَدِمَ إليه عشرات هؤلاء التجار على قوافل صغيرة من «عشر وعشرين وثلاثين من الأبقار الناقلة»، شارعين في وزن الصمغ وبيعه للمُشتَرين الفرنسيين. ولم تخفَ على المراقب الفرنسي علامات السعادة على أوجه التجار البيضان^(٣).

ولم تكن هذه غير إرهاصات لمستقبل الصمغ، فابتداءً من القرن اللاحق أصبح المادة التجارية الأكثر جلباً للمواد الثمينة من الثياب والعبيد إلى الصحراء، وسيحدّد علاقة البيضان ليس مع الأوروبيين فحسب؛ بل ومع الممالك السودانية في الضفة اليسرى، وخصوصاً مملكة الوالو^(٤). ولعلّ أهمّ استقداماته للحياة البيضانية كان استدخال القماش الغيني، النيلة، وهو قماش استُجلب من الهند وأضحى شعبياً جداً في إفريقيا، وأصبح الفرنسيون يبادلونه بالصمغ. وسرعان ما أصبح عملية الصحراء ووحدة التبادل فيها ومعيّار قيمة الأشياء فيها^(٥)، وشجّع على استثمار الآلاف فيه، ما أصبح متاحاً بفعل انتشار غابات الصمغ الكثيفة في مجال الترازة والبراكنة، المُمتدّة في هذا القرن مساحة مائتي كيلومتر شمال آرغين. إلّا أن استقدامات الصمغ كانت بيئية أيضاً. وربما بفعل التوغل البشري والاستخدام المفرط للغابات واستنزافها، أخذت المساحات الخضراء في التآكل والتراجع، تزامناً مع الجفاف، إلى الجنوب.

وصحيح أن الهولنديين في القرن السادس عشر قايسوا الصمغ مع البيضان في

(1) Webb, Desert Frontier, 100.

(2) Cultru, 147.

(3) نفسه، ص ١٥٠-١٥١.

(4) Barry, Le Royaume du , 102.

(5) Webb, Desert Frontier, 97-98.

آرغين، ولكن الأمر ربما لم يكن ذا قيمة قبل القرن السابع عشر. ولعلّ أوائل من فعل هذه التجارة كان تجار قبيلة أولاد ديمان^(١). إلّا أن ريادتهم سرعان ما ستفسح المجال لصالح إيدولحاج، الذين هاجروا في القرن السابع عشر إلى الترازة، وبدأوا في الاستثمار البشري في جمع العلك وبيعه وحولوا تجارته إلى شكل منظّم مستديم. وكان مما ساهم في تفوقهم إدخالهم لتحصيل الصمغ في حركتهم التجارية الكبيرة المتنقلة من ودان إلى أرض الغبلة إلى الوالو وكايور، حيث كانوا يبيعونه ضمن بضائع أخرى. وربما كانت إشارة لوكورب إلى البيضان الذين كانوا يبيعون الصمغ في نديوربل في الوالو في محطة تكشكمة، المعروفة لدى الأوروبيين بـ *escale de desert* أول إشارة إليهم؛ ذلك أنّه شاهدتهم يفدون إلى المنطقة موسميًا في شهر يونيو، حاملين العلك على ظهور الإبل لبيعوه على الضفة^(٢). وفي عهد بوموغروج في خمسينيات القرن الثامن عشر كان موسم تجارة الصمغ يبدأ من ديسمبر إلى أبريل أو مايو^(٣). بل إنه أشار إلى محطة تجارية أقامها إيدولحاج اسمها «سرينفالي»، نسبة إلى زعيمهم التجاري، وقد ظلّت هذه المحطة حيّة ومستمرة من ثمانينيات القرن السابع عشر حتى القرن الثامن عشر^(٤). وكانت لهم محطة أخرى عرفت باسم شبيه، هو «سرينباتي»^(٥).

وفي النصف الأول من القرن السابع عشر تطوّرت هذه التجارة الموسمية إلى تجارة مجتمع مهاجر متاجر عندما بدأ إيدولحاج، ابتداءً من العام ١٧٤٠، توظيف المتاجرة بالصمغ في استيراد الحبوب من الممالك الولفية إلى مجال البيضان^(٦). كانوا يعتمدون تنظيمًا تجاريًا جمعيًا دقيقًا، وهو ما سمح بنمط من القيادة القبلية يختلف عن بقية التنظيمات الاجتماعية؛ إذ كان لهم زعيم تجاري يتخذ لقب «شمس»، وهو لقب أرستقراطي مشتق من جد القبيلة، شمس الدين، ولكنه لقب

(١) نفسه، ص ١١٠-١١١.

(2) Cultru, 100.

(3) de Pommegorge. Description de La Negritie, 14-15.

(4) Cultru, 130.

(٥) نفسه، ص ١٣٩.

(6) Webb. " The Evolution," 455.

اعتمده الأوروبيون أيضًا لممثل إيدولحاج التجاري منذ عام ١٦٦٨، وهو ما كان يُقابل توصيف مفاوضات تجاري فرنسي آخر له بأنه «زعيم البيضان الزوايا»^(١). ولعلّ إيدولحاج، وربما الجاليات البيضاء المتاجرة عمومًا، قد عرفت هذا النوع من الزعامة التجارية. وقد عُرف هذا الزعيم أيضًا بلقب «سرين»، الذي كان لقبًا ولفيًا يعني السيد، حيث كان يفاوض معهم على أسعار العلك ويتفق معهم عليها^(٢)، وهي الأسعار التي كانت ذات أهمية كبيرة للشركات الفرنسية التي كانت تضطر أحيانًا لشراء أطنان الصمغ ورميها في البحر للحفاظ على غلاء أسعاره، وبالتالي غلاء أسعار منتوجاتها وصادراتها منه^(٣). وفي عام ١٦٨٥ ناقش زعيم إيدولحاج التجاري مع لأكورب الذي عرفه باسم «سرينفالي»، وحصل منه على هدية قوامها سبع بقرات^(٤).

وبفعل الطلب الغربي على الصمغ أصبحت كمية تجارته تتراوح ما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ طن للعام إلى ١٠٠٠ طن في الثمانينيات من القرن الثامن عشر. وفي أيام دي بوموغروج كانت تتراوح ما بين ٨٠٠ إلى ٩٠٠ طن يأتي بها البيضان من مسافة خمسة وعشرين فرسخًا من المحطات التجارية ليقاوضوها بالأقمشة القطنية الغينية الزرقاء. وشهدت هذه الفترة ارتفاعًا لأسعار القطن؛ بسبب وجود الإنجليز في ميناء هدي، ووجود الفرنسيين في المحطات النهرية، ما سبب إزعاجًا مؤقتًا للفرنسيين؛ لأنهم لم يعودوا قادرين على فرض أسعارهم^(٥). وبطبيعة الحال، فهذه هي الفترة التي شهدت صراعًا كبيرًا بين الفرنسيين والإنجليز تحالف فيه الأخيرون مع إمارة الترازو وتمكنوا فيه من إبعاد الفرنسيين لفترة. وربما بسبب هذه الصراعات اضطرّ الفرنسيون من خلال الشركة التجارية الفرنسية في السنغال

(1) Webb, Desert Frontier, 144-145.

(2) Webb, The Evolution, 463; Webb, Desert Frontier, 111.

Cultru, 127, 150.

(٣) حدث هذا في النصف الأول من القرن الثامن عشر، حسب جيمس ويب.

Webb, Desert Frontier, 100.

(4) Cultru, 125.

(5) de Pommegorge, 11-14.

إلى توقيع اتفاقية تجارية مع زعماء إيدولحاج في عام ١٧٨٥. وتشير هذه الاتفاقية إلى الشروط نفسها التي وقّعها جان بابتيست ديران مع إمارتي الترازة والبراكنة، غير أن الفرنسيين دفعوا هذه المرة ما هو أكثر من سبع بقرات. وقّع الاتفاقية شمسُ إيدولحاج واثنان من قيادات القبيلة التزموا فيها بالنأي عن المتاجرة في ميناء بورتنديك، حيث يتوطد الإنجليز، وبالعامل على تخفيض الأسعار وتشجيع لا قطني العلك على بيعه في المحطات الفرنسية بدلاً من غيرها. وفي مقابل هذا حصل التجار الكبار على إكراميات سنوية تتعلق بأمداد من «الزرع» (القمح والشعير) والعسل والخمر والقطن الأسود والنحاس والمقصات والأمشطة والقراطيس وغيرها^(١).



ورغم أن تجارة البيضان في هذه الفترة كانت تُشحن غالبًا في القوافل وتعتمد غالبًا على العمل الجماعي، إلا أن الأمر لم يكن شرطًا مطلقًا؛ فقد كان بإمكان الأفراد التعليك وحمل محاصيلهم من الصمغ وبيعها دون الحاجة للقوافل. وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أمكن لكثير من العبيد أن يجمعوا الصمغ وبيعه في عطلم الأسبوعية (الثلاثاء والخميس غالبًا) ما يسمح لهم بشراء حرياتهم من أسيادهم. وربما انطبق الشيء نفسه نسبيًا على بيع الملح، مع أن مجال الملكية الفردية فيه كان أضعف من مجال الصمغ؛ حيث كانت الغابات حقًا مُشاعًا للجميع. على العموم، لقد ازدهرت التجارة الصغيرة مع الفرنسيين وسكان السودان، فكان البيضان يبيعون الماشية لهم فيما وراء النهر، وكان الكثير منهم يأتون لهم بالسمن لبيعه. وتشير معطيات القرن الثامن عشر إلى أن صيادي البيضان الصغار كانوا يأتون بطرائد الصحراء المستعصية وبمنتجاتها كريش النعام وكالبغوات التي كان الفرنسيون يقبلون على شرائها ويشتدونها بقدرتها على تلفظ الكلمات ببيان وفصاحة. ولم يندر حتّى من بين هؤلاء الباعة المتنوعين من

(١) انظر نصوص هذه الاتفاقيات في:

Jean Babtiste Leonard Durand. Atlas Pour Servir du voyage au Senegal. Paris: Dentu imprimeur. 3-15.

يقدمون بالعنبر وغيره إلى المشتري فيما وراء النهر^(١).



كانت الصحراء دومًا في حالة من الندرة حتى في أوساطها الغنية. ومن المهم أن ننظر بنسبية إلى مفاهيم الثراء عند الحديث عن الصحراء. ولكن إذا كان لصحراء القرن السابع عشر ازدهار -في ظل هذه النسبية-، فهو حتمًا كان ازدهار المدن والكصور التي استفادت من انطلاقة جديدة بعد تحرر طريق القوافل من التأثير السعدي والعلوي المغربي ومن المجموعات الحسانية الضاربة كالرحامنة والودايا وغيرها. وربما كان جوهر هذه القصة تاريخيًا تدرجيًا أساسًا ويتعلق بنوع من تراكم رأس المال الرمزي والعلاقات العامة وتنجيرها؛ فقد امتلكت قبائل الخطوط التجارية، التي يُقال إن كثيرًا منها قدم من الواحات الجنوبية وأسس الكصور والمدن، شبكة كبيرة من العلاقات التجارية في عموم الصحراء؛ ولذا احتكرت تجارة البضائع بين الجنوب والشمال من غلميم إلى سيغو وسيطرت على التجارة الكبيرة عن طريق تحكّمها في المنافذ المدنية والاستراحات القوافلية. ويتعلق الأمر بالقبائل التجارية الكبيرة ذات الأصل أو العلاقات مع الخطوط التجارية الممتدة من درعة التافيلالت إلى تمبكتو، كتجكانت وإيدو علي والسماسيد وكننة والشرفاء وإيدولحاج وأولاد بوسباع وتكنة. . إلخ^(٢).

تمكّنت المدن التاريخية المسكونة من قبل هذه القبائل من الاستفادة من فرص التجارة الجديدة في الخيل والذهب والصمغ والأملح. وعلى عكس السياسة السعدية التي حاولت بسط النفوذ مباشرة على السودان، فإن السياسة العلوية ارتأت التركيز على القبائل البيضانية لتسهيل علاقاتها ببلاد السودان وبالتجارة القوافلية. وهكذا قام السلطان مولاي إسماعيل وبعض خلفائه بحياسة علاقات مهمة مع قبائل آدرار والترارزة والحوض، فنسج علاقات خاصة مع القبائل التي كانت تحمي القوافل كأولاد دليم والودايا، ومع القبائل التي كانت تسكن المدن كإيدو علي في شنقيطي وفي تجكجة، المتأسّسة حديثًا، ومع تجكانت، الذين كانوا

(1) de Pommegorge, 9-15, 161.

(2) Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique, 1, 80-81.

يُسَيِّرُونَ القوافل، ومع أولاد امبارك، الذين كانوا رأس الحربة في التوغّل في السودان، والذين كانوا في ذلك الوقت متوطنين بين تگانت وباغنة. وفي الوقت نفسه بدأ كنتة يهبطون إلى الحوض مسيِّرين قوافل مهمة. وفي الشمال كان تجكانت يعملون أدلاء للقوافل التي كانت تسير ما بين غلميم إلى شنقيطي وودان، مرورًا بأراضي أولاد دليم في تيريس ثم تتجاوز إلى تيشيت وولاتة ومن هنالك تنعطف إلى السودان الغربي (السنغال) مارة عبر مجال الترازة. وكما يُبيِّن الباحث المتخصص في التجارة الصحراوية في هذه الفترة التاريخية، ميشيل أبيتول، فإن هذه القوافل كانت تتمتع بقدر كبير من الأمن عكس ما ذهبت إليه تخمينات بعض المؤرخين^(١). وكانت التجارة القوافلية تسير وفق ثلاثة محاور، كان اثنان منها يرتبطان جدًّا بتجارة المدن القوافلية الموريتانية: الطريق اللمتوني القديم الذي يربط بين وادي درعة وغانة، والطريق الأوسط الذي كان يربط توات بنهر النيجر^(٢).

وربما بفعل انتعاشها التجاري بدأت هذه المدن تشهد في هذه الفترة مدًّا متزايدًا في التعليم، مما سمح بنمو الطبقة العلمية الصحراوية، التي ازدهرت على الإنتاج الثقافي وممارسة القضاء والسلطة الروحية والبحث والحفظ إضافة إلى مباشرة «البركة» وإدارة المخفي وتحقيق علاقات سيادية وإنتاجية بها. وكانت تسير المراكب إلى الحج من كل مدينة، حيث ازدهر الركب الولاتي والركب التيشيتي والركب الوداني والركب الشنقيطي، ما سيتطوّر لاحقًا إلى توحيد مراكب الحج في شنقيطي^(٣)، التي من اسمها سيعرف الشناقطة في المشرق وستعرف البلاد، وإن كان لاحقًا، بـ«بلاد شنقيط». كما أن الحجاج القادمين من السودان كانوا يمشون في القوافل التي كانت تمرُّ عبر هذه الركائب من المغرب، وشكل حج كل هؤلاء جزءًا مهمًّا من العلاقات القوافلية مع المغرب^(٤).

(1) Abitbol, Le Maroc et le commerce transsaharien, 5-19.

(٢) ولد السالم، المجتمع الأهلي، ص ١٧٩.

(٣) نفسه، ص ٩٣-٩٤.

(4) Abitbol, Le Maroc et le commerce, 9

على العموم، ولكن ليس حصراً، فقد كانت الكصور مدناً زاوية أساساً، أما المجموعات الحسانية فقد قدمت لاحقاً للمجال، ولكنها لم تُحرّم منه. فقد استقرت به مجموعات المتفرقة التي قدمت في إطار التوبة أو التجارة أو في إطار تغيير نمط حياتها، وتحولت إلى مجموعات تجارية متمدنة كما كان حال أولاد بلّة وأولاد داوود في تيشيت، أو تحولت إلى مجموعات زاوية متعلّمة كما كان حال قبيلة أولاد أبيّري، التي كانت قبيلة حسانية ولكن أجدادها، أبيّير وأعمامه، قرروا ترك حياة السلاح واستقروا في البراكنة قرب قبيلة تندغة في أواخر القرن السابع عشر، حيث سيصبحون من أبرز قبائل الزوايا^(١). وستشهد القرون اللاحقة تمدّن كثير من المجموعات الغازية وانتقالها إلى الحياة التجارية، ممّا سينتج عنه بناء كصور جديدة في باسكنو والنعمة وغيرها. وفي نهاية القرن الثامن عشر تحدّث وثيقة مغربية عن ٢٠٠٠ ساكن من الودايا في ودان^(٢). من الواضح أن الوثيقة ربما كان تقصد البيضان عموماً، ولكن تسميتهم على اسم الودايا يوحي بحجم الحسانيين في تلك المدينة وربما بحجم تحالفهم مع المغاربة. وكان الشيء نفسه يحدث من خلال تجار أولاد مبارك، الذين كانوا محاربين أشداء، ولكنهم كانوا يتاجرون في الملح بين مدينتي تيشيت في تكانت وبين سيغو في مالي، حسب ما أخبر به مونغو بارك في منتصف القرن الثامن عشر. وفيما عدا هذا، فإن مجموعات مقاتلة كانت تحوم حول المدن وتفرض عليها الجبايات، وخصوصاً في ولاتة التي تعرّضت لأصناف الهجمات من المحلّات والرماة إلى المجموعات الحسانية المختلفة.

بالطبع لم تكن حياة المدن المنتعشة نسبياً تحرّرها من حالة الحرب أو من الأزمات الاجتماعية. ولم يكن انتجاع الزوايا واستقرارهم في المدن وانتهاجهم التعليم والتجارة يعني أبداً أنهم كانوا منزوعي السلاح، بل كان فيهم أهل الدفاع وحماية المال، وكما يُخبرنا الشيخ سيدي محمد الكنتي فقد كان فيهم «الذين يحملون السلاح وتأوي إليه الأتباع، وهم مع ذلك متسيّرون بسيرة الزوايا،

(1) C. C. Stewart. Islam and Social Order in Mauritania: a case study from the nineteenth century. Oxford: Clarendon Press, 1971, p. 1,8

(2) Abitbol, Le Maroc et le commerce, 9.

متدينون»^(١). وربما بفعل توفر السلاح هذا لم تكن حياة الكصور في سلام دائم. وفي أحيانٍ معينة شكّلت المصالح التجارية تنافسًا بين سكان المدن، وأحيانًا دخلت هذه المدن صراعًا على الموارد. ولم تسلم من أزمات تجارية ضاربة؛ فقد تضررت تجارة أيدولحاج بعد عام ١٧٦٠ بسبب خسائر تجارية، وفشل خط الصمغ الذي افتتحوه، ونجمت خسائر مالية بسبب نظام الديون الذي أضع قروضهم للفرنسيين إضافة إلى معاداة إمارة الترازة لهم، وفي الوقت نفسه ظهرت منافسة كتنة القوية لهم. كما تضررت التجارة بفعل الكساد العام الذي حصل لتجارة العبيد وأدى إلى فتور في علاقات إيدولحاج في نجامبور مع الوالو والكايور^(٢).

وغالبًا ما جاءت أزمات المدن من سياساتها الأهلية والداخلية؛ فتعرّضت لمنافسات داخلية أدّت مثلاً إلى صراعات قوية في داخل إيدو علي في شنقيطي في عام ١٦٦٠ الذين احتربوا وانتقل بعضهم إلى تجكجة. ولعلّ هذه الصراعات أدّت إلى نزوح البيضان إلى منطقة تكانت ليس فقط من خلال إيدو علي الذين استوطنوا تجكجة، بل أيضًا من خلال كتنة الذين هاجروا إلى الرشيد وقصر البركة، وأولاد بلة وأولاد داوود الذين نزلوا تيشيت. وغالبًا ما كان هذا النزوح يتعلّق بحروب أهلية. وأحيانًا استمرّت هذه الحروب حتى بعد النزوح إلى تكانت، ففيما يتعلق بإيدو علي البيض، الذين نزحوا إلى تجكجة واستقروا بواديها الخصب، فإن صراعًا أهليًا سرعان ما شبّ في وقعة عُرفت بـ«صركاكة» في عام ١٧٢٧، التي ربما كانت تعني «دوي الرصاص»، وهي معركة شبت إثر اعتداء بعض من وصفهم سيدي ولد الزين بـ«سُفهاء من أولاد أبوهم»، وهو بطن من إيدو علي، على شاب متعبّد من أقربائهم ألقوه في السيل فمات. وبعيد فشل جهود زعيم أولاد اندموك، بطن آخر منهم، في إيقاف تصاعد العداوات؛ بلغ الصراع ذروته في «صركاكة» التي ربما استُخدِم فيها السلاح الناري، كما يوحي اسمها، ونجم الاشتباك عن قتل سبعين شخصًا من أولاد أبوهم^(٣).

(١) الكتي، الرسالة الغلاوية، ص ١٨٢.

(2) Webb, The Evolution, 466-468.

(٣) ولد الزين، كتاب النسب. مخطوط، ٤.

وفي جانب كنتة شبّ صراع داخلي أدّى إلى بناء قصر البركة في أواخر القرن السابع عشر. ولكن هذه المدينة الجديدة فتحت تنافسًا قويًا مع التجارة المزدهرة لإيدولحاج الذين سيقومون في القرن التاسع عشر بتنظيم هجمة يدمرون بها المدينة الكنتية. وفي تيشيت في منتصف القرن الثامن عشر سادت صراعات بين أولاد بوفائدة وأهل الحاج لحسن فطردوهم من المدينة، وبعد سنوات شبّ خلاف أهلي في أولاد داوود نجح فيه أولاد بلة في طرد أولاد بوفائدة. ثم بعد سنوات شبّ نزاع أهلي بين أولاد بلة أنفسهم، الذين استطاع بطن منهم، هو أهل اعمر، التحالف مع أماسنة، السكان الأصليين، وطرد الفرعَيْن الآخرَيْن، الحجاج والدحاجة. وقد ذهب المهزومون وأسسوا قرية لم تحظَ بالقيمة التجارية نفسها لتيشيت، وهي أغريجيت في عام ١٧٥٢^(١).

وفي الجنوب في منطقة اركية سيتعاون زعيمان من إيدوعلي والأقلال، هما الطالب أحمد بن الحاج أمين الغلاوي ومحمد بوكسة العلوي، في بناء قصر السلامة في عام ١٧٣٩^(٢). وربما تعلّق تشييد بعض الكصور برغبات البطون القبلية في التفرّد والاستقلال الجغرافي والتجاري أكثر مما تعلّق بفتنة أهلية. وهذا أمرٌ يمكن أيضًا قوله عن تأسيس مدينة الرشيد بواسطة أحد زعماء كنتة، هو سيدي أحمد بن الطالب سيدي أحمد المعروف بأمينوه حوالي ١٧٩٧. ويبدو أن هذا الرجل كان زعيمًا فريدًا من نوعه بتكانت، بحيث إن المؤرخ وصفه بأنه «نال من العمل والمال والسيادة والرياسة ما لم ينله إلا أمثاله، وقليلٌ ما هم»^(٣). ويبدو أنه أراد ترجمة نفوذه إلى استقلال تُرابي، فحاول أولًا بناء قرية في انتموتاكت، إلى أن تبين أنها أرض لجيرانه من إيدوعلي، فانتقل إلى قصر الرشيد ودفع لقاءه «ألفي دينار» وبنى به المسجد التأسيسي وأكمل بناء القرية في عشر سنوات لاحقة^(٤).

(١) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٤٢-١٤٥.

(٢) تاريخ ابن طوير الجنة، ص ٥٩.

(٣) ولد الزين، كتاب النسب، سبق ذكره، ص ٢٣.

(٤) نفسه.

وربما عاد جزء من أسباب تأسيس الكصور والمدن الجديدة إلى أغراض تكوين مراكز تجارية، وترجمة لحاجات التجارة إلى استراحات في أمكنة التبادل لتردها فيها المقايضة، كما كان حال ولايات في نهاية القرن الثامن عشر التي كانت تُسيّر القوافل إلى تيشيت وتوات شمالاً، وإلى جنبي ورأس الماء وتمبكتو جنوباً، حيث كانت تقايض الأملاح بالبضائع الرفاهية المهمة لاقتصاد الصحراء كالتبغ والعسل والعبيد وثمار الكولة والذهب والقماش^(١). ويبدو واضحاً لمؤرخ تكانت في مطلع القرن العشرين، سيدي ولد الزين، أن إيدو علي البيض كانوا على صلات بالساكنة السوداء في الجنوب، التي عرفها باسم باغنة، وذلك أيام حربهم مع إيدو علي الكحل في ستينيات القرن السابع عشر. وهكذا كانت علاقاتهم التجارية الجنوبية جاهزة؛ لذا لجأوا إلى تكانت بعيد هزيمتهم في شنتيبي على يد أقربائهم الكحل^(٢).

ولم تكن صراعات الصحراء دوماً صراعات مدن، بل لعل أغلبها دار بين القبائل المستقرة في المضارب الصغيرة المستقرة خارج المدن التجارية كما حدث في آخر القرن السابع عشر، عندما تحارب أولاد أبييري وتندغة على سيادة بعض الملحقيين وهو ما أسفر عن معارك دامية استعان فيها أولاد أبييري بأقربائهم من بني حسان، أولاد أحمد، الذين كانوا في مصاهرات معهم، وتمكّنوا من تحقيق الانتصار^(٣). وقد حدث الشيء نفسه في تكانت عندما تحاربت قريتان هما تاس وترلاس وافترقتا، وأصبح الوادي قفراً حتى استوطنه كنة وأسسوا به قصر الرشيد في أواخر القرن الثامن عشر^(٤). وفي الشمال استعرت معارك خصوصاً بين آدرار وسكان تيريس وكانت تتعلق -من بين أشياء أخرى- بالتحكم في الطرق القوافلية وبالسيطرة على المسارح الكبيرة، وهو ما سيتطوّر إلى حروب مستديمة في القرن

(1) Abitbol Michel. Le Maroc et le commerce transsaharien du XVIIe au début du XIXe siècle.

In: Revue de l'Occident musulman et

de la Méditerranée, N°30, 1980. pp. 5-19.

(2) ولد الزين، كتاب النسب في قبائل الزوايا والعرب، ص ٢. مخطوط من مكتبة أحمد باب التنبكي.

(3) Stewart. Islam and Social Order in Mauritania, 23-25.

(4) ولد الزين، كتاب النسب، ص ٢٣.

التاسع عشر. غير أنه برغم هذه الأحداث الجسام والمتسارعة، فإن الأمر لم يكن يتعلّق بعنف ثوري يغيّر حياة البيضان في القرن الثامن عشر. وسنرى أن القرن اللاحق لن يكون إلا تفصيلاً مثيراً، وإن كان أكثر تعقيداً من المنظور السردى، بفعل اتساع المصادر التي عندنا لنمط حياة القرن الذي سبقه.